رواية
سلطانة القاهرة
ديما درويش
نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018

المكلّس، بناية أنطوان

ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان

info@hachette-antoine.com

www.hachette-antoine.com

facebook.com/HachetteAntoine

instagram.com/HachetteAntoine

twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **Private CollectionPhoto © The Fine Art Society, London, UK/Bridgeman Images**

تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

تحرير ومتابعة نشر: **ناتالي الخوري**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-665-1

ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-666-8

Original title:

La Sultane du Caire

Zellige, 2015©

Published by arrangement with Agence littéraire Astier-Pécher

ALL RIGHTS RESERVED

مقدّمة

حين يصبح للتاريخ طعم...

إنّ التاريخ بمفهومه الواسع، غالبًا ما يُختصَر بجملة من الوقائع التي لا توقظ سوى أصداء مبهمة لجداول معارك (كذا انتصارًا، كذا هزيمةً)، وحتّى لإحصائيّات (المحاصيل، ولوائح أسعار الموادّ الغذائيّة، والمناخ). لا شيء أقلّ إنسانيّة من ذاك العلم، الملك المزعوم على العلوم الإنسانية. لكنّ هذا ليس خطأ المؤرّخين: مبالغتهم في الحرص على توخّي الدقّة تقيّدهم. ماذا نعرف عن قورش؟ في الواقع، لا شيء. وإذا خلنا أنفسنا ملمّين بكلّ شيء يتعلّق بنابوليون، فهل نعرف نبرة صوته، أو طريقته في لمس قطعة قماش، أو بريق نظرته؟

هنا يتدخّل الروائيّون، وتحديدًا أولئك الذين يمارسون كتابة ذلك النوع الخاصّ، والمعروف بالرواية التاريخيّة، وذلك لحسن حظّنا. فالتاريخ بالنسبة إليهم نوع من مُربكة كلّ قطعها تقريبًا مفقودة، وحقل شاسع من الحكايات والمآثر البطوليّة يلهب الخيال، لأنّ تلك الحكايات نادرًا ما يُهمَس بها، وقد ضاع نصف كلماتها، حتّى أنّ الحقل نفسه غارق في الضباب أو في الظلمة. إلى العمل! تقع على عاتقهم مهمّة إعادة تكوين المُربكة الصعبة، وإعطائها شكلًا، واختراعها إذا لزم الأمر. على عاتقهم إتمام الجمل، وحمل شمس أوسترليتز على الشروق، تلك الشمس التي ستلقي أخيرًا الضوء على كلّ تفاصيل المسألة – ورواية التاريخ ليست بالأمر اليسير أبدًا.

من وجهة النظر هذه، تصبح ديما دروبي «أريان» المثلى لتقودنا إلى الضوء. والواقع أنّها توائم بين الناحيتين الأساسيّتين للرواية التاريخيّة: صحّة الأحداث والعواطف، أو بتعبير آخر الوقائع والمشاعر. (بالنسبة إلى الوقائع، يجب أن نلحظ على أيّ حال أنّ المؤلّفة اختارت خاتمة قد تدفع إلى تجهّم بعض المؤرّخين المهووسين بالتفاصيل الموثّقة مرارًا وتكرارًا، لكنّها تقوم بذلك عن وعي، وهي على حقّ تمامًا: هذه الخاتمة التي تليق بتراجيديا إغريقيّة تبقى أجمل من الخاتمة التي تُكتب عادة. إنّه ما ينطبق عليه القول اللاتيني الشائع [1] *Se non è vero, è ben trovato*.)

ما خلا هذا الاختلاف في ما يتعلّق بالوقائع، كلّ شيء هنا، كلّ ما نعرفه عن شجرة الدرّ (أو شجر الدرّ أو أمّ خليل...)، والتي هي بلا شكّ المرأة الأشدّ تميُّزا وخروجًا عن المألوف في تاريخ العالمين العربيّ والإسلاميّ. إنّها العمود الفقريّ لهذه الرواية، التي سترضي هذه المرّة أشدّ المؤرّخين تطلُّبا. يا لها من حياة! تلك المرأة التي تقلّبت في مناصب عدّة، فكانت وصيّة على العرش، وقائدة عسكريّة (تولّت تنظيم الدفاع عن مصر في خلال الحملة الصليبيّة السابعة)، وسلطانة، وملكة على المسلمين (كان الدعاء يُرفع لها في صلاة الجمعة)، ومن ثمّ بطلة تراجيديّة لمؤامرة سياسيّة عاطفيّة كان شكسبير ليتوق إلى تجسيدها على خشبته، كيف لها ألّا تجتذب حتّى أسرع القرّاء ضجرًا وتبرُّما؟

أمّا بالنسبة إلى المشاعر، فلعلّها النجاح الأكبر لهذه الرواية. كيف ننكر الشهوانيّة المتّقدة التي يبثّها وصف المشاهد الأكثر حميميّة؟ فحيث قد يكتفي المؤرّخ بعبارة جافّة من قبيل «استغلّت مفاتنها للوصول إلى غايتها»، مبالغًا في الثقة بمخيّلتنا، تقدّم إلينا ديما دروبي البرهان بكلمات رقيقة تداعب أحاسيسنا. يجب أن نكون من حجر لكي لا نسقط بدورنا ضحايا لمفاتن أميرتها، مهما كان الثمن!

تسقط غالبيّة الروايات الأولى في فخّ السيرة الذاتيّة، أو في الخيال الذاتيّ، بالحدّ الأدنى. لكنّها ليست حال هذه الرواية ولحسن الحظّ، وهذا ممّا تستحقّ كبير الثناء عليه. لكنّها ربّما تشبه كاتبتها، على

مستوى مختلف، وبقدر أكبر من الدقّةِ والتورية. هذا الرفض للفصل بين سعة المعرفة والشهوانيّة، بين الفكر والجسد، بين المادّة والحلم، أوَليس في النهاية خطّة جميلة لعيش الحياة، مثل عقيدة إيمانيّة تقترحها علينا؟ لقد أقنعتنا الكاتبة، ونطالب الآن ببقيّة الرواية...

فؤاد لاروي

---

[1] سواء أكانت الرواية صحيحة أم لا، فهي تبقى جميلة.

إلى والديّ، ذَوَي الشغف الذي لا يزال مصدر إلهام لي.
إلى زوجي، وهو كلّ شيء بالنسبة إليّ.
إلى ابنتيّ: نعم، كلّ شيء ممكن، ولكن قبل كلّ شيء، كونا سعيدتين.

كلمة المؤلّفة

شهد القرن الثالث عشر أربع حملات صليبيّة إلى الأراضي المقدّسة، وحملة أخرى إلى أرض مسيحيّة، ضدّ الكاثاريّين. وطُبع بحماسة دينيّة شديدة وبتعاظم نفوذ الرهبانيّات الدينيّة ذات الطابع العسكريّ، في الغرب كما في الشرق: فيما استمرّت رهبانيّة فرسان الهيكل في جمع المزيد من الثروات والسلطة في أوروبا – وهو ما أثار حذر الملوك وغيرتهم، وأدّى في النهاية إلى سقوط الرهبانيّة – كان المماليك، وهم محاربون أشدّاء من الشرق، يستولون على السلطة في مصر وسوريّا.

لعبت الحملة الصليبيّة السابعة التي قادها إلى مصر الملك لويس التاسع (لويس القدّيس)، دور المحفّز الذي أوصل المماليك إلى قمّة السلطة. وبعد خروجهم مظفّرين من معركة المنصورة ضدّ جيش القدّيس لويس – المحاط بأشقّائه وباروناته وفرسان الهيكل وفرسان الإسبتاريّة [1] – اغتال زعماء المماليك آخر ورثة الأيوبيّين. وفي حدث شكّل سابقة في تاريخ المسلمين، بدأوا عهدهم بانتخاب امرأة لتكون سلطانة على عرش مصر.

المماليك

دامت سيطرة العبيد- الملوك، المعروفين بالسلاطين المماليك، على مصر وسوريّا من 1250 وحتّى 151. وتُعتبر حقبتهم إحدى ألمع الحقبات في تاريخ الإسلام. وقد طردوا آخر الصليبيّين وصدّوا غزوات المغول.

المماليك سلالة ذات طبيعة عسكريّة، فريدة في أصولها وعاداتها، ولا تنتقل فيها السلطة بالوراثة. كان أولئك العبيد القدامى الذين أُعتقوا يشكّلون الدولة، وكان السلطان يخرج من صفوفهم. وسبق لهم قبل تسلّمهم السلطة، أن عملوا بخدمة سلالة أخرى، وهي سلالة الأيّوبيّين، المتحدّرين من صلاح الدّين.

إختيرت لفظة «مملوك»، وتعني العبد الذي يملكه شخص آخر، لتمييز أولئك الجنود العبيد، ذوي البشرة البيضاء، عن العبيد السود في الأمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة. ومن شروط المملوك أن يكون من أصل غير مسلم، ومولودًا في بلد أجنبيّ، سكّانه من أصحاب البشرة الفاتحة، وقد بيع ليكون عبدًا في طفولته أو مراهقته. عليه بعد ذلك أن يتلقّى تربية دينيّة وتدريبًا عسكريًّا صارمًا لسنوات عدّة في المدارس الكائنة داخل ثكنات قلعة القاهرة. وهناك يُعهد بكلّ طفل إلى مملوك يكون مسؤولًا عن تنشئته.

كان العرب، القليلو العدد نسبيًّا، بحاجة إلى السكّان الترك والتركمان لتحقيق النصر في معاركهم وإدارة شؤون إمبراطوريّتهم الواسعة. شكّل الترك النواة الصلبة في الجيش العربيّ، وكانوا أوّل مَن يهبّون إلى القتال. وجعلت منهم شجاعتهم وتفانيهم وخضوعهم التامّ لأسيادهم جنودًا يكادون لا يُقهرون.

دقّت ساعة المجد لهذه الطبقة الجديدة من المحاربين، في عهد آخر السلاطين الأيّوبيين، الصالح أيوب، الذي بنى سلطته على العناصر الترك في جيشه. وكانت نخبة ذلك الجيش، المعروفة بـ"الحلقة"، والمكلّفة بحماية السلطان، تتألّف حصرًا من مماليك اشتراهم الصالح بأعداد كثيرة.

الأيوبيّون، السلالة الكرديّة

الأيوبيّون هم المتحدّرون من صلاح الدين وورثة إمبراطوريّته، التي كانت القاهرة عاصمتها. وامتدّت أراضيها لتشمل مصر الفاطميّة والإمارات السوريّة التي استعادوها من بارونات الفرنجة. أعاد صلاح الدّين المذهب السنّي إلى مصر الفاطميّين الشيعة. وبعد موته، تقاسم أفراد عائلته أمبراطوريّة مصر

وسوريا. إحتفظت القاهرة بالسلطة المركزيّة، وتعيّن على الأمراء الأيّوبيّين إعلان ولائهم للسلاطين المتحدّرين من عائلة شقيق صلاح الدّين.

كانت حروب الأنسباء جرحًا مفتوحًا في جسم النظام الأيوبيّ، وأدّت في النهاية إلى إضعاف السلطة المركزيّة في الأمبراطوريّة ومهّدت السبيل لوصول العهد المملوكيّ. وما كان من الصالح، آخر السلاطين الأيوبيّين، وبعدما خيّبته خيانات أنداده الأمراء، وتخلّت عنه الوحدات الكرديّة في الجيش المصريّ، إلّا أن جعل عبيده الترك ركنًا لسلطته.

ظهرت إلى جانبه امرأة استثنائيّة، وهي زوجته شجرة الدرّ، التركيّة الأصل، ومن المماليك أيضًا. كانت شجرة الدرّ الحبّ الأعظم في حياة الصالح، ومستشارته السياسيّة. وحين قضى المرض عليه في خضمّ حربه ضدّ الجيش الصليبيّ بقيادة الملك الفرنسيّ لويس التاسع، ترك الإمبراطوريّة ووريثه والحملة العسكريّة بين يدَي زوجته.

وفي خطوة غير مسبوقة في التاريخ الإسلاميّ، أعلن المماليك شجرة الدرّ سلطانة كاملة الصلاحيات، فحكمت وكان لقبها «ملكة المسلمين». ثمّ عادت لتذعن لضغوط الخليفة العبّاسيّ في بغداد والأمراء الأيوبيّين، وتتزوّج بقائد جيشها، أيبك.

كانت شجرة الدرّ صلة الوصل بين مرحلتين كبيرتين. وقد سهّلت استيلاء طبقة المماليك على مقاليد السلطة حين حرّضت على اغتيال طوران شاه، آخر الورثة الأيوبيّين، وأضفت شرعيّة على اعتلاء أيبك العرش.

تلك المرأة ذات القدر الخارج عن المألوف، تستحقّ شهرة توازي شهرة الملكات، صاحبات الطموح والشجاعة في العالم كلّه. إليكم قصّة هذه المرأة الاستثنائيّة.

---

[1] فرسان الإسبتاريّة معروفون أيضًا باسم فرسان مالطة أو فرسان القدّيس يوحنّا.

الشخصيّات الأساسيّة في الرواية

عبّاس: عبد أسود خصيّ، من حرس شجرة الدرّ.

أيبك، السلطان المعزّ: أوّل سلاطين المماليك، والزوج الثاني لشجرة الدرّ.

بَيْبَرْس (ومعناه الحرفيّ «الفهد»): مملوك كان عبدًا للسلطان الصالح. بقي وفيًّا لشجرة الدرّ. طرده أيبك عندما أصبح هذا الأخير سلطانًا.

شجرة الدرّ: أَمَة يعود أصلها إلى السهوب الشماليّة، أهداها الخليفة العبّاسيّ في بغداد إلى الأمير الأيوبيّ الصالح أيّوب. فتزوّجها وأصبحت أقرب مستشاريه. عند موت الصالح أيّوب، انتُخبت سلطانة.

القائد حسن: مشرف على قصر الخليفة في بغداد.

العادل: ثاني أبناء السلطان الكامل. نُصِّب سلطانًا عند وفاة الكامل. خلعه عن العرش العناصر الترك في جيشه ليستبدلوه بشقيقه.

الفايزي: وزير أيبك، القبطيّ الأوّل الذي يصل إلى هذا المنصب.

الكامل: سلطان مصر. ابن شقيق صلاح الدّين. ووالد الصالح أيّوب والعادل.

المستعصم بالله: آخر خليفة على بغداد قبل غزو المغول.

الصالح أيّوب: أوّل زوج لشجرة الدرّ، وآخر السلاطين الأيّوبيين.

جمال الدين محسن: المشرف على القصر، ومن أقرب المقرّبين إلى شجرة الدرّ والمؤتمنين على أسرارها.

ابن مرزوق: مملوك عجوز، وأحد آخر أنصار شجرة الدرّ المخلصين.

كافور: خَصيّ، وهو الحارس الشخصيّ لشجرة الدرّ وأخلص خدّامها.

كريمة: خادمة أمّ عليّ.

قُطُز: مملوك للصالح. إختار خدمة أيبك الذي منحه لقب نائب السلطان. أصبح وصيًّا على العرش عند إعلان ابن أيبك القاصر سلطانًا.

نايا: خادمة شجرة الدرّ الأشدّ إخلاصًا لها.

نور الدين عليّ: ابن أيبك.

أمّ عليّ: الزوجة الأولى التي طلّقها أيبك، وعدوّة شجرة الدرّ اللدود.

زهرة: أَمَة شابّة وجميلة، تابعة لشجرة الدرّ.

ما نفع ضوء الشمس لمَن أغمض عينيه؟

يوم الثلاثاء في العاشر من أبريل 1257، كان الصباح الصافي والدافئ يبشّر بنهار رائع في بلاد النيل. وفي سماء شديدة الزرقة لم تجرؤ على تعكير صفوها غيمة واحدة، كانت الشمس تغمر مدينة القاهرة بالنور وشذرات الذهب الملتمعة بين أوراق الشجر وفوق مياه النهر الفيروزيّة. جلست السلطانة شجرة الدرّ في جناحها الفخم بقصر قلعة القاهرة، يعتصرها الحزن والمرارة، وهي تقول في سرّها إنّ نهارًا كهذا خُلق للحبّ والسعادة، لا للموت واليأس اللذين يستبدّان بأفكارها.

كانت السلطانة مسترخية في سريرها السابح بضوء شمس ذلك الربيع، متّكئة إلى كومة من الوسائد الناعمة، والمكسوّة بأغطية حريريّة تزهو بتموّجات اللونين الأخضر والأزرق، والمطرّزة بخيوط ذهبيّة وفضّية، تتداخل لتنفح الحياة في عصافير خلّابة وأزهارًا نضرة ونباتات عجيبة. كان مزاج السلطانة الجميلة بعيدًا كلّ البعد عن السعادة والصفاء. لم يغمض لها جفن قبل الفجر، حين استسلمت، بعدما أنهكتها الأفكار السوداء التي لا تنفكّ تقضّ مضجعها بلا هوادة، لساعات معدودة من النوم.

كان اللونان الأخضر والأزرق هما المفضّلان لدى السلطانة، التي تصرّ على القول إنّهما يسمحان بصفاء الذهان والتفكير العميق والنوم الهانئ، ويستحضران أسعد الأحلام. أمّا الغرفة، الشبيهة بعلبة ثمينة للدرر، تسكنها هذه المخلوقة الرائعة والمسمّاة «شجرة الدرّ»، فقد انسدلت فوق جدرانها، الحرائر والسجّاد والغلالات يطغى عليها اللونان المذكوران، والمطعّمة بالذهب والفضّة، والمزدانة هنا وهناك بلمسات فاقعة من الأحمر أو الأصفر، تبثّ الدفء في تلك اللوحة البحريّة، التي صنعها أفضل فنّاني مصر.

في الماضي، وجدت الحوريّة الجميلة في ذلك الملجأ صفاء الذهن والتوازن اللذين تحتاج إليهما لتخوض معاركها. كما وضعت فيها أفضل خططها الحربيّة، وخاضت معاركها الأعنف شبقًا. تلقّنت منذ سنوات صباها فنون الحبّ والإغراء، الشرقيّة والمثيرة، لتخرج منها مظفّرة دائمًا، بينما يخرج غريمها خاضعًا، لكن سعيدًا.

غير أنّ سحر المكان لم يفعل فعله في تلك الليلة. فشجرة الدرّ كانت تتعذّب، وحين غلبها النوم، كان مسكونًا بالشياطين ومضطربًا بكوابيس مروّعة. بات القلق رفيق أيّامها وانغرست جذور الإحباط عميقًا في فكرها. أمّا التموّجات الزرقاء الفيروزيّة والخضراء الزمرّديّة، ألوان عينيها وحجارتها الكريمة جالبة الحظّ، فقد تلاشت قدرتها المهدّئة.

كانت السلطانة تحاول يائسة أن تتبيّن بوضوح ما يختلج في أعماق ذاتها، وفي الأحاسيس المشؤومة التي أيقظتها التصرّفات الأخيرة لزوجها الثاني حيالها، السلطان المعزّ أيبك. حتّى ولو كانت دائمًا امرأة العقل، فإنّ قلبها لم يكن بعيدًا قطّ حين يتعلّق الأمر برجال حياتها. وها الشغف اليوم يتغلّب على المنطق. وجودها مهدّد والسلطة تكاد تفلت من بين يديها نهائيًّا. وزوجها يخطّط لزواجه الثاني من أميرة شابّة.

تأرجح قلبها بين السخط والخوف، غير أنّ الانتقام الذي ينادي به كبرياؤها الجريح هو الذي سيطر على تفكيرها. كان الانتقام يحثّها على تصفية حسابها مع الجاحد الذي يدين لها بكلّ شيء، ومع ذلك قد زيّن له غروره إهانتها. كان أيبك الرجل الوحيد الذي أحبّته بشغف. لصحيح أنّ ذلك الشغف لم يدُم سوى سنوات قليلة، أي الوقت الكافي لتعرفه على نحو أفضل، لكنّ الشغف الجارف عينه هو ما سمح له بالوصول إلى حيث هو اليوم، على رأس أمبراطوريّة مصر وسوريا.

بعد موت زوجها الأوّل، السلطان الأيّوبيّ الصالح، رغب كثير من الأمراء المماليك في الزواج من الأرملة الجميلة. أولئك الأمراء كانوا القوّة الحقيقيّة للأمبراطوريّة، وقد منحوا ثقتهم للمرأة الكفوءة والحكيمة، أرملة سيّدهم جميعًا، الراحل الصالح أيّوب. كانت قادرة على حكم البلاد، كما دأبت أن تفعل خلال حياة زوجها. كان الجميع يعرفون أنّ شجرة الدرّ تمثّل أثمن ما لدى الصالح: هي زوجته، والمؤتمنة على أسراره، ومستشارته السياسيّة الأولى، والأغلى على قلبه، حتّى من أولاده. وفي أثناء غيابه، كانت هي مَن تدير شؤون الدولة.

عند وفاة السلطان الصالح أيّوب، وفي خضمّ الحرب ضدّ جيش الملك الفرنسيّ لويس التاسع، عرفت شجرة الدرّ كيف تدير الأزمة ببراعة وحذاقة وشجاعة تليق بأعظم السلاطين. لقد نجحت في المحافظة على وحدة البلاد وقهر جيش الصليبيّين، فتجرّأ أمراء المماليك التابعين للصالح أيّوب على اتّخاذ ذلك القرار الذي لا سابقة له في تاريخ العالم الإسلاميّ: انتخبوا على رأس الدولة امرأة، ومنحوها مقاليد السلطة الرسميّة كاملة. قبضت شجرة الدرّ بيديها الناعمتين والحازمتين على أعنّة الدولة مدّة ثمانين يومًا مجيدة. كان لقبها «ملكة المسلمين».

لكنّ أصواتًا بدأت تعلو ضدّ استلام امرأة الحكم، وقد كان لأحدها، أكثر من غيره، القدرة على جعلها تذعن؛ صوت الخليفة في بغداد، الزعيم الروحيّ للعالم الإسلاميّ قاطبة. رغبةً منها في المحافظة على وحدة الإمبراطوريّة وسلامها، كان على شجرة الدرّ أن تبحث بسرعة عن زوج تجعل منه سلطانًا شريكًا. تنازلت عن العرش بدون أن تتخلّى عن السلطة.

إختارت أيبك. وأرادته لتقاسمه السرير والعرش. أيبك، ذاك العبد القديم، والعسكريّ الذي ارتقى المناصب العسكريّة ليصبح أتابِك [1]، قد جعلت منه شجرة الدرّ سلطانًا، فاتّخذ اسم المعزّ أيبك، ثمّ أحكم سيطرته على الدولة.

كان لشجرة الدرّ ما يكفي من الفطنة والدهاء لتفهم أنّ أيبك استطاب طعم السلطة، وأنّ العبد الذي بات ملكًا، يريد التحرّر ممّن أحسنت إليه، ومن التي يدين لها بصعوده الصاعق. لقد بات لديه مجموعته الخاصّة من المماليك والمستشارين، الذين راحوا يحاربون أنصار النظام السابق المخلصين، وخصوصًا السلطانة. في الواقع، ضاق هؤلاء الحلفاء الجدد ذرعًا بسطوة شجرة الدرّ على أيبك، وتدخّلها في شؤون البلاد، فلم يوفّروا جهدًا لتحريره من نفوذها.

وهكذا نجحوا في حمله على تغيير مقرّه: بعدما التقى أيبك منجّما تنبّأ له بأنّه سيموت على يدَي زوجته، اختار الإقامة في مسكنه، في باب اللوق، تاركًا قصر قلعة الجبل، حيث تقيم شجرة الدرّ، حاكمة مطلقة بدون منازع. كان صلاح الدين، الجدّ الشهير للصالح أيّوب، ومؤسّس سلالة الأيوبيّين، قد شرع في بناء تلك القلعة العام 1176 فوق مرتفع متّصل بجبل المقطّم المشرف على مدينة القاهرة.

لم يعد أيبك يمرّ لرؤية زوجته في مسكنها إلّا في ما ندر، كما توقّف عن استدعائها طلبًا لمشورتها في شؤون الحكومة، وباتت القطيعة نهائيّة. شعرت السلطانة بأنّها وحيدة وضجرة مُتعبة، أمام الشدّة التي حلّت بها، لكن، وبعد سنوات كثيرة طبعتها المعارك وكلّلها المجد، أدركت السيّدة العظيمة أنّها لم تعد تملك خيارًا. عليها أن تتسلّح بالشجاعة وتتصرّف.

راحت معدتها تتقبض كلّما مرّت ببالها فكرة خيانة أيبك وغدره. واستبدّ بها شعور مروّع بأنّ يد جنّ عملاقة تلوي أحشاءها بلا هوادة، لتصعد منها حموضة تشعل في حلقها حريقًا مرعبًا، فيما يده الأخرى تضغط على صدرها، فتعتصر رئتيها، ويصبح تنفّسها لهاثًا. كان وضعها يزداد سوءًا حين تفكّر بأنّها، وبعد زواج أيبك بخطيبته الشابّة، وهي ابنة أتابك الموصل، بدر الدين لؤلؤ، ستتعرّض للقتل عاجلًا أم آجلًا، أو حتّى أسوأ، ستُرسَل إلى غياهب نسيان الحريم. شعرت السلطانة بأنّها ذليلة بفعل دخول تلك

المبتدئة، ولامت أيبك إذ أوصلها إلى تلك الحال. كانت تعاني الأمرّين من مشاعر التقهقر والغيرة تلك. قرار أيبك الزواج بأخرى قد حسم مصيرها، وسيعجّل بهلاكها.

لطالما قضّ مضجعها ذلك المشهد الذي كشف لها خيانة أيبك. كانت شجرة الدرّ تجلس خلف المشربيّة المشرفة على باحة القصر، كعادتها كلّ صباح، لتراقب حركة الذهاب والإياب في القلعة. بناءً على أوامر المعزّ أيبك، كان قد ألقي القبض على مجموعة من قدامى مماليك زوجها الراحل، ممّن بقوا مخلصين له، في إطار حملة تطهير ضدّ أنصار النظام السابق. في طريقهم إلى سجون القلعة، كان عليهم المرور تحت نافذة شجرة الدرّ، فاغتنم أمكرهم، ويُدعى أيديكين، وكان على معرفة بعادات السلطانة، تلك الفرصة ليفضح بصوت مرتفع، وباللغة التركيّة التي تفهمها شجرة الدرّ، ظلم المعزّ أيبك. صاح قائلًا إنّ أيبك يرسلهم إلى السجن لأنّهم يستنكرون زواجه المُزمَع بابنة أتابِك الموصل.

كان ذلك المملوك يعي تمامًا ما يفعل بفضحه أيبك أمام زوجته الرهيبة. كان ينتقم حتّى قبل أن يُزجّ به في السجن. وقد طمأنه المنديل الذي لوّحت به شجرة الدرّ. فالسلطانة سمعته جيِّدا: السهم المسموم طار لينغرز عميقًا في هدفه، أي في قلب السلطانة الشديدة الكبرياء.

---

[1] قائد الجيش.

لا يُغلق اللّٰه بابًا إلّا ويفتح بابًا آخر

تحقّقت المعجزة. معجزة كانت شجرة الدرّ قد فقدت كلّ أمل باحتمال حدوثها. فالسلطان المعزّ أيبك استجاب أخيرًا لدعواتها الكثيرة، ووافق على أن يقوم هذا اليوم، ومباشرةً بعد صلاة الظهر، بزيارة إلى الزوجة التي هجرها. من الواضح أنّها كانت مناسبة ذهبيّة يجب عدم تفويتها، وهو ما أثار جزع السلطانة مع اقتراب ساعة الحقيقة.

لقد تعيّن عليها أن تطوّر فنونها في الإقناع، وتضاعف من إرسال إشارات الندم والعاطفة، وتُظهر حُسن نواياها، متوجّهة خصوصًا إلى حسّ أيبك العمليّ. نظرًا إلى الانعطافة التي تسلكها الأحداث، بات توضيح الأمور بين هذين المُمسكين بزمام السلطة، حاجة ماسّة.

لم تألُ زهرة، الأمَة الفاتنة والذكيّة التي أرسلتها السلطانة إلى أيبك، جهدًا في وصف حالة اليأس التي بلغتها سيّدتها. أوضحت للسلطان أنّ شجرة الدرّ تعتبر غياب زوجها عنها، والذي طال، بمثابة عقاب لها، وأنّها قد تلقّنت العبرة جيِّدا وباتت مستعدّة لأن تُقسم يمين الطاعة. وجدت زهرة الوسائل اللازمة لإنجاح مهمّتها، فشجرة الدرّ التي لم يكن يهمّها سوى عودة أيبك إلى القلعة، أطلقت يد خادمتها تمامًا في التصرّف.

كانت شجرة الدرّ وأيبك، العاشقان اللذان باتا غريبين، وشريكا الحكم اللذان تحوّلا إلى عدوّين، قد تجنّبا حتّى ذلك اليوم، خوض مجابهة لم يشعرا بعد بأنّهما مستعدّان لها، بل راحا يدبّران مكائدهما سرًّا. كان كلّ منهما يعرف الآخر جيِّدا ويدرك أنّه يمثّل له غريمًا كبيرًا، يجب الاقتراب منه بحذر. فبقاء الواحد كما الآخر على قيد الحياة، يتوقّف على ذلك.

لكنّ السلطانة التي اعتادت إدارة شؤون الدولة، لم يعد بوسعها تحمّل هذا البُعد عن مركز السلطة. كما أنّ الآلام التي كانت تنهش جسدها وقلبها، قد زادت حدّتها منذ تأكيد خبر خطوبة أيبك. لذا، عاهدت نفسها على إيجاد حلّ نهائيّ. لقد باتت تخشى على حياتها، وشعرت بأنّ زمن الحيرة والعذاب قد طال بما يكفي. حزمت أمرها ودعت أيبك بإلحاح إلى زيارتها. لعلّها أرادت أن تمنحه فرصة ليبرِّر نفسه قبل أن تَحسُم مصيره.

نايا

كانت نايا، آية الجمال الأسود، والمرهفة والذكيّة، الأمَة الأشدّ إخلاصًا لشجرة الدرّ، والتي لا تفارق جنبها أبدًا. إلى جانب دورها في إدارة جيش الخادمات المولجات بملابس الملكة، وحمّامها وجمالها، أصبحت نايا شريكة سيّدتها في مخطّطاتها والمؤتمنة على أسرارها. كانت متفانية وتكدّ لاهثةً لتحقيق كلّ أمنياتها.

في تلك اللحظة تحديدًا، كانت الأمَة الوفيّة جالسة عند طرف سرير شجرة الدرّ، ترمقها بنظرات الإجلال والقلق، مدركةً تمامًا ما يدور في ذهن مليكتها، فلا تقلّ عنها عذابًا وهمًّا. أمضت نايا الليل بكامله بدون أن يغمض لها جفن، تسمع سيّدتها تتقلّب في سريرها. كان مهجعها الدائم في غرفة محاذية لغرفة السلطانة، غير بعيدة من الباب، حيث تبقى طوع بنان سيّدتها، في كلّ وقت من النهار أو من الليل.

لبثت الأمَة متردّدة في أن تقطع حبل الأفكار التي قرأتها على وجه السلطانة. ولكنّها، وأمام أهمّية الزيارة التي طال انتظارها، وجدت في نفسها الشجاعة لتتكلّم، فقالت:

– يا مولاتي العزيزة، أعددتُ الحمّام لأزيّنك بسرعة. لم يبق أمامنا سوى وقت قصير لترتدي ملابسك قبل وصول السلطان.

إلتمع بريق الحياة في عينَي شجرة الدرّ، عاكسًا شعورها بالحماسة. ثمّ استدارت نحو نايا وقالت لها:

– أنا مُتعبة جدًّا... لكنّك على حقّ يا عزيزتي نايا. يجب أن أتجمّل لأستقبل زوجي. مضى وقت طويل لم يرَني فيه، وعليّ أن أكون على قدر الصورة التي يجب أن يحتفظ بها عنّي. محال أن أدعه يراني في هذه الحال من العذاب. قومي بما عليك، ولكن، لنحافظ على البساطة. ألبسيني ملابس عاشقة تنتظر محبوبها الذي لم يغب عنها سوى نهار، لا ملابس ملكة هجر زوجها قصرها منذ أشهر طويلة.

– فكرة ممتازة يا مليكتي. ستكون في انتظار السلطان المعزّ أيبك مفاجأة جميلة، حتّى أنّه قد يؤخذ على حين غرّة، فيرتبك.

– نعم، أريد إرباكه لأكتشف حقيقة نواياه تجاهي. هاتي المرآة، أريد أن أرى وجهي وأتأكّد من أنّ جمالي لا يزال على حاله، بعد ليلة الأرق التي قضيتها. لعلّي أستطيع أيضًا أن أغويه. مَن يدري ما سيحسّ به حين يختلي بي بعد هذا الفراق الطويل؟

ثمّ أضافت، بضحكة صغيرة ساخرة، وهي تتأمّل نفسها في مرآتها:

– لعلّه يغيّر رأيه ويعدل عن الزواج. أتظنّين ذلك ممكنًا يا نايا؟ ألا أزال أملك ما يكفي من الجمال لإغرائه؟

– سيكون أحمق إن لم يعدل عن الزواج يا مولاتي. لن يجد أبدًا امرأة تضاهيك جمالًا وذكاءً.

– لعلّك على حقّ. غير أنّ ذكائي ومهاراتي هي التي تثير خوفه. أيبك رجل أحمق وحديث النعمة. وهو لا يكتفي بمنعي من إدارة شؤون الدولة كما فعلتُ دائمًا، بل وأيضًا لم يعد يرغب في نصائحي الثمينة. إنّه يريد السلطة لنفسه فقط. أكثر ما كان زوجي الأوّل الصالح أيّوب يقدّره فيّ هو ذكائي، وحتّى أكثر من جمالي وحبّي للحياة. لم يُخِفه ذكائي، بل على العكس، كان يطمئنّ إلى وجود امرأة ترشده وتسدي إليه النصح. لم يشعر بأنّ مهاراتي مصدر تهديد له. وقد اعتمد عليّ، لأنّه كان سلطانًا

كبيرًا وكاملًا بحقّ. لم يتمتّع بوسامة هذا الجاحد أيبك، لكنّه كان ملكًا حقيقيًّا ونبيلًا، أسكنه الله فسيح جنانه! ولكن، لقد عملت كثيرًا لتتحقّق هذه الزيارة، وسيكون من المؤسف أن يجدني أيبك في مثل هذه الحال من الاضطراب. لنبدأ الاستعدادات، وبعد الحمّام اطلي وجهي بطبقة رقيقة من مستحضرات التجميل، لإخفاء آثار ليلة الأرق هذه.

ما رأته شجرة الدرّ في مرآتها، طمأنها إلى قدرتها على الإغراء. فالجمال غير المألوف لتلك الآتية من السهوب الشماليّة قد اشتهر في كلّ أرجاء العالمَين، العربيّ والتركيّ. وقد ألهمت في حياتها عددًا من الشعراء والقَصّاصين، بعدما أصبحت أسطورة. كان الخالق سخيًّا على نحو استثنائيّ مع شجرة الدرّ فأسبغ عليها جمالًا من ذلك النوع الفريد والنادر الذي يتحدّى السنوات. ولعلّ النحّات السرمديّ راح يتأمّل بإعجاب نجاح تحفته، وقد طلب إلى الزمن أن يعاملها برفق، ويتريّث طويلًا في تغيير ملامحها. كانت شجرة الدرّ، ولها من العمر ثمانية وثلاثون عامًا، تبدو أصغر بعشر سنوات. فالأعوام تنزلق على بشرتها الناعمة، من دون أن تترك سوى آثار صغيرة تكاد لا تراها العين المجرّدة.

سرّحت نايا بنشاط شعر سيّدتها الرائع والطويل، ذا اللون الكستنائيّ الحادّ، لتتركه لمَّاعا ومتموَّجا حتّى خصرها. ثمّ ساعدت السلطانة لترتدي فستانًا طويلًا من الحرير الأخضر الغامق، ذا كمّين يتّسعان كلّما اتّجها نحو معصميها الدقيقين، ويكشفان عن بشرتها البيضاء مع كلّ حركة من ذراعيها المصقولتين. كان زنداها الأبيضان والمزيّنان بعروق صغيرة زرقاء تكاد لا تُلاحَظ، شبيهين بالخزف الملكيّ الصينيّ الفاخر. وكان فستانها مفتوحًا حتّى صدرها ويُبرز عنقها الطويل والأنيق، الشبيه بعنق بجعة بيضاء، ما يمنح رأسها شموخًا طبيعيًّا. وعلى جانبَي فتحة صدرها تنحدر رسوم هندسيّة مطرّزة بخيوط الذهب لتتّصل بزنّار عريض مطرّز بالرسوم الهندسيّة عينها، ولكن بقياس أكبر. كان ذلك الزنّار يطوّق خصرًا نحيفًا وأهيف كغصن صفصاف، تُبرزه انحناءات جسدها المسكوبة والمرسومة بتناغم.

عشيّة ذلك اليوم، كانت شجرة الدرّ قد بقيت مطوّلًا في الحمّام، استعدادًا لتلك الزيارة. أمرت خادماتها بنتف شعيرات جسدها تمامًا، ولم تسلم شعرة واحدة، حتّى بات جسدها المدلّك بالزيت المعطّر، برَّاقا وناعمًا كالحرير. لم يبقَ أمام نايا هذا الصباح، وقبل أن تساعد السلطانة على ارتداء ملابسها، سوى أن تفرك بشرتها بمنشفة مبلّلة بماء الزهر وتدلّكها بمرهم له العطر عينه.

لاستقبال أيبك، أرادت السلطانة لنفسها مظهرًا غير متكلّف، مع الحفاظ على لمسة من الإغراء والنضارة. إنّها المرأة، لا الملكة، التي تستقبل زوجها. كانت تعلم أنّ المرأة السياسيّة النافذة فيها، هي ما يزعجه منذ بداية اقترانهما. ومع ذلك، تفوّق شغفهما آنذاك على أيّ اعتبار آخر، وكان ارتقاء أيبك الصاعق يبهره ويجعله يتقبّل كلّ ما يأتي من محسنته. لم تكن شجرة الدرّ بامرأة مغفّلة، غير أنّها كانت ترجو في سرّها أن تنجح، بحبّ وذكاء، في تبديد قلقه، وجعله يتقبّل أن يكون لامرأة من معيارها دور سياسيّ سائد وعلنيّ. لم يعد لشجرة الدرّ ما تثبته، فالجميع يعلم أنّها أنقذت العرش مرّات عدّة.

أيبك، الإناء ينضح بما فيه

إتّجه أيبك إلى جناح السلطانة بدون أن يعلن عن وصوله، كأيّ رجل يعود إلى منزله. لا شكّ بأنّ سيّد القصر أراد مباغتة شجرة الدرّ ليحاول، هو أيضًا، إرباكها. لحسن الحظّ أنّ نايا التي وقفت عند النافذة مترقّبة، أبلغت شجرة الدرّ بوصول زوجها، لكيّ يتمّ اللقاء وفقًا لمخطّطها.

قرّرت شجرة الدرّ انتظار أيبك مستلقية على أريكة فخمة من النسيج المقصّب، والتظاهر بأنّ تعبًا عابرًا يمنعها من الوقوف لاستقبال السلطان بلياقة أكبر. كانت تلك وضعيّة تسمح لها باجتذابه إليها لتذكّره بالأوقات السعيدة على تلك الأريكة عينها، فتتوالى عندئذٍ فرص الاستسلام للشهوات الجارفة، أفخاخًا يصعب تفاديها. لم تشأ أن تبدو امرأة مسيطرة، بل على العكس تمامًا، أرادت إظهار هشاشتها كأنثى. كانت تنوي الإفادة من ذلك، كما من كلّ ما وضع الرّحمن في تصرّفها من أسلحة، راجيةً بذلك أن تثني أيبك عن تحقيق مشاريعه كرجل حديث النعمة، طامع بنيل رضا الأمراء الأيّوبيّين، فتضع حدًّا لخطوبته على سليلة النسب الملكيّ.

من جهتها، كانت مدينة له أيضًا بتفسيرات، فهي تتآمر ضدّه مع بعض أولئك الأمراء الأيوبيّين أنفسهم. الواقع أنّه كان من الصعب جدًّا عليها أن تبقى مكتوفة اليدين، تتدب مصيرها. مؤامرات شجرة الدرّ لم تكن سوى ردّ فعل على خيانات أيبك.

كان في انتظار الزوجين مواضيع نقاش عدّة، ومشاكل يجب حلّها وضغائن يجب تجاوزها. شأن كلّ العبيد المماليك، يعود أصل أيبك إلى بلد غير مسلم، لأنّ الإسلام يحرّم استعباد المسلمين. وهو لم يعتنق الإسلام إلّا في مراهقته، بعدما اشتراه الصالح أيّوب ودخل إحدى المدارس الدينيّة والعسكريّة، حيث نشأ على نهج سائد في الإسلام، يدعو إلى الحدّ من الظهور العلنيّ للنساء ومن دورهنّ في المجتمع، وإلى حصرهنّ في الدائرة الضيّقة للمنزل والحريم. عاش أيبك أصوله الوثنيّة كوصمة عار تُرغمه على أن يثبت باستمرار تقواه وصحّة إيمانه. بيد أنّ تلك الخلفيّة المحافِظة التي حجبتها نيران شغفهما لفترة قصيرة، عادت بسرعة إلى الظهور تحت شمس القاهرة، بمساعدة من بعض المستشارين ورجال الدين الذين راحوا يمارسون تأثيرهم على روح السلطان المعزّ أيبك المشتعلة تقوى وغيرة على الدين.

بعد سبع سنوات من الحياة المشتركة، اضطرّت شجرة الدرّ إلى الاعتراف بأنّ مشروع الزواج هذا بين أيبك والأميرة الشابّة إنّما هو برهان صارخ على فشلها الشخصيّ. كانت خيبتها عظيمة، على قدر التوقّعات التي بنتها. كما كانت على درجة عالية من صفاء الذهن والصدق تجاه نفسها، لتعترف بأنّ شعورها بالغيرة يفوق حتّى شعورها بالخيبة. ولكن، أيّة امرأة، ولو كانت أجمل النساء، لن تشعر بالغيرة حين تكتشف رغبة زوجها في الزواج من امرأة أخرى، تصغرها سنًّا بأعوام كثيرة؟

وعلى الرغم من ذلك، لم تفهم شجرة الدرّ مصدر غيرتها تلك. فأيبك يواظب ومنذ سنوات على معاشرة الإماء الشابّات في حريمه، حتّى أنّها شجّعته على ذلك، لأنّ نار شغفها به كانت تخبو بمقدار ما تزداد معرفتها به. أمّا اليوم، فإنّ أميرة يتزوّجها شرعًا، ستأتي لتستقرّ في قصرها وتأخذ مكانها كسلطانة، ويبقى سريرها هي فارغًا إلى الأبد. أي أنّ مشكلتها الحاليّة كانت سياسيّة أكثر منها عاطفيّة.

لم يرَ الله، بحكمته اللامتناهية، قرانهما أهلًا لأن يثمر. ليالي الحبّ التي جمعتهما، والتي لا تعدّ ولا تحصى، طلعت عليها الشموس، من دون أن تزرع في أحشاء السلطانة بزرة حياة. أفلتت من شجرة الدرّ تنهيدة كئيبة. كان الحزن يساورها دائمًا كلّما مرّت ببالها فكرة ذلك الطفل الذي قد يغيّر حياتها لو أتى. لكنّ الوقت الآن ليس قطعًا وقت الاستسلام للندم. يجب عليها ألّا تتأثر وتضعف قبيل مجابهة أيبك،

الذي لن يتأخّر في الوصول.

زادت ثقة السلطانة بنفسها حين رأت انعكاس صورتها في المرآة، التي كانت نايا قد وضعتها على طاولة صغيرة بالقرب منها. كان لون فستانها الأخضر الغامق يُبرز بريق عينيها الزمرّديَّتين. في لحظات القلق، كان لونهما يصبح أشدّ إشراقًا، ويلتمع كما لدى المحمومين. وكان لون فستانها يُبرز بشرتها البيضاء. ولم يكن فمها ذو الشفتين المكتنزتين والقرمزيّتين يطلب سوى أن يُفترس.

تأكّدت السلطانة من انسدال شعرها الطويل حول وجهها، وعلى الوسائد حيث ألقت برأسها. لقد باتت مستعدّة لاستقبال زوجها السلطان المعزّ أيبك.

أيبك، يجب عدم خوض المياه
قبل معرفة عمقها

تجمّد أيبك في مكانه، وراح يتأمّل الصورة الكاملة التي وقعت عليها عيناه. إلتفتت شجرة الدرّ نحوه بأجمل ابتساماتها، ما زاد في حيرته. كانت تستلقي على كومة من الوسائد المكسوّة بالحرير المطرّز التي تُبرز، كطوق مخمليّ، بياض بشرتها الناصع وشعرها المتموّج الساحر الذي بسطته نايا بكثير من العناية والفنّ. وقد هرعت الخادمة قبيل دخول السلطان لوضع اللمسات الأخيرة على تلك اللوحة الخلّابة.

تظاهرت شجرة الدرّ بالرغبة في النهوض، ومدّت ذراعها نحو أيبك. توقّف السلطان لثوانٍ قليلة، بعدما نال التردّد من خطواته التي أرادها جامدة وحازمة. من الواضح أنّه اضطرب، وقد باغتته الجمال والسحر المرتسمان أمام عينيه. كان يتوقّع أن يرى امرأة ثائرة، ناقمة ومتعالية تنهال عليه بالسباب والتأنيب، فوجد نفسه أمام امرأة جمالها يفوق الوصف، لا تقاوَم وضعيفة في آن واحد، تدعوه إلى الجلوس بجانبها.

لا شكّ بأنّ السلطان قد حافظ على وسامته، برغم مشارفته عامه الستّين. يعني اسم «أيبك» «الأمير القمر»، ولوسامة الرجل ضلع في إطلاق هذه التسمية عليه. كان رشيق القامة وقادرًا، حين يرغب، على الظهور بمظهر الشخص الجذّاب واللطيف. وهو في ذلك نقيض الصالح، زوج شجرة الدرّ الأوّل، الرجل الهزيل، الصموت، وذي المزاج المكتئب غالبًا. وحدها شجرة الدرّ كانت تملك مفتاح قلبه، وتعرف كيف تجعله يبتسم. في حين أنّ الرجل الجالس هنا بجانبها كان رائعًا: طويل القامة، متين البنية، ذو ذقن مربّعة وشفتين دقيقتين يعلوهما أنف مستقيم. وكانت شجرة الدرّ تشعر بقلبها يتجمّد حين تلتقي عيناها الزمرّديّتان عينَي أيبك الزرقاوين، تحيط بهما تجاعيد جذّابة. كانت عيناه بالنسبة إليها، ذاك البحر الذي غاصت فيه بلذّة مرتبكة منذ ما يزيد عن سبع سنوات. بعد صرامة الصالح وصمته، شعرت بالعطش إلى الجمال والفرح. كما أنّ تينك البركتين الصغيرتين اللتين بدتا لها في الماضي تضاهيان النيل سخاء وحياة، قد أوقعتاها في هواهما.

لكنّ مسار الزمن الذي لا يرحم لم يلبث أن كشف لها خطأها. لاحقًا ذكرت متهكّمة للمؤتمنات على أسرارها أنّها، شأن مسافر في الصحراء، أرادت أن تعتقد بحقيقة سراب، غير أنّ غليلها لم يُروَ قطّ. كذلك لم يفُتها أن تبوح لهنّ وهي الواضحة الرؤيا، بأنّ ذلك كلّه كان لينسجم بالمقابل تمامًا مع مخطّطاتها السياسيّة حينذاك، فلماذا لا تقرن بين الاستراتيجيّة واللذّة؟

منذ ذلك الحين، حظيت بمتعة سبر غور تينك العينين الزرقاوين، المتغيّرتين مع تقلّب المزاج، فزال عنها كلّ وهم حول صاحبهما. ومع ذلك، بقي لهما وبرغم كلّ شيء، بعض التأثير فيها، حتمًا بقايا شغف ذابل يرفض أن يموت.

واليوم، كانت تستعيد ذكريات ذلك الماضي عينه، لتمنحها القدرة على إغراء هذا الرجل الوسيم الذي تحوّل في عينيها إلى وحش، والذي اتّخذت ملامحه هيئة الجنّ الذي لوى أحشاءها وجعل الحموضة تصعد إلى حلقها. كان عليها أن تبرهن عن كثير من ضبط النفس لتخفي مشاعرها الحقيقيّة، أمام حديث النعمة هذا الذي يريد أن يرمي بها في غياهب دار الحريم. ذلك الحريم حيث ينتظرها موت مروّع وبطيء، في نفق أسود من البؤس والجنون.

– سلام يا أمّ الخليل.

حيّا أيبك شجرة الدرّ، مناديًا إيّاها بلقبها الرسميّ «أمّ خليل». كان خليل الطفل الذي أنجبته من الصالح أيّوب، والذي مات وللأسف في عامه السادس. كان ذلك لقبها المعروف والذي لا شكّ بأنّ أيبك استخدمه ليوجِد مسافة ما بينه وبين رؤيا تلك الشهوة الصافية المتجسّدة أمام ناظريه. كان بحاجة إلى التقاط أنفاسه واستعادة رباطة جأشه. ومع ذلك، أمسك باليد التي مدّتها في اتّجاهه وجلس على الأريكة بالقرب منها. ساعدته نايا في خلع سترته الصيفيّة الحريريّة المطرّزة بالذهب.

– السلام عليك يا مولاي.

تلك كانت مفاجأة أخرى لأيبك. فالسلطانة شجرة الدرّ لم تنادِه قطّ بلقب «مولاي»، إلّا نادرًا، وفي اللحظات الأكثر حميميّة من تاريخهما. والأغلب أنّه هو مَن كان يناديها «مولاتي».

تريّث أيبك متأمّلًا شجرة الدرّ مدهوشًا، وقد غلبه التأثّر لوجوده في وضع لم يكن مستعدًّا له. السيناريوهات التي تخيّلها لم تكن تتضمّن المشاعر التي خالجته منذ دخوله عرين تلك الحوريّة.

كان قد قبِل في النهاية القدوم لرؤية شجرة الدرّ، ليعلن لها خطوبته على الأميرة الشابّة الأيوبيّة. هكذا، يؤكّد تحرّره من النفوذ الطاغي لزوجته المرهوبة، والتي كانت تمارس عليه سطوة كبيرة، ولا تسمح له سوى بهامش ضيّق من المبادرة. ظنّ أيضًا أنّه مدين لها بلياقة القيام بهذه الزيارة، للمحافظة على سلام شكليّ. لشجرة الدرّ مناصرون كثيرون في البلاد، وقد حافظ بعض المماليك من أنصار الصالح أيّوب على ولائهم لها، كما أنّ عامّة الشعب ظلّت تُكنّ مشاعر العاطفة لتلك المرأة المُحسنة والتقيّة. يجب القول أخيرًا إنّ الرسولة، أي الأمَة الصغيرة الرائعة الجمال، زهرة، قد أجادت إقناعه تمامًا.

أتى أيبك واثقًا من نفسه ومن سلطته. بعدما بدأ عهده سلطانًا شريكًا لشجرة الدرّ في الحكم، اضطرّ، ولإسكات اعتراضات الأنساب الأيوبيّين، إلى مشاطرة أمير أيّوبيّ يافع ذلك اللقب. لكنّ ذلك العهد انقضى، وبات دعاء أئمّة المساجد لا يرتفع إلّا لاسم السلطان المعزّ أيبك، قبل صلاة الجمعة. كما باتت الدنانير تُسكّ باسمه وباسم الخليفة العبّاسيّ في بغداد. تتويجًا لتلك المكانة، استجاب الخليفة المستعصم بالله، أمير المؤمنين، مؤخّرا، لطلب سفير المعزّ أيبك، فأكرمه بالفرمانات والرايات، أسوةً بسائر سلاطين مصر. وبات تثبيت أيبك على العرش كاملًا، بالسلطتين الزمنيّة والروحيّة.

إذًا لمَ يجد نفسه يحمد الله على أنّه جالس، وليس واقفًا، بجانب هذه المرأة الضعيفة؟ شعر بأنّه يكاد يخرّ على ركبتيه حتّى، أمام حوريّة الجنّة هذه، فيما اعتراه ندم حقيقيّ على تهوّره ومبالغته في الثقة بنفسه، اللذين عادا به إليها.

راحت شجرة الدرّ تراقب عينَي أيبك، ولم يفتها أن تلاحظ حيرته ودهشته. كانت تقرأ وجهه كمن يقرأ كتابًا مفتوحًا، فاستغلّت لحظة التردّد تلك لتأخذ المبادرة. نظرت إلى نايا التي فهمت في الحال ما هو مطلوب منها، فغادرت الغرفة بصمت، ووقفت في الخارج لتمنع أيًّا كان من مقاطعة سيّدتها. يجب ألّا يأتي أحد ليعكّر صفو السلطانين.

– أستميحك عفوًا يا مولاي. أنا في غاية السعادة والاضطراب لرؤيتك، لدرجة أنّ أنفاسي انقطعت وأصابني الدوار، فعجزت عن النهوض لإلقاء التحيّة عليك كما يليق بك. يا نور عينيّ، كم أنا سعيدة بمرآك.

تلعثم أيبك وراح يتلفّظ بكلمات غير مفهومة، فتضاعفت جرأة شجرة الدرّ. استندت إلى الوسائد لتجلس في أريكتها، ثمّ انحنت نحو أيبك ووضعت رأسها على كتفه، وإصبعها على شفتيه، وطوّقت عنقه بذراعيها. بعد ذلك، أطلقت تنهيدة ارتياح. أخيرًا، أصبح أيبك هنا، في جناحها الخاصّ، ورأسه

بين ذراعيها.

لم يعد أيبك ليتحرّك خشية أن ينقطع السحر، وبل ترك المبادرة كاملة لشجرة الدرّ. كانت عيناها مغمضتين ورأسها لا يزال فوق كتفه. حاولت أن تلجم كبرياءها، وتستمدّ الشجاعة من عمق أعماق روحها. إنّها بحاجة إلى تلك الشجاعة لإنجاح مشهد الحبّ الذي بدأت بأدائه. كان ما تفعله ينفّرها. ومع ذلك تحتّم عليها أن تحتوي أنفتها، وتتجاوز الذلّ الذي ألحقه بها أيبك، وتغويه للفوز به من جديد.

رسمت على شفتيها ابتسامة، والتفتت بعينين واسعتين نحو أيبك، ثمّ التفّت لتلتصق به وهي تداعب يده.

– إشتقتُ إليك يا مولاي السلطان العزيز. ماذا فعلتُ حتّى أستحقّ الاستبعاد؟ يا سيّدي، وحبيب قلبي، أيّ عمل شائن مزعوم – جازى الله الحسودين الذين رووا ذلك لك – ارتكبتُه لكي تهجر على هذا النحو صحبتي وسريري، وتحرمني حضورك، وهو بلسم قلبي المتألّم، وتعاقبني بهذا البعاد الطويل عنّي والذي يزهق جسدي ويعذّب روحي؟

وضعت شجرة الدرّ إصبعها على شفتَي زوجها لتحبس الاعتراضات التي كان يهمّ بالتفوّه بها، وشاهدت عينيه تتّسعان بفعل المفاجأة، فشدّت على كتفه بقوّة أكبر وتابعت دفاعها عن نفسها:

– تركتَني لكوابيس ليالي الوحدة والصقيع. بدونك، خَلَتْ أمسياتي من النجوم التي طالما تلألأت في عينيّ، بعد قضائي الليل بين ذراعيك. ووجدتُني كمركب بدون حبال، هجره ربّانه، وحيدة أصارع تيّارات جارفة تسعى لهلاكي وهلاك سيّدي. كنتُ على وشك أن أدع نفسي أتحطّم على صخور اليأس، وأرتكب ما لا يمكن إصلاحه، لو لم تأتِ اليوم لرؤيتي وإرشادي إلى طريق الصواب. نعم، أعترف لك بأنّ أفكارًا سوداء كثيرة مرّت بذهني، وكنت أستعدّ لأقوم بعمل ما ضدّك. لكنّني أحمد الله على أنّك هنا، جالس بجانبي، وأرجو ألّا ترحل. كلّ شيء تغيّر اليوم. لقد أعدتَ إليّ الأمل. أريد أن أصدّق أنّك أنت أيضًا لا تستطيع العيش بدوني، وأنّ فراقنا لم يكن سوى موجة عابرة، وعاصفة صغيرة في محيط حبّنا. أقول هذا لأنّني أعرف أنّك عدتَ إليّ برغم نصائح مستشاريك ورغبتهم في قطع ما بيننا من جسور.

طوّق أيبك بذراعه خصر زوجته بصورة عفويّة، بدون تفكير. دُهش حين وجد نفسه يعانقها بقوّة أكبر، وهي تحدّثه عن عذاباتها. حدّقت شجرة الدرّ في عينَي زوجها الزرقاوين. كانت تحيطه بنظراتها وتفترسه، ولم يستطع أن يفلت من قوّتها التي سحرته. وإن حاول، وقعت عيناه توًّا على تينك الشفتين الكرزيّتين والرطبتين، والمفتوحتين قليلًا، وكأنّما تدعوانه إلى قطفهما من جديد. لم يعد يجرؤ على خفض عينيه أكثر، خشية أن يرى روحه وخططه تضيع في أغوار الجنّة التي يتخيّلها في ما تعرضه بسخاء تقويرة فستان الحرير الأخضر.

أحسّت شجرة الدرّ بارتباك أيبك. كما أنّ ذراعه التي تطوّق خصرها بدأت تؤلمها. بدا أنّه يتأرجح بين الرغبة في أن يأخذها بين ذراعيه، ويمزّق فستانها، وفي أن يفرّ مسرعًا من وكر الشهوات هذا. كالبرق مرّت بخاطرها ذكرى بعيدة، ورسمت على شفتيها المكتنزتين ابتسامة ساخرة: تذكّرت ليالي الزمن الغابر حين كان أيبك، وجسده العاري الملتصق بجسدها ولسانه يداعب أذنها ويثير ارتجافتها، يهمس لها برقّة، وصوته لا يزال لاهثًا بُعيد انفجار اللذّة، أنّ مجرّد فكرة ابتعاده عن جسدها، عذاب حقيقيّ بالنسبة إليه.

إختارت شجرة الدرّ هذه اللحظة لتفاتحه بموضوع المرأة الأخرى. في سبيل تسكين حذره بصورة أفضل، أرادت أن تبرهن لأيبك أنّ أشهُر الوحدة القسريّة التي عاشتها أجبرتها على التفكير، وأنّها قبلت قراراته في النهاية. كانت ترى أنّه بلغ من التعجرف حدًّا يجعله يسلّم بسهولة أنّ السلطانة شجرة الدرّ،

مثلها مثل أيّ امرأة ضعيفة، قد أذعنت في النهاية لرغبة سيّدها. وفي السياق نفسه، مع إثارتها هذا الموضوع الشائك، قد تليّن موقف أيبك تجاهها.

– أيبك، أعرف أنّك تنوي الزواج بابنة بدر الدين لؤلؤ. ولا أخفي عليك أنّ قرارك آلمني كثيرًا، قالت له هامسة وهي تحدّق في عينيه.

أغمض أيبك عينيه، خشية أن يزول سحر هذه اللحظة الرقيقة فيرى شجرة درّ أخرى، تسعى للثأر وتأخذ بشتمه، وبذرف الدموع، وتسعى إلى جعله يعدل عن مشروع زواجه. أربكته شجرة الدرّ الجديدة التي تعانقه، ولم يعد يعرف ما ينتظره. هل أنّ خشية فقدانه قد غيّرتها حقًّا؟

ما كانت السلطانة لتغفل عن اغتنام هذه الفرصة: هو لم يفهم بعد شيئًا من خدع النساء وذكائهنّ العاطفيّ. تابعت تقول:

– تسنّى لي الوقت للتفكير، وأظنني أفهم دوافعك. أجرؤ على الرجاء أنّها محض سياسيّة، وأنّ هدفك هو ضمان دعم بدر الدين لؤلؤ، وإسكات اعتراضات العشيرة الأيوبيّة. إذا أنجبتَ منها وريثًا، فسيكون من دم الأيّوبيّين، وجديرًا بوراثة العرش.

رسمت شجرة الدرّ ابتسامة صغيرة بطرف شفتيها، ورمقت زوجها بنظرة ملأى بالوعود، فيما راحت يدها تداعب كتف أيبك محاولةً أن تتسلّل تحت قميصه الأبيض لتداعب أصابعها الماهرة بشرته، وأردفت تقول:

– ألستُ على حقّ يا نور عينيّ؟ دعني أرى نظرتك، أريد أن أدع نورها الأزرق يدفئ قلبي. أنت أمل حياتي، وذراعاك اللتان تطوّقانني تطمئنانني وتبعثان فيّ الحياة. كم أودّ الاحتفاظ بك لي، لكن عليّ الاعتراف بأنّك محقّ للتصرّف على هذا النحو. إنّها استراتيجيّة جيّدة. كما أنّنا لا نستطيع أن نعترض على إرادة الله سبحانه وتعالى، خصوصًا حين تتلاقى وإرادة السلطان... لقد فكّرت في الأمر مليًّا وقرّرت أن أتقبّل قدري. لستُ سوى امرأة ضعيفة وتائهة، لم يبقَ لها سوى رغبة واحدة، وهي أن تلقى من جديد اهتمام سيّدها وحنانه.

سحبت يدها عن كتف أيبك ورفعتها إلى عينها، وكأنّما لتمسح دمعة كادت أن تفرّ منها. ثمّ اقتربت لتهمس في أذنه بصوت دافئ وخفيض:

– ومن جهة أخرى، كيف تستطيع شابّة بسيطة، ولو كانت أميرة أيّوبيّة، أن تغيّر الأمور ما بيننا؟ ليالي الوحدة هي التي جعلتني أرى الحياة سوداء وأخشى حدوث الأسوأ. عُد إليّ يا حبيبي، وكلّ شيء سيعود إلى مجراه. فليهدأ بال السلطان المعزّ، فأنا لا يمكنني سوى أن أطيع قراراته الحكيمة وإنّما القاسية جدًّا.

شفتا شجرة الدرّ، اللتان راحتا تلامسان أذن أيبك، أتتا على ما بقي من مقاومته وحذره. بات تحت رحمة دوّامة من العواطف الغريبة والمألوفة في آن واحد، كانت أشهر الفراق قد أوهمته بأنّه يستطيع السيطرة عليها، لكنّه عاد ليجدها الآن أقوى من أيّ وقت مضى.

بسرعة فائقة، راح الوخز اللذيذ والذي لا يقاوَم في أسفل بطنه، يتصاعد إلى دماغه ليحكم سيطرته عليه. تسارع خفقان قلبه واضطرب تنفّسه. لقد ألهبت شجرة الدرّ هذه، الخاضعة والمستسلمة، والتي تكاد تكون منطرحة عند قدميه، نيران شغفه. بدأت الحواجز الأخيرة بالسقوط، الواحد تلو الآخر، أمام سيل الرغبة الذي عجز عن التحكّم به. ارتمى على شفتَي الحوريّة نصف المفتوحتين، والتي واصلت همس كلمات الحبّ في أذنيه. ومثل مسافر في الصحراء يجد واحة مألوفة بعد أيّام من العطش والحرمان، تحت الشمس الحارقة، راح يشرب من رحيق شفتيها، وكأنّه كفيل بردّ الحياة إليه.

إنّ كيدهنّ لعظيم

راحت شفتا أيبك تفترسان شفتَي شجرة الدرّ، فيما اتّجهت يده إلى فتحة فستانها الأخضر، وتبعتها يده الأخرى فيما واصل لسانه استكشاف الفم الساخن والناعم كالمخمل. شدّ السلطان القماش الرقيق، فتمزّق بسرعة تحت يدَي المحارب القويّتين محرِّرا النهدين الجميلين، ولم يتوقّف حتّى عرّى تمامًا ذلك الجسد الممشوق والرشيق.

خرجت شجرة الدرّ من ثوبها كآية. أبعدت شفتيها عن شفتَي أيبك، لتقف أمامه عارية تمامًا، إلّا من شعرها المتموّج فوق ظهرها. حدّقت في عينَي أيبك بنظرة مرح ثمّ ركعت، تريد مساعدته على خلع قميصه. لكنّه قاومها، وأرغمها على النهوض قبل أن يجلس على الأريكة ليتأمّلها بعينين حالمتين.

بدا مذهولًا كما حين رآها عارية للمرّة الأولى وأمسك بها بين ذراعيه المرتجفتين. أدهشه أن يلاحظ أنّ الزمن لم يترك أيّ أثر على جسدها الشبيه بجسد الحوريّات. لم يعد بوسع السلطانة تجاهل إثارته التي راحت تتعاظم، فاستجابت بكلّيتها للنداء الشغوف. دنت منه أكثر، لتساعده على خلع قميصه، ثمّ قهقهت ضاحكة بمرح، كما في خلال الأوقات السعيدة. لقد بات أيبك أسيرها، وبدأت تدخل جدّيًّا في اللعبة التي شرعت بها، وبل تجد فيها لذّة. لذّة الصيّادة التي تجد فريستها بلا حول ولا قوّة في الفخّ الذي نصبته لها بمهارة شديدة.

غرق رأس أيبك في صدرها المرمريّ، وراح يلثمه بدون انقطاع، بنعومة تارةً، وبعنف طورًا ليدغدغ على نحو أفضل حواسّه وحواسّ امرأته. بدأت شجرة الدرّ تشعر باللذّة تجتاحها برغم جهودها للبقاء قابضةً على دفّة ما يجري، مدركةً أنّها تقترب من منطقة الخطر حيث قد تجازف بأن تُضلّ هدفها. ولمّا شعرت بأنّ دوّامة الأحاسيس توهن إرادتها إلى حدّ جعلها تنسى أهدافها، قرّرت استعادة زمام المبادرة، واستعجال بلوغ أيبك النشوة. فانزلقت يدها بغنج عن عنق السلطان، لتنزع عنه سرواله، وتبدأ بتدليكه بنعومة. ثمّ نهضت، بدون أن تبعد يدها عنه، وركعت أمامه لتُغرق رأسها بين أحضانه.

كانت شجرة الدرّ تتقن تمامًا فنون الحبّ واللذّة. صحيح أنّها حظيت بمعلّمة لا تضاهى في خلال إعدادها لحياة الحريم في خدمة كبار هذا العالم. لقد علّمتها نجم الصباح كيف تهب الحبّ وكيف تتلقّاه، ولا سيّما كيف تبقى سيّدة الوضع وتفهم الرجل الموجود بين ذراعيها، لإرضاء حاجاته على نحو أفضل. فهمت شجرة الدرّ جيِّدا أنّ أيبك لم يكن على أريكتها اليوم ليشاطرها أيّ شيء، بل ليؤكّد سلطته عليها، ويُفهمها أن لا شأن لها سوى الخضوع لإرادته. فتصرّفت السلطانة الجميلة بما يستجيب لما يريده، ويرضي حاجاته.

شعر أيبك بأنّه يقترب من السماء، وبالسعادة تغمره. كان قد نسي كم أنّ المرأة الراكعة عند قدميه شهوانيّة وماهرة. فجأةً، رفع رأسها بيده وساعدها لتقف. ثمّ وقف بدوره وأخذها بين ذراعيه ليتذوّق شفتيها اللذيذتين. كان عناقه وقبلاته يشيان ببقايا وَلَه حقيقيّ بالسلطانة.

كان الجسدان ملتصقين، متّحدين، لا ينفصلان وكأنّهما جسد واحد لكائن خياليّ ذي رأسين. عانق أيبك زوجته ورفعها بسهولة عن الأرض، فطوّقت خصره بساقيها الرشيقتين. إستدار أيبك نحو الأريكة، وبخشونة، مدّد فوقها المرأة التي استسلمت له تمامًا. كانت ذراعاها مسترخيتين كلّيا وقد أرجعتهما بدلال إلى الوراء وكان شعرها منثورًا على الوسائد. راحت تراقبه بنظرة هائمة وهو يخلع سرواله الأبيض ببطء حتّى تركه يسقط أرضًا أخيرًا. إستلقى السلطان فوقها. كان مضطربًا لشدّة شعوره بالإثارة. لم تُبدِ شجرة الدرّ مقاومة شديدة، وتركت المتعة تتفجَّر موجات ثائرة متتالية لتغمرهما

بحممها. أفلتت من السلطان تنهيدة لذّة طويلة. إرتمى بثقله الساحق عليها، وبدأ رقصته بإيقاع منتظم ومحموم لا يفتُر، فهو لم يفقد شيئًا من قوّته.

بمزيج من الإثارة والارتياح، شعر أيبك كمن يعود إلى منزله بعد رحلة طويلة وشاقّة من الوحدة. نسي تمامًا أنّه أتى للقضاء على هذه المرأة مع إبلاغها بنهايتها، وليقذفها بقسوة بوصمة عقمها، وبتسمية عجزها عن إنجاب ابن له كأحد الأسباب التي دفعته إلى البحث عن زوجة أخرى من بين الأميرات. لم يخيّل له قطّ أنّ الأمر سينتهي به بين أحضانها التي راحت تهتزّ وتتراقص على إيقاع لهاثه.

حين بلغ أيبك النشوة، أطلق صيحة انتصار، وأرخى بكلّ ثقله على شجرة الدرّ، بعدما استنفد انفجار اللذّة قواه كلّها، ليستلقي رأسه ثقيلًا كالحجر فوق عنق السلطانة الطويل. ظهرت على الشفتين الجميلتين تكشيرة اشمئزاز. منحت شجرة الدرّ زوجها هنيهة يستعيد فيها أنفاسه، قبل أن تدفعه عنها برفق لتستلقي بجانبه، من غير أن يتباعد الجسدان. عانت الأمرّين لمقاومة رغبتها الجارفة في أن ترمي به أرضًا وتدوسه بقدميها الصغيرتين والرشيقتين.

ضبطت شجرة الدرّ أعصابها وقرّرت حمله على الكلام كما في الأيّام الخوالي. أرادت أن تعرف أكثر عن مشاريعه ونواياه. غير أنّهما في فترة شغفهما الشديد، عادةً ما كانا يتناقشان أمور الدولة في كلّ حين. لم تكن بحاجة إلى إغرائه ولا إلى التملّق إليه لحمله على الكلام. بل على العكس من ذلك، كانت هي سيّدة الأمبراطوريّة، ومَن تسيّر شؤونها، فيما كان هو السلطان المبتدئ الذي يتعلّم على يديها، والباحث عن مشورتها وبركتها. ساهمت تلك الفكرة في زيادة شعورها بالإذلال أمام خسارتها السلطة، فبذلت جهدًا جبَّارا لكي لا يظهر عليها الغضب.

أثبت لها مشهد الخضوع الجنسيّ الذي كانت مضطرّة إلى لعبه، أنّ أيبك نجح في القيام بانقلاب حقيقيّ ضدّها وضدّ كلّ فلول النظام السابق. لكنّها كانت مستعدّة لتبذل كلّ ما بوسعها لإقناعه بالعودة إليها، مساء ذلك اليوم نفسه.

داعبت ظهره وهي تهمس له:

– يا محاربي الوديع، كيف بقيت هذا الوقت كلّه بعيدًا عنّي؟ أرجو أن تكون قد أدركت الآن أنّ مكانك هنا، بجانبي، وأن لا شيء تخشاه من جانب المرأة التي لا تستطيع العيش بدونك.

– أيّتها الفاتنة الجميلة، لقد احتفظتِ بسحرك وسطوتك على فكري وجسدي. لعلّي أحسنت باتّباعي نصيحة الفايزي بالابتعاد عنك في الأشهر الأخيرة. وإلّا لما استطعتُ بلوغ ما بلغته في إدارة شؤون الدولة وتثبيت الاستقرار في البلاد.

كان صوت أيبك أجشّ ومفعمًا بالانفعالات.

– لا تزالين رهيبة كما عهدتكِ، وتجيدين توخّي السُبُل المناسبة لتضمني عدم الاستغناء عنك. أصدقيني القول يا شجرة الدرّ: هل أحسنتُ صنيعًا بالعودة إليك؟

– كيف يمكنك أن تستمرّ بطرح هذا السؤال، يا سيّدي اللطيف، وقد برهنت لك كم أنا حريصة على البقاء موضع ثقتك وصداقتك؟ فكّر جيِّدا: شجرة الدرّ، المرأة المعتدَّة تعترف بسلطة سيّدها. لم يعد لديك ما تخشاه منّي. أنا لا شيء بدونك، وقد أدركتُ يا حبّي الرقيق، أنّ المعاناة من ألم غيابك لا تقلّ صعوبة عن تحمّل خسارة النفوذ التي جعلتَني أعانيها. فهمتُ تمامًا أنّ الزمن تغيّر. عليّ التكيّف في سبيل البقاء، وباتت أمنيتي الآن العيش إلى جانبك، وبشروطك.

إبتعدت عنه قليلًا، وسحبت إليها غطاءً حريريًّا تخفي به شيئًا من عريها. وتابعت، وفي صوتها بعض من المرارة التي لم تستطع إخفاءها:

– هذه ليست المرّة الأولى التي أضطرّ فيها إلى تقبّل أن ينازعني الرجال على سلطتي. لا تنسَ أبدًا أنّ رجال الدولة والأمراء المماليك انتخبوني ملكة على المسلمين. أيبك، لقد عرفتُ السلطة المطلقة طوال ثمانين يومًا، إلى أن عبّر الخليفة العبّاسيّ في بغداد، المستعصم بالله، عن استيائه من رؤية امرأة في سدّة الحكم. كنت أولى الملكات، قبل أن يبعث إلينا برسالة التهديد الشهيرة تلك، والتي لن أنساها أبدًا، حيث اقتبس حديثًا شريفًا يقول: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة».

قرأت شجرة الدرّ في وجه أيبك أنّها تمادت في الكلام. خشيت أن ينقطع ما أعادت وصله معه منذ قليل. فراحت تداعب صدره، وتابعت ما بدأت به:

– دعنا لا نوقظ الماضي، لكنّها الظروف التي أدّت إلى اعتلائك السلطة. تدرك جيِّدا يا أيبك أنّه كان بوسعي أنّ أختار أقتاي، أو بيبرس، أو قلاوون لمشاركتي السلطة.

شعرت به ينقبض، وظهرت على وجهه أمارات ضيق تعرفها جيِّدا، فعاجلت بالشرح:

– إذا كنت أقول لك هذا كلّه، فلكي أذكّرك بأنّني كنت أكنّ لك المشاعر، وشغفًا حقيقيًّا. أنت تدرك ذلك جيِّدا، وكنتَ تحترق بنيران الشغف عينه تجاهي. خلال الأشهر الأخيرة، لم يرحمني الاشتياق الشديد إذ أعاد تذكيري بذلك. من جهة أخرى، أنت أيضًا قمت بتضحيات لتكون إلى جانبي. طلّقت زوجتك السابقة وتخلّيت عن ولدك الوحيد. نحن الزوجان الملكان على هذه البلاد يا أيبك. قدرنا أن نكون معًا إلى الأبد. حتّى ولو لم يُرغمني الخليفة على تقاسم السلطة مع رجل، لتزوُّجتك، ولأصبحتَ سلطاني.

لم يغب عن وجه أيبك تعبير الانقباض والمرارة، لكنّه لم يبتعد عنها. حدجها بنظرة ثاقبة وقال:

– سأحذّرك صدقًا يا شجرة الدرّ: لا تتظاهري بالبراءة. نَمَت أخبار تحرّكاتك إلى بدر الدين لؤلؤ، وقد أطلعني عليها. أنا على علم بأنّك تآمرتِ ضدّي مع ملك حلب، الناصر يوسف. حتّى أنّك تجرّأت على إرسال ناصر العزيزي إليه محمّلًا بالهدايا لإبلاغه بأنّك مستعّدة لتدبير أمر اغتيالي إذا تعهّد بالزواج منك، والجلوس بجانبك على عرشي.

كانت شجرة الدرّ تعرف بأنّ أيبك على علمٍ بمؤامراتها، فلم تبدُ عليها أيّة مفاجأة، بل أجابته بهدوء:

– إذًا فحموك المستقبليّ هو مَن حذّرك منّي. هل كان ذلك قبل عرضه عليك الزواج بابنته، أو بعده؟ أنت تعرف أنّني خبرتُ غدر لؤلؤ وخيانته حين ضرب حصارًا على الصالح في سنجار، لمنعه من العودة إلى مصر والفوز بعرشه. خدعتي هي التي سمحت لنا بالخروج من ذلك المأزق وبتمزيق أوصال جيش لؤلؤ. ولكن، قد نجح ذلك النذل في الهروب راكبًا حمارًا. هو لا يزال حاقدًا عليّ لأنّني أذللته. إليك منّي هذه النصيحة الصغيرة يا أيبك، إيّاك والوثوق به.

– لا تقلقي يا شجرة الدرّ. أنا لا أثق بأحد إطلاقًا.

– أعرف أنّه لم يعد لديّ ما أعلّمك إيّاه في فنون الحكم، ولا في شؤون المكائد والمؤامرات والخيانات التي يحفل بها درب السلطة. أنت السيّد الحاكم الآن، يا نور عينيّ. والدليل أنّني عند قدميك اليوم أستغفرك عمّا قمتُ به في ساعات يأسي.

– إذًا تعترفين بأنّك دبّرت مكيدة لاغتيالي؟ سألها غاضبًا، ومتظاهرًا بأنّه يريد الابتعاد عنها.

تعلّقت شجرة الدرّ بذراعه، ونجحت في إبقائه إلى جانبها. ثمّ أخذت يده وحملتها إلى شفتيها

وأوسعتها لثمًا.

– لا أعترف بشيء، سوى بأنّني لا أستطيع العيش بدونك.

نجحَت في تهدئته، ومع ذلك سألها بحذر لا يزال جليًّا:

– إذًا لماذا تسألين مغفرتي؟

– لأنّني لا أستطيع إنكار اتّصالي بالملك الناصر يوسف. وأضافت مسرعة: لكنّني وضعتُ حدًّا للأمر، كما أنّه هو مَن اتّصل بي عارضًا عليّ فكرة اغتيالك. قال إنّه يريد الزواج بي، وهكذا أحتفظ بالسلطة إلى جانب أمير أيّوبيّ حقيقيّ. زعم الناصر يوسف أنّه سيعيد سلالة الأيّوبيّين إلى حكم مصر، جوهرة الإمبراطوريّة الأيّوبيّة. أعترف أنّ خطأي الوحيد، كان بالردّ على مبادرته عبر إرسال مستشاري ناصر العزيزي إليه محمّلًا بالهدايا، بهدف الحفاظ على العلاقات الدبلوماسيّة معه. لكنّني لم أفكّر ولو لثانية واحدة في الإساءة إليك. فقد كنت أعلم بأنّك ستعود في النهاية إليّ، يا أمل حياتي.

كانت شجرة الدرّ تكذب بوقاحة. ولكن، هل كانت تملك خيارًا؟ فحيث قادتها طموحات أيبك، لم تعد مشاركته السلطة وحدها محلّ خطر، بل أيضًا حياتها. يجب أن يصدّقها أيبك بأيّ ثمن، ويعود إليها هذا المساء. الآن وقد انطلق النقاش، يجب تبديد كلّ الشكوك من باله.

تابعت دفاعها عن نفسها:

– وماذا كنت تريدني أن أفعل يا أيبك؟ لقد أبعدَتني تمامًا وعزلتني. غادرتَ القلعة بدون أن تنذرني وقطعت كلّ الجسور بيننا. لم أخشَ قطّ على حياتي هكذا من قبل، والله يعلم كم مرّة واجهتُ خطر الموت في حياتي. يجب أن تفهمني: وجدتُ نفسي وحيدة تمامًا وحائرة. وأدركت أنّني من دونك لست سوى امرأة ضعيفة وهشّة، ومصيري أن أُرمَى في قصر الحريم. لا تهملني هكذا بعد الآن، أبدًا يا حبّي الجميل، قالت وهي تنظر في عينَي أيبك.

لأنّ ما كانت تقوله إنّما يتضمّن جزءًا كبيرًا من الحقيقة، وقد أرادت فعلًا أن يرى أيبك اليأس الذي يسكن عينيها الزمرّديّتين الجميلتين. مال أيبك بنظره محاولًا تجنّب نظرة زوجته اللاهبة. شجرة الدرّ الجديدة هذه، الناعمة والضعيفة والمستعدّة للخضوع لإرادته بدون شروط، والتي يكتشفها من جديد بعد أشهر طويلة من الغياب، كانت تقلقه تقريبًا بقدر ما أقلقته المرأة القويّة، ذات الكبرياء والمثيرة للرهبة، التي تزوّج منها.

– منذ بدأتَ تتخلّص من الأمراء المماليك النافذين الذين انتخبوني سلطانة، وأنا أرتجف خوفًا على حياتي. إستدرجتَ أقتاي إلى كمين في القلعة منذ ثلاث سنوات. منعتَ مماليكه من اللحاق به، لكي يتمكّن تابعك المخلص قُطُز من اغتياله. ألقيتَ برأسه الدامي من أعلى السور ليسقط عند أقدام رفاقه، رفاقنا يا أيبك، المماليك الصالحيّين. هم أنفسهم مَن أوصلونا أنت وأنا إلى السلطة. هم الذين رحت تضطهدهم بلا هوادة منذ أن رفض مماليك المعزّ التابعين لك الاندماج بمماليكي الصالحيّين، وأعلنوا حربًا مفتوحة، للسيطرة على ثروات البلاد. لماذا يا أيبك؟ لماذا قتلتَ أقتاي، ودفعت بيبرس وقلاوون للهرب إلى سوريا؟ كان بوسعي السيطرة عليهم ومساعدتك على تثبيت دعائم سلطتك.

– أنت تعرفين السبب تمامًا يا شجرة الدرّ. تعاظم غرور أقتاي كثيرًا منذ زواجه بشقيقة سلطان حماة، الحفيدة الصغرى لصلاح الدين. كم من الوقت كان سينقضي قبل أن يثور ضدّي وينازعني على حكم البلاد؟ هل تتذكّرين عظمة حفلة زفافه؟ لقد ضُحّي آنذاك بخمسة آلاف خروف ومئة بقرة وخمسين حصانًا. وقد بدأ بعض المصريّين بتلقيبه بالملك. حتّى أنّه تجرّأ على طلب إسكان زوجته في القلعة معك. وأنت نفسك، لو لم تُعمِ بصيرتك صداقتك لأقتاي وبيبرس وقلاوون، لنصحتِني بالتخلّص منهم.

– تذكّر حين لم نكن جميعنا سوى عبيد. إنّهم رفاق دربنا منذ البداية، وقد كانوا مخلصين.

– لك ربّما، لكنّهم لم يعودوا مخلصين لي. كان عليّ التخلّص منهم.

قرّرت شجرة الدرّ المضيّ حتّى النهاية في المشهد المسرحيّ الذي شرعت به مع أيبك. ركعت أمامه، مستمتعةً في سرّها بنظرة الذهول التي ارتسمت على وجهه. أبقت عليها الغطاء الحريريّ الذي ما كان يغطّي سوى جزء من عريها. لقد كانت رائعة الجمال وضعيفة.

– هل حاشيتك الجديدة مَن وضعت هذه الأفكار في رأسك؟ أهي أيضًا مَن نصحتكَ بتهميشي والزواج بابنة لؤلؤ الشابّة؟ أيريدون أن يرسلوني لأتعفّن في الحريم، حيث لن تأتي يومًا للاستفسار عن مصيري، قالت له بصوت تخنقه العبرات التي حاولت جاهدةً التحكّم بها.

رغمًا عنه، رقّ قلبه. لم يسبق له أن رأى شجرة الدرّ عند قدميه قطّ، لا عارية ولا لابسة. طار صوابه لذّة وزهوًا. أرجع ظهره إلى الوراء على الأريكة، مستندًا إلى كومة الوسائد، ودعا السلطانة للتمدّد بجانبه تحت الأغطية الحريريّة.

– يا حوريّتي الرقيقة، قال لها وهو يداعب وجهها.

داعب إصبعه حدود وجهها النبيل الملامح، وانتقل بنعومة وبطء من الجبين العريض إلى الأنف الدقيق، وتريّث فوق الشفتين لينتهي على الذقن الصغيرة التي كانت تبرز الوجه الشبيه بالقلب.

– لقد فهمتِ الوضع تمامًا. أنا بحاجة إلى دعم بدر الدين لؤلؤ. زواجي بابنته والتي لم أرها قطّ، إنّما هو وسيلة لمساعدتي على حفظ السلام في المملكة وإطالة عمر حُكمي. إنّ إرادة الله سبحانه وتعالى تزرع دربنا بتجارب كهذه لاختبار طاعتنا وصبرنا. فتحلّي بالصبر والطاعة يا شجرة الدرّ. تشهد منطقتنا تهديدات جديّة قادرة في أيّ وقت على هزّ أساسات عرش مصر، فيما أعمل أنا على ترسيخه. مصر بحاجة إلى تحالفات قويّة. لؤلؤ رجل ماكر، كما أنّه سليل الزنكيّين المشاهير. وابنته ورثت عن أمّها لقب الأميرة الأيوبيّة. إنّ زواجًا بعائلة كتلك لا يمكنه سوى تعزيز موقعي. سماعك تقرّين بأنّ أيّة مقاومة لمشاريعي لن تترتّب عنها سوى نتائج سيّئة وضارّة، يريحني للغاية. صدّقيني، يؤلمني أن أسألك التخلّي عن كبريائك، الذي أعرفه جيّدًا كما وأحترمه، والقبول بزوجتي الثانية. لكنّني اتّخذت قراري، ولن تجعليني أتراجع عنه. يجب أن تقبلي. وإذا كنت تريننني سعيدًا معك اليوم، ومطمئنّ القلب، فهذا لأنّك عرفت كيف تبرهين أنّك رضيتِ بانتصاري أخيرًا، وأذعنتِ للبقاء بجانبي وبشروطي. قمتِ بالاختيار الصحيح. أعرف كم كلّفك الإعلان عن خضوعك، لكنّك لن تندمي على ذلك.

تفرّست شجرة الدرّ في وجه زوجها وهو يكلّمها. ثبّتت بصرها على فمه الذي راح يلتوي بفعل الأكاذيب الصرفة. كان لمصر أحد أقوى جيوش الأمّة الإسلاميّة وأكثرها تنظيمًا. كما أنّ نواته الصلبة، أي لواء المماليك، والحلقة – حرس السلطان الشخصيّ – كانا من القوّات النخبة الاستثنائيّة، التي لا يضاهيها أحد في المنطقة. كذلك تلقّى السلطان من خليفة بغداد الضمانة الروحيّة التي لا غنى عنها. فقد عاد نائب السلطان المعيّن، سيف الدين قُطُز، من زيارته إلى الخليفة محمّلًا بالفرمانات والرايات والخِلعة الضروريّة لإضفاء الشرعيّة على حكم أيبك.

على وجه الخصوص كان بوسع أيبك، لو شاء، أن يطلب تعاون لؤلؤ من دون أن يكون عليه الزواج بابنته، فالمغول كانوا يهدّدون حدود لؤلؤ، وهو مَن كان بحاجة إلى حلفٍ مع سلطان مصر.

هكذا، وفي عينَي المرأة التي تعرّضت للخيانة، تحوّل الوجه الذي أحبّته في الماضي ليتّخذ ملامح الجنّ الذي يقطع أنفاسها، ويحرمها الحياة. لكنّ أيبك لم يرَ في وجه شجرة الدرّ سوى رضا امرأة عادت للقاء زوجها بعد طول غياب. أمّا هي فلم تكشف أيًّا من مشاعرها الحقيقيّة، حتّى أنّها كانت شبه راضية

عن الانعطافة التي سلكها لقاؤهما. في ظلّ شروط الحظر الذي كانت تعيشه في الأمس، لم تكن واثقة من أنّها ستتوصّل إلى إذكاء نيران شغفهما القديم. لكنّها نجحت في تحقيق ذلك. مثل طائر الفينيق الذي ينهض من رماده، قام شغفهما من الموت بأعجوبة. على الأقلّ قد وجدت لدى أيبك جذوات لا تزال مشتعلة، ويجب ألّا تدعها تنطفئ.

في ختام لقائهما، قدّمت له شفتيها الشهيّتين بابتسامة متألّقة. فيما كان كلاهما مأخوذًا بارتعاشة العناق، تصاعدت جلبة من جهة النافذة، المزيّنة بمشرّبيّة والمطلّة على الباحة الرئيسيّة للقصر، باحة الرجال. كانت تلك النافذة من الامتيازات الممنوحة فقط للسلطانة، وكانت جدّ مفيدة إذ تسمح لها بالبقاء على اتّصال بعالم الرجال، ما خارج الحريم.

كانت الجلبة ناتجة عن صهيل الجياد التي أُعِدَّت وخرجت من اسطبلاتها، ونفد صبرها في انتظار فرسانها، للانطلاق إلى حلبة البولو. كانت صيحاتها تحاكي صيحات جنود المماليك وضبّاطهم الذين راحوا يتبادلون المزاح والطرائف.

إنقطع خيط السحر ووقف عالم الرجال بين الحبيبين، مبعدًا أيبك عن شجرة الدرّ. قطع السلطان قبلته، قبل أن يبعد رأسه وقد بدت عليه علامات الارتياح التي لم تخفَ عن عينَي شجرة الدرّ الثاقبتين. كان أيبك بحاجة إلى وقت للتفكير في كلّ ما حدث منذ قليل بينه وبين زوجته، التي سرعان ما قرّرت تركه يرحل. فقد رأت الشغف يولد من جديد في عينيه، وأدركت أنّه سيعود. لم تشأ الضغط عليه كثيرًا والمجازفة بإيقاظ شكوكه. كانت ترجو أن يكون ما عرفت كيف تبعثه في أيبك، أقوى من نصائح مستشاريه. وما تمّ قد تمّ.

إرتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة، وقالت له بنبرة مشاكسة بعض الشيء:

– إذًا يا حبيبي، أرى أنّك تفضّل الذهاب للعب البولو على البقاء معي. أهذا هو سبب الجلبة الآتية من الباحة؟ هل عيل صبر رجالك وجيادك في انتظارك؟

في سبيل تبديد شكوك أيبك، قرّرت شجرة الدرّ الاعتماد على فكره المحافظ. فهو ليس سوى محارب مؤمن بتفوّق الرجل على المرأة، التي لا يرى فيها سوى كائنة ضعيفة، بنصف عقل، وسهلة الانبهار بالسلطان العظيم الذي أصبح. بعد كلّ هذه السنوات ظلّ أيبك المغرور والمتعصّب يجهل زوجته ويقلّل من تقديرها.

– أيّتها الحوريّة الجميلة. نجحتِ في جعلي أنسى وعدي لرجالي بموافاتهم سريعًا لخوض جولة بولو. أنت على حقّ، يبدو أنّ صبرهم نفد. للأسف، عليّ أن أذهب إليهم، ولو أنّ جسدي وقلبي يفضّلان ألف مرّة جولة ثانية معك، أيّتها المعلّمة الرقيقة في فنٍّ أعذب بكثير.

كان في صوته نبرة ندم صادقة. أمام نظرة شجرة الدرّ الملأى بالخيبة، أضاف حالًا:

– لا تحزني هكذا. أعدكِ بالعودة إليك بعد هذه المباراة، لأستحمّ. أعتمد عليك لكي يكون كلّ شيء جاهزًا عند عودتي، مع بداية المساء.

– رغباتك أوامر عند خادمتك المطيعة، يا نور عينيّ. كالعادة، ستكون راضيًا عندي. رأيتَ حقًّا أنّني لم أنسَ شيئًا ممّا يروقك. لا بل تشريفك إيّاي بالمجيء مرّة ثانية في هذا اليوم المبارك، سيكون بالنسبة إليّ دافعًا أكبر لأغمرك بالسعادة.

إلتمعت عينا شجرة الدرّ، واكتسبت ابتسامتها شيئًا من الوحشيّة، كاشفةً عن أسنانها الصغيرة البيضاء. أيبك سيعود! إنّها معجزة ثانية، لقد سمع الله صلواتها!

كانت بحاجة إلى بعض الوقت لتضع خطّة عمل، لكنّها أدركت أنّها لا تستطيع الاسترسال إلى ما لا نهاية بدور لقاء الأحبّاء والخضوع. كيف يمكنها الاستفادة على أفضل وجه من عودة السلطان؟ أثناء حمّامه داخل حريم القلعة، سيكون أعزل تمامًا...

ومع ذلك فإنّ أيبك قد يعيد النظر في قراره، جرّاء تأثير العلماء المحيطين به، والذين يضمرون عداءً شديدًا لشجرة الدرّ ولدورها الفاعل في الشؤون العامّة. هم يرون أنّ حضورها القويّ على الساحة السياسيّة يعكّر النظام العامّ، ويفسد الانسجام في العلاقات بين الرجال والنساء. كانت شجرة الدرّ قد فتحت ثغرة في جدران الحريم السميكة، التي تشكّل حدود عالم المرأة المسلمة. كان يفترض بهذه الأخيرة أن تتقوقع في ذلك العالم، وينحصر نشاطها في دائرته الضيّقة وتؤدّي في المجتمع دورًا رسمه وحدّده أولئك العلماء بوضوح، ليس إلّا.

طردت السلطانة من رأسها تلك الأفكار خشية أن تفضح نفسها أمام أيبك. نهضت بسرعة لمساعدته على ارتداء ملابسه. ناولته سرواله، وساعدته على ارتداء قميصه. ثمّ غطّت عريها بشرشف حريريّ قبل أن تنادي نايا لتطلب منها إحضار سترة السلطان وقلنسوته ذات الشرّابات المصنوعة من الذهب الثقيل.

كان زيّ المعزّ أيبك كأزياء كبار ضبّاط المماليك، ولا يختلف عنها إلّا بنوعيّة القماش، وكثافة التطريزات المشرقة الألوان والمحبوكة بخيوط الذهب والفضّة، وحليّ التزيين المصنوعة من الذهب أو الحجارة الكريمة. في ذلك النهار الحارّ والمخصّص للرياضة، كان قد تخلّى عن المعاطف الحريريّة المبطّنة بفرو سمّور الزبلين، أو الفاقم، أو الفراء النفيسة الأخرى، مفضّلًا عليها سترة صيفيّة من الحرير الأزرق المطرّز بخيوط ذهبيّة. وتحتها رداء بسيط من الحرير الأبيض. كان قد علّق سيفًا ذهبيًّا بحزامه المصنوع من صفائح الذهب، والمرصّع بالحجارة الكريمة، فعكس ياقوت الحزام وماسّه تموّجات نور شمس الربيع.

قبّل أيبك جبين امرأته، ثمّ اعتمر قلنسوته، وبلغ الباب بخطوات طويلة وقليلة، وسترته الصيفيّة تتطاير وراءه. لو تسنّى له أن يعود أدراجه، لتجمّد دمه أمام تعابير المشاعر المعتملة في قلب المرأة التي أغرته منذ قليل: ما إن أُغلق الباب حتّى سمحت شجرة الدرّ لانفعالاتها الحقيقيّة بغزو وجهها. إنعقد جبينها فيما تلاشت ابتسامتها، وطبعت نظرة احتقار وكراهية عينيها الزمرّديّتين. الاضطرار إلى التمثيل وإرضاء رغبات أيبك الوحشيّة، لم يكن مصدر متعة لها.

مال نظرها عن الباب الذي خرج منه السلطان، ليتّجه إلى النافذة القريبة ويسرح في سماء صافية زرقاء فيروزيّة، يؤطّرها خشب النافذة الداكن. لعلّ السلطانة كانت تبحث عن وحي إلهيّ وسط تلك اللوحة السماويّة. كانت تشعر بأنّ ذلك النهار سيغيّر حياتها. أمام الأحداث المزمعة الوقوع، غمرها قلق شديد يشوبه حنين عارم.

وضعت نايا صينيّة فضيّة على منضدة ثلاثيّة الأرجل من الخشب المرصّع باللآلئ، ورجت سيّدتها أن تأكل لتحافظ على قواها. إبتسمت لها شجرة الدرّ، وامتثلت بصورة آليّة. رفعت إلى فمها حبّة عنب بعدم اكتراث، وقضمتها بأسنانها الصغيرة البيضاء، من غير أن ترفع بصرها عن المربّع الذي تظهر منه السماء. كانت تفكّر في ما عليها أن تعدّه لحمّام زوجها، متى عاد.

تاهت نظرتها في زمن آخر، فلاحت على شفتيها ابتسامة عريضة. لقد عادت بها الذاكرة إلى حمّام معيّن من ماضيها السحيق، حين كانت تتعلّم فنّ الأغراء. فجأةً رقّت نظرتها، واجتاحتها الذكريات، وغابت صورة أيبك لتحلّ محلّها صورة نجم الصباح.

لولا ما تلقّنته من فنون الإغراء والحبّ على يد نجم الصباح، لما نجحت أبدًا في أداء مشهد هذا اليوم

مع السلطان. كانت مهمّة نجم الصباح أن تجعل منها أمَة مثاليّة، «جارية» تليق بالأمراء والسلاطين، والتي من الضروري جدًّا إعدادها قبل بيعها بمبلغ خياليّ للخليفة في بغداد أو غيره من كبار الأمراء. نبيهة ومبكرة النضج، استوعبت شجرة الدرّ جيِّدا أمثولات نجم الصباح حول كيفيّة إتمام واجبها كامرأة مكرّسة لإرضاء أسيادها، وتعرف كيف تفصل بين مشاعرها وبين فعل الحبّ لكي لا تضلّ. كما علّمتها نجم الصباح كيف تمارس الحبّ بدون انفعالات، مع أيّ سيّد يشتريها ليضيفها إلى حريمه، أو ليقدّمها هديّة إلى أيّ كبير آخر من كبار هذا العالم. فمن واجب المرأة أن تُرضي من يرسله القدر إليها، وتعطيه كلّ ما يحقّ له من اللذّة. قمّة السخرية كانت أنّ شجرة الدرّ التي لم تعد أمة منذ وقت بعيد، لا تزال بحاجة إلى تلك المواهب لتستمرّ بصفتها سلطانة.

إستسلمت شجرة الدرّ للحنين. راح ماضيها يناديها فقرّرت اللجوء إليه لبرهة قصيرة. كانت عند تقاطع طرق، وعليها أن تقرّر أيّ اتّجاه تسلك. ذلك النهار سيغيّر مسار حياتها، تمامًا كما حدث قبل عشرين عامًا، حين حوّل نهار وليل استثنائيّان مصير ابنة راعٍ فقير من سهوب الشمال، لترتقي إلى قمّة المجد، طريقًا لا يخطر ببال.

الأمَة
ذات العينين الزمرديّتين، 1236

إجتاحت موجات متتالية من اللذّة ظهر الشابّة الجميلة ذات العينين الزمرّديّتين، فتقوّس، وتسارعت حركات جسدها لبلوغ النهاية الرائعة والمُسكرة. كانت تلك الفتاة تعشق الحبّ واللذّة، لدرجة أنّها وكلّما شعرت باقتراب النشوة، تجاذبتها أمنيتان: بلوغ الذروة للتخلّص من توتّر الانتظار، أو إطالة هذا الانتظار اللذيذ عينه إلى أبعد وقت ممكن. جسدها وأهواؤها كانت لغزًا عجيبًا، ولطالما وجدت بهجة في تعلّم فكّ رموز ذلك اللغز.

إنفتحت شفتاها الورديّتان والمكتنزتان على صرخة صامتة من اللذّة، بدون أن يخرج منهما أيّ صوت. كانت تسبح في عالم آخر. تجمّدت عيناها الخضراوان في تعبير انتظار مغتبط. راحتا تلتمعان بضوء مشرق وآسر. لم تعد الشابّة تميّز شيئًا في الحمّام المتواضع المساحة، والغنيّ الزخرفة، حيث تمدّدت على مقعد من الرخام وشعرها الكستنائيّ الجميل والغنيّ ينسدل كشلاّل حول وجهها الشاحب، ذي الملامح الرقيقة والمرسومة بدقّة. كانت حرارة ناعمة ومسكرة تُثقل الهواء، وجسدها الرشيق يتلألأ وسط البخار وحُبيبات العرق.

إتّجه كيانها كلّه نحو العاصفة التي تعبر جسدها وتملأ رأسها. كانت حشرجات اللذّة تشتدّ، وتتردّد في أذنيها قبل أن تخرج من فمها. كانت قد أغمضت عينيها الآن، لتمرّ خلف جفنيها صور وحشيّة، ولكن مألوفة. صور تستمدّ جذورها من بداياتها هي، ومن اللحظة عينها التي بدأت فيها قصّتها.

دائمًا الصور نفسها تتدافع أمام عينيها، في أوقات الانفعال الشديد. وعبرها، كان كيانها كلّه يتركّز على أولى انفعالات صباها وأقواها: الخوف، والرعب. لقد عرفت الفظائع والدماء والموت، وشهدت إبادة عائلتها وقبيلتها عن بكرة أبيهما.

إندفع الحصان الصغير البنيّ والأبيض بسرعة هائلة، كالأسهم القاتلة التي يرميها فارسه المتوحّش. كان يتّجه توًّا إلى فتاة صغيرة لها من العمر سبعة أعوام. رأى الفارس غنيمته في تلك الصغيرة التائهة والجامدة وسط بركة من الدماء غرقت فيها عائلتها وكلّ الرعاة القوقازيّين الذين تتألّف منهم قبيلتها. لقد شاهدت أباها وأشقّاءها يسقطون صرعى، بعدما اخترقتهم، الواحد تلو الآخر، السهام والخناجر والسيوف التي أعملها فيهم البرابرة ذوو العيون المائلة والمشدودة الطرفين.

إندفع المغوليّ الدمويّ نحو غنيمته وهو يطلق صيحات وحشيّة جمّدت دماءها في عروقها وشلّت أطرافها. نظرت إليه آتيًا إليها بعينين جاحظتين سمّرتهما حركة عضلات الحصان الذي كان يعدو نحوها بوقع جهنّميّ. مكثت تنتظره، خاضعة، لا حول لها ولا قوّة أمام قوّة القدر الموشك على حملها، كورقة خريف تحملها ريح الشمال.

رفع المغوليّ الطفلة المشلولة الحركة، بدون أن يبطئ من سرعة حصانه. أطلق صيحة حرب، لا يزال صداها يتردّد في أذنيها بعد كلّ تلك السنوات. تلك كانت الضربة القاضية التي أجهزت على أعصابها الصغيرة المنهكة. غابت عن الوعي، حاجبةً عنها مشاهد المذابح التي خلّفها أولئك الرجال المرعبون. ونجت لبعض الوقت من الحقيقة الحزينة بأنّها باتت وحيدة في العالم، ويتيمة عليها أن تتلقّن الدفاع عن نفسها بنفسها، في عالم محفوف بالمخاطر.

كلّما كانت نجم الصباح الرقيقة تقودها إلى ذلك المكان المثير، حيث يختلط الألم باللذّة بدون أيّ

تناقض، كانت صور ماضيها الوحشيّ تعود إلى الظهور. لطالما أتقنت نجم الصباح تدليلها وكانت تجيد اللعب على أوتارها الحسّاسة كَمَن يعزف بشغف على قيثارته الرنّانة. إختيرت نجم الصباح لتلقينها وإعدادها، بهدف أن تجعل منها جارية كاملة، وأمَة رفيعة القيمة، قادرة على إرضاء كلّ رغبات الأسياد الكبار ونزواتهم. كانت الإماء أمثالها يساوين ثروة مهمّة، ويزيد جمالهنّ وسعة معرفتهنّ، من قيمتهنّ. كان تجّار الرقيق يستثمرون أموالًا طائلة في تنشئتهنّ قبل عرضهنّ للبيع. وما كان عبد الله، تاجر الرقيق الكبير في بغداد، ليبخل في الإنفاق على أفضل استثماراته.

علّمتها نجم الصباح أن تعتني بجسدها، وتحافظ على جمالها، وتصقل قدراتها على الإغراء. كذلك علّمتها الغناء والعزف على الآلات الموسيقيّة. وقد تولّى معلّم بارع آخر اختاره مالكها، ما تبقّى من شؤون تعليمها.

لكنّ إتقان فنون الملذّات الجسديّة كان ضروريًّا وأساسيًّا للاستمرار في هذا العالم. كان عليها أن تفهم تمامًا كلّ ما بوسع جسد رائع وموفور الصحّة كجسدها، أن يحسّ به ويحمل سيّده على الإحساس به. غالبًا ما كانت نجم الصباح تذكّرها بذلك:

– تمامًا مثل عودك أو قيثارتك، عليك أن تدرسي وتتحكّمي بدقّة بكلّ أوتار جسدك لتجعليها تهتزّ. وعندما يحين الوقت، عليك أن تبرعي في العزف عليها بصورة طبيعيّة. لكي تعرفي كيف تهبين اللذّة، عليك أن تتذوّقيها، فلا يمكن للمرء أن يهب ما يجهله. كما أنّ عدم حرمان النفس اللذّة هو جزء من إتقان فنّها. قد تصبحين أمَة، يا بنيّتي الجميلة، لكنّني أريد أن أطمئنّ إلى أنّني سلّمتك المفاتيح التي تجعلك ملكة على قلب سيّدك. وربّما كذلك على عقله، فلا شكّ بأنّك أذكى وأدهى من معظم الرجال الذين عرفتُهم. إعلمي أنّ المنافسة ستكون شرسة وبلا رحمة في حريم الكبار. أنت بحاجة ماسّة إلى كلّ الإمكانيّات والمزايا للبقاء على قيد الحياة، ومحاربة غريماتك وسحقهنّ.

لا شكّ بأنّ الفتاة الزمرّديّة العينين كانت أجمل التلميذات اللواتي علّمتهنّ نجم الصباح، وأوسعهنّ موهبة. كانت المعلّمة تعشق تلميذتها اللامعة والرائعة، التي راحت تكتسب ثقة أكبر بالنفس، مع مرور الوقت.

بعد انقضاء عشر سنوات على موت أفراد عائلتها، لاحظت شجرة الدرّ أنّ تلك الصور لم تعد تثير فيها ما كانت تثيره من الرعب. لم يعد الخوف يجتاحها عند التفكير فيها، ولم يبق سوى وخز ضئيل في القلب، سيرافقها طوال حياتها. لم تعد اليوم سوى مجرّد متفرّجة على عمليّة خطفها. تعلّمت أن تتقبّل وضعها كأمَة، وأرادت أن تستفيد إلى الحدّ الأقصى ممّا يستطيع وضعها أن يوفّره لها. مع التجارب التي خاضتها، اكتشفت في نفسها روح محارِبة مستعدّة لمجابهة أهواء قدرها.

كانت على علم بمشاريع عبد الله الكبرى في شأنها – فقد اعتبرها من أثمن ممتلكاته – ووجدتها ملائمة تمامًا لطموحاتها. لذلك دأبت طوال تلك السنوات على أن تمتثل، بدون أيّ اعتراض، لمقتضيات التلقين الشامل والصارم الذي أراد عبد الله تلقينها إيّاه قبل عرضها للبيع.

حين هدأت أمواج اللذّة وتركتها لاهثة على مقعد الحمّام، صفا ذهنها فجأةً. زالت الصور المروّعة لتترك الشابّة الزمرّديّة العينين في هنيهة من النسيان المطلق، والمتعة وانعدام الوزن.

***

ما كانت مزايا الطفلة الجميلة الزمرّديّة العينين لتخفى عن عبد الله، تاجر الرقيق الكبير. لقد لاحظ في سوق العبيد في الموصل قامتها المتناسقة، وخدّيها الورديّين، وعينيها المشعّتين. كانت قد وصلت ضمن

قوافل التجّار الذي يجوبون القوقاز بحثًا عن عبيد جدُد، فيجدون جزءًا كبيرًا من مبتغاهم لدى قبائل الخاطفين المغول. كان فتيان تلك المنطقة وفتياتها محلّ تقدير واسع في الإمبراطوريّة الإسلاميّة، وذلك لجمالهم، وتناسق أجسادهم وذكائهم.

إجتازت بصحبة التجّار جبالًا ووديانًا، وسواقي وأنهارًا، يرافقها أطفال آخرون أسرى. وفي كلّ مرحلة جديدة، كان يُزاد إلى القافلة عبيد جدُد. إلى أن وصلوا ذات يوم إلى مرفأ على البحر الأسود، وعبروه على متن سفينة من جنوى، نحو مرفأ سلجوقيّ. هناك اختيرت مع أجمل عبيد تلك الشحنة، من فتيان وفتيات، من أجل بيعهم لأكبر تجّار الرقيق المحلّيين. بعد ذلك اقتيدت إلى الموصل، كبرى مدن الحدود العراقيّة، حيث كان الوسيط السلجوقيّ يدرك أنّه سيجد زبائن من ذوي الخبرة، مستعدّين لدفع أغلى الأثمان لقاء سلعة عالية النوعيّة.

دأب عبد الله على زيارة المدن الحدوديّة لاختيار العبيد. كان يريدهم أحداثًا في السنّ ووسيمين وأذكياء. دفع بدون مساومة الثمن المطلوب لتلك الفتاة، فسحرها والذكاء المتّقد في عينيها الواسعتين، أقنعاه حالًا بقدراتها الكبيرة. حالما وقع نظره عليها، بدأ يتخيّل ما عليه عمله لينزع عنها قشور البربريّة والجهل التي لا تزال تحيط بها. لم يشكّ قطّ في أنّه يستطيع أن يُخرج من تلك الشرنقة فراشة بهيّة، مخلوقة يعيد بيعها بثمن خياليّ.

لأجل ذلك، يتطلّب تعليم الجارية استثمارًا غالبًا ما يكون باهظًا. لكنّ التجّار كانوا يدركون أنّ استثمارهم هذا سيعود عليهم بالربح الكبير ساعة البيع، لأنّ الأسعار كانت ترتفع مع ارتفاع مستوى تعليم المرأة. في هذا المجال، كانت الجواري أسعد حظًّا منهنّ النساء المسمّيات «حرّات»، واللواتي حتّى ولو كنّ بنات أعيان أو أمراء، لا يتلقّين سوى بعض مفاهيم التربية الدينيّة، والتدريبات العمليّة التي تُعتبر ضروريّة للحفاظ على منازلهنّ، كأصول الطهو والتطريز.

ذلك أنّه في العالم العربيّ وفي القرون الوسطى، لم يكن جمال الجسد والشباب كافيين للأمراء والوزراء وغيرهم من الأسياد الأثرياء. هؤلاء كانوا دائمي السعي إلى لؤلؤة نادرة يضيفونها إلى حريمهم. وعليه، يجب أن تتحلّى هذه الأخيرة بمواهب استثنائيّة، وأن تضفي سعادة ورضا على عقولهم، بقدر ما تضفيه على أجسادهم.

بدون تردّد، قرّر عبد الله إنفاق كلّ ما يلزم، لإنجاح عمليّة تحوّل محظيّته الجديدة. لم يسبق له قطّ أن وقع على أمَة بهذه الجودة، ماسّة خام تنتظر تشذيبها على يد كبار المعلّمين، لإبراز بهائها كاملًا. وقد أعدّ لها أعظم المصائر، وأصبحت بسرعة محور مشروعه الطموح، وهو أن يصبح أكبر مورّد عبيد لقصر الخليفة في بغداد وكبار الأمراء الأيوبيّين.

كُلّف بتعليم الفتاة، معلّمان لا مثيل لهما، وهما نجم الصباح ونور الدين. كُلّف هذا الأخير بتعليمها القراءة والكتابة وإجادة اللغة العربيّة، كما كان عليها أن تتعلّم مبادئ الرياضيّات وعلوم التنجيم. بعد ذلك، وجب عليها أن تحفظ القرآن غيبًا وتدرس الحديث والسيرة النبويّة. ولمّا كانت طالبة موهوبة، وسّع معلّمها آفاق معرفتها لتشمل الشعر والأدب والتاريخ والفلسفة.

كانت الفتاة تحبّ فنون الخطّ العربيّ، وتجيد كتابته. كما كانت تنشد القصائد، وتبحث في مواضيع علميّة عدة آنذاك، كالقواعد والعلوم الدينيّة والفلسفة. وبرغم حداثة سنّها، سمح لها سيّدها بمناقشة مواضيع مختلفة مع علماء من محيطها في مدينة بغداد. كان شديد الإعجاب بذكائها وقدرتها على الإصغاء واكتساب معارف جديدة، وبانفتاح ذهنها وسرعة بديهتها غير المألوفة. كانت تبرع في لعبة الشطرنج وقد فضّلتها على لعبة طاولة النرد الشعبيّة، التي لم تجدها على مستوى مواهبها في التخطيط الاستراتيجيّ.

كانت نجم الصباح امرأة ناضجة في العمر وإنّما لم تفقد القدرة على الإغراء. كانت تتحلّى بالفكر الثاقب والجمال والذكاء. عرفت أسيادًا كثيرين، وما بينهم أميرًا. لكنّها واجهت في حريم هذا الأخير بعض المشاكل مع زوجاته، فبيعت إلى عبد الله، تاجر الرقيق. سرعان ما رقّى الأخير نجم الصباح، فجعلها على رأس جيش إمائه، الذي كان يشكّل جزءًا كبيرًا من رأسماله وثروته. أثبتت تلك المسؤوليّة الكبيرة لنجم الصباح، ثقة سيّدها واحترامه خبرتها. كان التاجر يعتمد كثيرًا عليها، وهي تبرهن له يوميًّا عن قيمتها وإخلاصها.

غير أنّ نجم الصباح لم تقم بعملها قطّ بالسعادة والحماسة عينهما اللتين أظهرتهما مع تلك الشابّة البهيّة ذات العينين الخضروايين البرّاقتين. لقد سبق لها أن عملت على إعداد جَوارٍ كثيرات قبل عرضهنّ للبيع. لكنّها لم تلتق قطّ فتاةً من طينة كهذه. هذه الفتاة كانت استثنائيّة وتجتذب اهتمام الجميع، ما أثار غيرة الإماء الأخريات الشديدة. لكنّهنّ كنّ عاجزات أمامها لأنّها كانت درّة عين نجم الصباح، والابنة المعجزة التي لم يمنحها إيّاها القدر. فالله، برحمته الواسعة، هو مَن عهد إليها برعاية تلك الطفلة الاستثنائيّة.

كانت كلّ حركة من حركات الفتاة تبعث حولها رائحة فوّاحة، عطر يدين بحدّته وبدون شكّ لرحيق برّيّ نابع من أصولها القوقازيّة. كانت هالة من الشهوانيّة تحيط بها، فتصنع سحرها وأسلوبها في الوجود. ما كان ممكنًا أبدًا أن تُسلب، ولو ببريق كلّ حضارات العالم ولمعانها، تلك النظرة الصادقة ولكن المتوحّشة، وتلك الشخصيّة الحازمة، وشموخ الرأس الطبيعيّ ذاك على العنق الطويل والرشيق، الشبيه بعنق حيوان جميل نزق يأبى الترويض. كانت الإماء الأخريات يتذمّرن من مظهرها المغرور، ومن سلوكها الذي يشي بفوقيّة طبيعيّة.

تلذّذت نجم الصباح بأن تنقل إلى تلك المرأة الجميلة معرفتها وخبرتها الطويلة. بذلت نفسها في ذلك، لأنّها وقعت في حبّ محظيّتها، تحت سحر تلك المادّة الخام الليّنة العريكة، والتي كانت تتجمّل وتتعتّق تحت تأثيرها، بما يتجاوز كلّ التوقّعات والآمال. نمت الشابّة في حماية نجم الصباح لتصبح نموذج الأنوثة والإغراء والسحر، الذي لا يفلت أحد من تأثيره.

أظهرت قدرة على الشعر والغناء والموسيقى، تلك الفنون التي تشكّل جزءًا مهمًّا من تعليم الجواري، ضمن فنّ الإغراء الراقي في الشرق. كانت الملذّات التي تتبادلها أجساد العاشقين مصدر إلهام للشعراء والمؤلّفين الموسيقيّين لا يقف دونه رادع. فتستعيد أعمالهم ومؤلّفاتهم في مجالس الكبار، الإماء الفاتنات، بأصواتهنّ الجميلة وموسيقاهنّ الشغوفة، تكريمًا للحبّ والنشوة.

***

ذات يوم من ربيع العام 1236، أُعلِن أنّ الشابّة ابنة السابعة عشرة، قد باتت جاهزة، فاستلقت مسترخية للمرّة الأخيرة في الحمّام الخاصّ الصغير، في منزل التاجر الثريّ. كان جوّ دافئ يخيّم في الحمّام، ورائحة المسك تنبعث من الأبخرة. كان جسدها العاري الجميل شبه مخفيّ تحت منشفة من الحرير، وقد ألقت برأسها على ركبتَي نجم الصباح التي راحت تهدهدها بحنان الأمّ. بعينين مغمضتين وبابتسامة رضا على شفتيها، كانت تستفيد بأقصى حدّ من لحظات الأمان والسعادة هذه، قبل أن تجابه العالم الذي ستُرسَل إليه.

كانت كلتا المرأتين تدركان أنّهما تقضيان ساعاتهما الأخيرة معًا في هذه الحياة. تلك كانت الأمثولة الأخيرة والأهمّ لنجم الصباح، فبعد خروجهما من الحمّام ستفترق درباهما إلى الأبد. إستعانت نجم الصباح بكلّ ما تملك من رباطة جأش لئلّا تبكي وتفسد لحظة الوداع هذه، والتي أرادتها أن تكون

سعيدة وملأى بالأمل، للحياة الجديدة التي ستعيشها محظيّتها.

بلغت شهرة جمال زمرّديّة العينين وصيت ذكائها وعلمها الواسع، مسامع حسن السمين، رئيس الخصيان في حريم خليفة بغداد. من بين مهامّه، كانت مسؤوليّة تزويد الحريم بصورة دائمة بأجساد شابّة وجديدة قادرة على خدمة سادة القصر وتلبية رغباتهم.

لم تطُل المفاوضات كثيرًا. ما كاد حسن يجتمع بالفتاة حتّى اتّخذ قراره: كانت مثاليّة لحريم وليّ عهد الخليفة. فضلًا عن ذلك، لم تكن المساومة سوى شكليّة، ذلك أنّه قد دفع المبلغ الذي طلبه عبد الله، والذي رفض أن يُنزل مقدار دينار ذهبيّ واحد، ثمن ملكيّته الأغلى. كان على ثقة تامّة بمزايا الفتاة لدرجة استعداده للمراهنة بكلّ ثروته عليها. كان على يقين من أنّها حال دخولها الحريم، سرعان ما ستتميّز وتصبح محلّ تقدير، ويصبح حسن زبونًا وفيًّا له.

أتى رئيس الخصيان إلى عبد الله باحثًا عن الجارية المثاليّة، وقد كلّف من جانب سيّده، الخليفة العجوز، بمهمّة محدّدة: العثور على أمَة استثنائيّة يهديها إلى ابنه وليّ العهد، والذي سيصبح خليفة المستقبل، المستعصم [1]. كان الأب قلقًا لأمر ابنه، الذي يبالغ في الاستمتاع بالخمر والشعر والغناء، وخصوصًا بالعازفات والمغنّيات، ويميل إلى النساء البدينات. بيأس شديد، كان الوالد يشاهد ابنه لا يكاد يفيق من أبخرة الخمر إلّا ليستزيد منها. لم يكن يبتعد إلّا نادرًا عن أجساد أولئك النساء المكتنزات اللواتي يحفل بهنّ حريمه، ولا يهتمّ أبدًا بشؤون الدولة والدين.

كانت جاريته المفضّلة آنذاك تدعى ورد الورود، وهي شركسيّة شقراء لم تعتنق الإسلام قطّ. كانت كتلة ضخمة من اللحم الأبيض ذات عينين زرقاوين غارقتين في انتفاخ خدّيها الورديّين، تشعّان دائمًا ببريق ساخر وطروب. كانت في عينَي الأمير الثمل، أجمل النساء. غالبًا ما كان يطعمها بيديه، للمحافظة على تلك الكتلة الناعمة والعطرة، والتي كانت تفتنه. كان يجد ذروة سعادته حينما يغوص رأسه في أعماق صدرها العارم. كان الجسد الشبق، والسمين، والرخو، والمعطّر بماء الورد، بمثابة خشبة خلاص له، حين تتبدّد سحابات الخمر التي تسود دماغه، لتتركه في مواجهة المسؤوليّات الجسام التي تنتظره.

كان الخليفة يحتقر تلك المرأة ويخشى تأثيرها السيّئ على وليّ العهد. أمام عجزه عن تغيير سلوك ولده، حاول البحث عن حلّ بإدخاله إلى حريم الأمير، جارية جميلة وذكيّة وحسنة التعليم، قد تستطيع مساعدته في انتشال وليّ العهد من جوّ الانحراف، وفي ردع تأثير ورد الورود ومكرها النسائيّ، بواسطة نوع آخر من الذكاء، أكثر حكمة وتنوُّرا، وذلك من أجل إعادة الأمير إلى طريق الصواب، وتذكيره بنبل واجباته وأهميّة المسؤوليّات التي تنتظره. تلك الفكرة، والتي لم تكن سيّئة على الإطلاق، كانت رهانًا مفرط المجازفة.

إذًا، قد قادت تلك الخطّة حسن إلى باب التاجر عبد الله. كان يجب أن يرى بأمّ العين تلك الفتاة الزمرّديّة العينين، ذات الجمال والعلم، والتي ذاعت شهرتها في أسواق بغداد وقصورها، تلك الأمَة التي يرفض عبد الله بيعها برغم المبالغ الكبيرة المعروضة عليه. الأمَة التي يُقال إنّها لا تليق إلّا بأمير كبير.

إستقبل عبد الله، حسن رئيس الخصيان، بما يليق بمنصبه وميزانيّته من تكريم. لم يكن التاجر الذي أخذته الحماسة، ليصدّق حظّه السعيد، فهو لم يعد بحاجة إلى طرق أبواب القصر، بعدما قادت شهرة محظيّته رئيس الحريم إليه! بعد مراسم الاستقبال الاعتياديّة، التي كانت تقضي بتقديم البلح والحليب للضيوف، استدعى التاجر أمَته الأغلى.

حين ظهرت الفتاة بدأت عينا حسن تلتمعان، ولم يستطع أن يخفي إعجابه. فرك عبد الله يديه، مدركًا

أنّه يستطيع طلب الثمن الذي يريد. منذ النظرة الأولى، عرف حسن أنّه عثر على ما يحتاج سيّده إليه. كان يثق كثيرًا بالانطباع الأوّل الذي يكوّنه، والذي صقلته خبرة طويلة في معاينة الخصيان والعبيد من كلّ نوع. كانت تلك الشابّة تتمتّع بجمال لا يوصف ومثيرة إلى حدّ إيقاظ الأموات. لم يستطع لجم نفسه عن التفكير حتّى بأنّها أكثر من كاملة بالنسبة إلى أمير غارق في الانحراف ولن يعرف كيف يفيها حقّها من التقدير. قامتها الرشيقة والممشوقة كالرمح قد لا تُعجب ذلك الأمير، كما أنّ حشوها بالطعام لزيادة اكتناز جسمها سيكون خطأ كبيرًا. أفلتت منه تنهيدة.

ومع ذلك، كان عليه بصفته احترافيًّا ماهرًا، أن يعاين البضاعة التي سيدفع لقاءها ثمنًا باهظًا. نظرًا إلى جسامة المهمّة التي ستُكلّف بها هذه الشابّة، عليه أن يمتحن ذكاءها ومعرفتها، وخصوصًا في أمور الموسيقى والغناء والرقص. حالما بدأ بمحادثتها، وقع في سحرها أكثر. لقد وجدت الفتاة طريقها إلى قلبه بسرعة، وهو ما شكّل مفاجأة جميلة لحسن، لأنّه وبعد خبرته في القصور، قد بات حذرًا في مقاربته العبيد، ولم يعد يتوقّع الكثير من الطبيعة البشريّة. لكنّ نضارة تلك الفتاة ونظرتها المتألّقة فاجأتاه، وقدَّر ثقافتها وفكرها أكثر منهما جمالها. عندئذٍ، آلى على نفسه أن يبقيها تحت نظره، لأنّها ستكون لا محالة بحاجة إلى حمايته ونصائحه، لمجابهة تصرّفات ورد الورود الشرّيرة، والبارعة في تدبير شتّى أنواع المكائد والمؤامرات، والتي لن تتردّد وأنصارها في التواطؤ ضدّ تلك الغريمة المهمّة التي أراد حسن إدخالها في جحر الأفاعي حيث يقطنون.

فضلًا عن ذلك، كان من المؤكّد أنّ ورد الورود تعرف تمامًا أين يتواجد حسن في تلك اللحظة. لديها عيون وآذان في الحريم، كما لم يكن سرًّا لأحد أنّ هذا الأخير كان يسعى للتخلّص من تأثيرها على ابنه. حتّى ذلك الحين، قد تمكّنت من التخلّص من كثير من الغريمات المحتملات. ومع ذلك، ظنّ حسن أنّ الجميلة الواقفة أمامه قادرة، طبعًا مع بضعة كيلوغرامات إضافيّة، على اقتلاع ورد الورود من قلب الأمير.

لم تخيّب الشابّة ظنّه في أيّ من مواضيع الحديث. كانت تُجيب بسعة معرفة على كلّ أسئلته، وتأخذ وقتها للتفكير والوصول إلى الإجابات الصحيحة بدون استعجال، ولكن أيضًا بدون تردّد. كانت تستخدم لغة غنيّة ومناسبة لكلّ مجال يستفسرها عنه، وراحت تتجنّب أفخاخ الحديث بابتسامة صغيرة ساحرة، والتماعة ساخرة في عينيها الواسعتين المشرقتين والشبيهتين بعينَي هرّة فارسيّة. حين سمعها تعزف العود والقيثارة بكثير من البراعة، وتغنّي كالملاك وترقص كحوريّة من حوريّات الجنّة، أدرك أنّه عثر على لؤلؤته النادرة، وأيقن أنّ لتلك الفتاة حظوظها إلى جانب أمير يهوى الغناء والموسيقى.

إنتحى عبد الله جانبًا وراح يستمع إلى الأحاديث بين حسن ومحظيّته بابتسامة فخر ورضا، واثقًا من حصوله على الثمن الباهظ الذي طلبه. أمر حسن عبيده بحمل أكياس الذهب إلى عبد الله في اليوم عينه، وسأله إعداد الفتاة، لأنّه سيمرّ شخصيًّا لأخذها في اليوم التالي. كان يقدّر أنّه بحاجة إلى العمل معها لبعض الوقت، وإعدادها لمهمّتها، وتعليمها كيف تسير الأمور في الحريم، قبل تقديمها إلى الأمير. كانت للفتاة إمكانيّات ضخمة، إنّما عليها أوّلًا أن تتمكّن من البقاء حيّة في الأشهر الأولى داخل الحريم.

أمر التاجر محظيّته بالذهاب للاستعداد وتوديع مَن عليها توديعهم.

***

أثناء حمّام الوداع، لم تدع نجم الصباح أحدًا غيرها يقدّم آخر لمسات الجمال إلى محبوبتها، ولم تسمح لأيّة أمَة بمساعدتها. أعدّت الحمّام وأحرقت البخور، وحين دخلت محظيّتها الجميلة، ساعدتها على خلع ملابسها برقّة، دونما استعجال. بعد ذلك نتفت لها شعر جسدها، وغسلتها، ودلّكتها بأثمن العطور،

بيديها الماهرتين.

أحسّت نجم الصباح وهي تداعب رأس الفتاة الجميل، بالدموع تحرق عينيها. بذلت جهودًا كبيرة للمحافظة على ابتسامتها، لكنّ هذا الفراق كان أصعب من أن تتحمّله. غير أنّه كان محتومًا، لأنّه يمثّل نجاح كلّ سنوات الدراسة والإعداد.

إستجمعت شجاعتها وهي تفكّر في تنبّؤات البصّارة، تلك المرأة الحكيمة والغامضة التي تبعتهما، قبل ثلاثة أيّام، في الأزقّة المتعرّجة والعابقة لسوق العطّارين، حيث اشترتا مستحضرات التجميل والزيوت العطريّة الضروريّة للحمّام. طلبت البصّارة رؤية يد الشابّة ذات القامة الممشوقة كالرمح، والمشية الرشيقة كإحدى حوريّات الجنّة. وقد ألحّت في طلبها إلى أن وافقت المرأتان أخيرًا، وأعطتها الشابّة يدها اليسرى، الأقرب إلى قلبها.

تأمّلت البصّارة طويلًا في اليد الصغيرة ذات الأصابع الدقيقة، وأحسّت بنعومتها فيما راحت تداعبها بإصبعها الأسمر والناتئ العقد بفعل الشيخوخة، ثمّ قلبتها، وتبعت بإصبعها خطوط القدر المرسومة على كفّها. فوجئت المرأتان حين رفعت قارئة الكفّ تلك اليد بكلّ احترام إلى فمها، وجبينها، قبل أن تضمّها إلى قلبها طالبة رؤية عينَي الشابّة قبل أن تقول ما لديها. وافقت الشابّة على طلبها لئلّا تطيل وقوفهنّ في الشارع، واحترامًا لسنّ العجوز. فخفضت خمارها قليلًا، وكذلك فعلت البصّارة.

تنقّلت عينا نجم الصباح النبيهتان بين النظرتين الرائعتين. عكست عينا العجوز الزرقاوان انبهارًا سعيدًا بالجمال المشرق والذكاء المنبعثين من نظرة الشابّة الزمرّديّة. بدت محظيّتها شديدة الإعجاب بحكمة نظرة البصّارة وعينها الآسرة.

ثمّ مالت العجوز وهمست بصوت خفيض ورزين:

– سيكون لك مصير خارج عن المألوف يا ابنتي. لا شيء يمكنه ردعك. ستصبحين سلطانة وتحكمين رجالًا ذوي كبرياء وقسوة وشجاعة. لا تخافي. واتبعي قدرك، يقُدك بعيدًا، إلى مكان أبعد من العوائق والتجارب، إلى مكان لم تصله بعد أيّة امرأة مسلمة.

تذكّرت نجم الصباح أيضًا أنّ نظرة قارئة الكفّ أظلمت في تلك اللحظة، وعلتها مسحة من الحزن. ثمّ شدّت على يد الفتاة وأطلقت تنهيدة لتضيف قائلة:

– إليك نصيحتي، وهي ثمرة حكمتي وثمن شبابي الذي أفل. إحذري طبيعتك الوحشيّة واعتدادك بنفسك الذي لا حدود له. أراهما بوضوح في عينيك الجميلتين. حافظي على هدوء أعصابك وتعلّمي أن تسيطري عليهما، فهما وحدهما القادران على إيذائك. بركة الله سبحانه وتعالى ترافقك يا ابنتي، وستقابلين في طريقك كثيرًا من الحسّاد، لكنّهم لن يستطيعوا شيئًا ضدّك إذا لم تدعي لهم مجالًا.

ثمّ استدارت تريد الرحيل. ولكنّها وقبل أن تختفي بحجابها الأسود عند زاوية زقاق مظلم، رمت الفتاة التي تجمّدت في مكانها بنظرة أخيرة وسريعة، وقالت:

– حاذري غيرة النساء وجبن الرجال. إيّاك أن تنسي تحذيري!

في تلك اللحظة الأخيرة التي كانتا تقضيانها معًا، فكّرت نجم الصباح مجدَّدا بتلك التنبّؤات وشعرت بالفخر: العظمة مقدّرة لمحظيّتها. مع ذلك شعرت بانقباض في قلبها. فالمصير العظيم يعني دربًا محفوفة بالمخاطر. أدركت الشابّة ما تشعر به نجم الصباح، فاستوت، وأخذت رأس معلّمتها بين يديها الصغيرتين البيضاوين، لتغوص نظراتها في عينَي صديقتها الحزينتين والمترقرقتين بالدمع، وقالت لها:

– لا تبكي من أجلي، يا نجم الصباح الجميلة واللطيفة. إبتسمي وكوني سعيدة. أرغب في أن أراك تدعينني أمضي نحو قدري مرفوعة الرأس، وعلى شفتيّ ابتسامة. إطمئنّي، لن أنساك أبدًا. حتّى ولو أنّ مصيري لا يدركه سوى الله، فأنا واثقة بأنّ طريقي سيكون صعبًا ومزروعًا بالأفخاخ، لكن في نهايته مجد ليس بوسع أيّة امرأة تذوّق طعمه. تذكّري تنبّؤات البصّارة، قالت إنّني سأحظى بمصير الملكات، وأنا أصدّقها. والبرهان أنّني منذ الآن دُعيت إلى حريم وليّ عهد الخليفة في بغداد. سأعرف كيف أفوز بقلبه وتفكيره، وقد أتولّى الحكم إلى جانبه. سبق أن حدث ذلك في تاريخ الخلفاء. تذكّري خيزران التي حكمت الإمبراطوريّة الإسلاميّة مع زوجها المهدي [2]، وابنه البكر الهادي، وابنه الثاني، وكان المفضّل لديه، وأعني به هارون الرشيد العظيم. مَن يدري؟ قد يحجب رونق اسمي اسمها!

نظرت إليها نجم الصباح بكثير من الحنان. لقد كبرت عصفورتها الجميلة – بل نسرها الصغير – ولم يعد في ذهنها سوى فكرة واحدة: أن تبسط جناحيها وتطير بعيدًا عن العشّ. لقد أتمّت واجبها على أكمل وجه، وقد فعلت ذلك بتفانٍ وكثير من اللذّة. لم يبقَ أمامها سوى أن تجد ما يكفي من الشجاعة لتدعها ترحل بكرامة، وتجلس بعد ذلك في زاويتها وتطلق العنان لدموعها. عالمها سيصبح باردًا ومظلمًا بدون شعاع الشمس هذا الذي أضاء أيّامها الكئيبة وأدفأ قلبها السئم.

***

كانت سيّدة حريم وليّ عهد خليفة بغداد وبدون منازع، على علم بآخر خطط الخليفة ومساعده حسن. ليست تلك المرّة الأولى التي يحاولان فيها إعتاق الأمير من نَفوذها. كانت محظيّة الأمير السمينة والماكرة على علم بذلك، ولم ينقصها الذهب قطّ لترشو به جواسيسها المزروعين داخل القصر.

أعدّت خطّتها؛ سوف يُشنّ هجومها المضادّ حالما تصل تلك الجارية الشهيرة، أي غريمتها الجديدة والتي يزعمون أنّها لا تضاهى، والتي لن يطول الأمر حتّى يتمّ تقديمها إلى الأمير. كانت ورد الورود شديدة الثقة بنفسها، لا يساورها أيّ خوف من تلك الغريمة المزعومة، لكنّ شهرة الشابّة أثارت استياءها. لقد سمعت حتّى الملل الأحاديث عن جمالها وذكائها ومواهبها في الموسيقى. قرّرت أن تتصرّف بسرعة، وألّا تدع لها فرصة واحدة، يجب مهما كلّف الأمر منع الأمير من مقابلة تلك المرأة. كان الحذر المُطلق واجبًا في الحريم. فأتت الخطّة بسيطة، ووحشيّة، وفعّالة، وعاجلة...

من جهته، وصل حسن البدين، رئيس الخصيان، إلى باب منزل التاجر عبد الله لاصطحاب زمرّديّة العينين. كان ينوي استبقاءها معه أيّاما قليلة لتدريبها على تقاليد حريم الخلفاء، وليشرح لها مهمّتها. كذلك كان يأمل بأن يُكسبها بضع كيلوغرامات، قبل تقديمها للأمير. تغطّت الفتاة الجميلة بحجاب أسود فوق ملابسها الفخمة والمزخرفة، والتي كانت نجم الصباح قد ساعدتها على ارتدائها بعد الحمّام، وكانت هديّة وداع من عبد الله الذي حرص على ارتدائها ملابس لائقة، لدى دخولها القصر. أمّا بقيّة أغراضها فقد حُزمت في صندوق خشبيّ، تولّى حمله خصيّان أسودان. سارت الفتاة خلف حسن في شوارع بغداد، المدينة الأسطوريّة. بخطى خفيفة، كانت تتّجه إلى حياتها الجديدة بدون أن تنظر إلى الوراء. وسار خلفها حارسان.

لم تكن الشابّة تعرف قصر الخليفة، فمنذ وصولها قد عاشت في الحيّ التاريخيّ من بغداد، المدينة المستديرة التي شيّدها الخليفة العبّاسيّ أبو جعفر المنصور في العام 762، على الضفّة الغربيّة لنهر دجلة. وهي لم تذهب قطّ إلى منطقة القصور الكائنة شرق النهر. للوصول إلى القصر، كان يجدر التوجّه نحو شمال شرق المدينة القديمة والخروج من التحصينات، عبر الباب الأوسط أو باب الوسطانيّ، وهو برج مراقبة كبير، بناه في العام 1221 الخليفة الناصر لدين الله. كانت ضخامة ذلك البرج مذهلة، وكان مظهره مهيبًا، وبسيطًا بدون زخرفة. لن تنسى الشابّة يومًا عبورها لبغداد، تلك

الرحلة نحو آفاق جديدة. كان المارّة يبتعدون للسماح بمرور الموكب. من خلف خمارها، كانت الشابّة تنظر إلى كلّ ما يحيط بها بعينَي الفضول والمرح. كانت تستعجل الوصول واكتشاف حريم الخليفة وابنه، راسخة الاعتقاد بأنّ قدرها أن تكون بين كبار ذلك العالم...

سرعان ما اصطدمت خطط حسن بخطط ورد الورود. فيما أراد اتّخاذ وقته لإعداد محظيّته الجديدة، لم ترد ورد الورود هدر أيّ وقت بغية التخلّص منها.

كانت المعلومات التي تلقّتها المحظيّة دقيقة جدًّا لدرجة أنّها عرفت تاريخ وصول الفتاة الجديدة. هكذا عشيّة ذلك اليوم، حضّت الأمير على شرب الخمر حتّى نال منه السكر الشديد. حين تشوّش عقله تمامًا، واشتعلت حواسه لصوت الموسيقى، ومنظر الراقصات وبشرتهنّ البيضاء المكشوفة تمامًا أمام عينيه الزائغتين، أخبرَته ورد بكلمات سريعة عن الجارية الجديدة التي تريد تقديمها له، وجمالها وصوتها الشجيّ. وطلبت منه توقيع رسالة يطلب فيها إحضارها إلى مقرّه حالما تصل إلى القصر، فتسليمها إلى ورد الورود: كانت مُلمّة تمامًا بذوقه، وتتقن إعداد النساء الكفيلات بإشباع كلّ رغباته. سبح نظر الأمير في الجسم الأبيض السخيّ، وتوغّلت أصابعه فيه مستكشفةً، فتحتّم على ورد الورود، التي ارتسمت على شفتيها ابتسامة رضا، أن ترشد يده التي لم تنفكّ تتوه في ثنايا اكتنازاتها، لكنّ الأمير انتهى بالتوقيع، بدون أن يقرأ شيئًا، ليعود للغوص أكثر في الجسد المكتنز والمريح. ومع ذلك، واصلت عشيقته صبّ الخمر له حتّى الصباح، رغبةً منها في التأكّد من استغراقه في النوم، لدى وصول الأمة الجديدة إلى القصر. حتّى أنّها تركت خادمة بقرب سريره لتحذيرها إذا ما استفاق قبل إنجاح خطّتها.

أيقنت ورد الورود أنّها لن تنام قريرة العين ما لم تتخلّص من الفتاة الجديدة، بعدما أنبأتها غريزتها أنّها تمثّل خطرًا حقيقيًّا. أوّل عمل قامت به في الصباح، كان إرسال الرسالة التي تحمل توقيع الأمير وختمه، إلى قصر والده الخليفة. أعطت موفدها تعليمات صارمة مهدّدة إيّاه بأشدّ العقوبات إذا ما عاد خالي الوفاض. كان عليه انتظار عودة حسن رئيس الخصيان إلى منزله مع الشابّة، ثمّ تسليمه الرسالة، وعدم المغادرة بدون اصطحاب الجارية الجديدة.

لم يكن حسن يتوقّع أن يجد موفد الأمير أمام باب قصر الخليفة، ففوجئ في البداية، ثمّ استهجن أسلوب الموفد في الحصول فورًا على الشابّة. دقّق حسن في الرسالة. لم يجد فيها ما يثير شكوكه، فما كان عليه سوى القبول بنقل الفتاة توًّا إلى قصر الأمير. كانت أوامر الرسالة واضحة، وختمها أصليًّا، حتّى ولو بدا له التوقيع مشوَّشا بعض الشيء. شاهد الفتاة تغادر، وهو يشعر كمن تلقّى لكمة في معدته. لم يتسنّ له الوقت حتّى ليهمس لها ببعض كلمات التحذير. ما كادت تجتاز باب القصر الكبير، حتّى غُيّر طريقها باتّجاه مقرّ الأمير، يتبعها العبدان اللذان يحملان صندوقها.

ألقت الفتاة نظرة أخيرة على القصر، وتأسّفت لأنّها لم تستطع زيارته، لكنّها قالت في نفسها إنّ الفرصة ستتسنّى لها لاحقًا في حياتها. كان الناصر لدين الله قد بنى القصر شمالي المدينة القديمة، خارج التحصينات، على الضفّة اليسرى لدجلة. كانت البوّابة والمثيرة للذهول بضخامتها، حجريّة، ومزخرفة على الطريقة السلجوقيّة برسوم هندسيّة وأشكال زخرفية جميلة. كانت تحجب داخل القصر، وهو ما زاد من فضول الشابّة، التي لم تستطع سوى أن تلمح باحة واسعة، تحيط بها قناطر عديدة ذات قبب مقرنصة [3]، تتتالى بتناغم جميل على طابقين.

سارت الفتاة خلف موفد الأمير، وقلبها مليء بالأمل والخوف في آن واحد.

***

تردّدت ذات العينين الزمرّديّتين قليلًا وهي تجتاز بوّابة قصر الأمير: صحيح أنّه لا يقلّ تأثيرًا عن

قصر الخليفة، غير أنّه بدا لها أقلّ ترحيبًا وأكثر صرامة. كانت تفتقد حماية حسن، فقد استشعرت عند موفد الأمير نوعًا من العدائيّة تجاهها، بدون أن تفهم السبب. لا بدّ من أنّها ستتنفّس الصعداء حين يعهد بها إلى مسؤول الحريم.

تبعت موفد الأمير عبر بستان، ثمّ عبر رواق يفضي إلى باحة داخليّة زُيّن وسطها بنافورة ماء. وكانت غرف الحريم الرئيسيّة تطلّ على تلك الباحة.

لقد أحسّت تمامًا باضطراب حسن حين قرأ رسالة الأمير. حين أمرها بمرافقة الموفد، كانت نظرته ملأى بالتوجُّس. لم تفهم ردّة فعله. فقد قال لها عبد الله إنّها ستمضي بعض الوقت في قصر الخليفة، إلى جانب حسن، لكي تنهي إعدادها، لكنّها من جهة أخرى قد استبشرت خيرًا في أن يطلب الأمير رؤيتها بمثل تلك السرعة.

من جهته، عاد حسن إلى جناحه في القصر. راح يذرع الأرض جيئة وذهابًا، قلقًا، حائرًا بين قرار ترك الفتاة تجد مكانها بجهودها الخاصّة في حريم الأمير، والرغبة في الذهاب حالًا لمعرفة أخبارها. لام نفسه على أنّه أُخذ على حين غرّة بهذا الشكل، ولم يفكّر في مرافقتها إلى قصر الأمير. ساوره شعور عميق بأنّه وقع ضحيّة تلاعب. كان يمقت ألّا تسير الأمور وفقًا لما خطّط له. نظرًا إلى دوره في الإشراف على شؤون القصر، يجب ألّا تقع مفاجآت كهذه. كان أحدهم يتلاعب به... وفجأةً قفزت إلى عينيه صورة وجه ورد الورود المنتفخ، فدبّ فيه الذعر. كانت تلك الشرّيرة تصنع بالأمير ما تشاء حين يكون تحت سطوة مفاتنها الوافرة والخمر. لا شكّ بأنّها سمعت عن صفات الأمَة الجديدة، وهي بلا شكّ ليست بعيدة عن هذه الدعوة المستعجلة.

قرّر الذهاب إلى الشابّة في الحال، أقلّه ليتحدّث إلى وكيل بيت الحريم ويوصيه بها، فقد بات يشعر نحوها بكثير من التعاطف.

كانت لحسن طرقه الخاصّة ومخبروه داخل بيت الحريم. كان وكيل ذلك البيت – خصيّ أسود عجوز – نحيلًا وجافًّا كقلب غصن شجرة إبنوس، ويتبادل وورد الورود كراهية عميقة. لكنّها كانت عاجزة حياله، هذا لأنّه طالما أدار شؤون الحريم، قبل أن تصبح هي محظيّة الأمير. وقد جعلته الثقة التي محضه إيّاها الخليفة ثابتًا في منصبه، فوجد الأمير نفسه مرغمًا على الاحتفاظ به. وبعد مجابهات كثيرة، توصّل الوكيل وورد الورود إلى اتّفاق، يقضي بألّا يتطاول أيّ منهما على منطقة نفوذ الآخر. سوى أنّ الخصيّ راح ينتقم منها بإطلاع قصر الوالد على كل ما يُدبَّر في قصر الابن.

إستقبل الوكيل الفتاة في مبنى الحريم، وأمر عبيده باستلام صندوق أمتعتها، قبل أن يعيد عبدَي حسن إليه. ثمّ رافقها إلى القاعة الرئيسيّة. أخافتها النظرات الجامدة والعدائيّة التي قابلتها. كانت نجم الصباح قد روت لها قصصًا لا تصدّق حول الحياة في قصور الحريم، وحذّرتها من المنافسة والغيرة السائدتين فيها. في تلك الأماكن النسائيّة حصرًا، يجب اختيار مَن نوليهنّ ثقتنا بعناية شديدة. ومع ذلك، فقد فوجئت الفتاة بالعدائيّة العاجلة التي أظهرتها لها أولئك النساء، حتّى بدون أن يعرفنها بعد.

إستيقظت فيها غريزتها وحذرها الطبيعيّ. كما اجتاحها شعور عميق بالوحدة، وسط كلّ أولئك النساء البدينات المنهمكات، أو الجالسات بضجر على الأرائك.

فيما سارا، راحت بعض النسوة ينهضن، ويتزاحمن حولهما ويدفعنهما أحيانًا. كان الوكيل يعرفهنّ جيِّدا، وقد اعتاد سلوكهنّ، بعكس الأمَة الشابّة. أحسّت بالضيق إزاء ذلك الجدار من النساء من كلّ قامة ولون، يجمعهنّ قاسم واحد فقط: السُمنة. لم تكن أيّ منهنّ رشيقة القوام، فجميعهنّ ممتلئات الجسم، مكتنزات اللحم.

ما لبثت الفتاة أن وجدت نفسها محاطة تمامًا بأولئك النساء ذوات النظرات الكارهة، والابتسامات التي لا تبشّر بالخير. دبّ فيها الذعر حين لاحظت أنّهن نجحنَ في فصلها عن وكيل بيت الحريم، حاميها في تلك اللحظة.

وفجأةً، لم تعد ترى شيئًا، فقد رمتها إحدى إماء ورد الورود بغطاء أسود على رأسها. تلك كانت الإشارة، ولم تلبث الشابّة أن وجدت نفسها محمولة بعدد من الأذرع السمينة والوحشيّة نحو مجهول مظلم ومخيف.

راحت تتخبّط بعنف، محاولةً أن تستغيث، لكنّ صرخاتها بقيت عالقة في حلقها وقد جمّدها الخوف. ضاقت أنفاسها، بعدما قبضت عليها يد الذعر الباردة، وغمرها شعور بالهلع، فبعث من جديد ذكرى المغوليّ المندفع نحوها على صهوة حصانه لغزوها.

***

حثّ حسن خطاه متَّجها نحو قصر الأمير، وقد ساوره شعور بخطر وشيك، لم يجد له تفسيرًا. حتّى أنّه راح يركض، لكنّه عاد فأرغم نفسه على التباطؤ لئلّا يبدو سخيفًا. ومهما حاول جاهدًا استعادة الأحداث الأخيرة، كان يصل دائمًا إلى الاستنتاج بأنّ الرسالة جاءت بمبادرة من ورد الورود، وبأنّ الأمير لا شأن له بما بدا فخًّا، أرسل الفتاة المسكينة إليه بنفسه، لأنّه لم يقم بردّ الفعل المطلوب. ضرب حسن رأسه بيده، فيما أمسك عمامته باليد الأخرى ليمنعها من السقوط.

وصل حسن والعرق يتصبّب منه إلى قصر الأمير وهرع إلى بيت الحريم، فالتقى بعبديه اللذين كانا يغادران القصر. أخبراه بأنّهما تركا الفتاة مع الوكيل، وهو ما طمأنه قليلًا. ثمّ سألهما مرافقته. كان يأمل الوصول في الوقت المناسب لوضع حدّ لخطط ورد الورود، غير أنّه خشي أن تكون محظيّة الأمير قد قرّرت التخلّص فورًا من غريمتها الجديدة، قبل أن يتسنّى للأمير لقاؤها، وسماعها تغنّي ورؤيتها ترقص. كان يدرك أنّ المحظيّة على علمٍ مسبق بجمال الشابّة ومواهبها، كما يعي خصوصًا أنّها مخادعة وبدون شفقة.

حالما دخل حسن بيت الحريم، أرسل بطلب الوكيل والجارية الجديدة، لكنّه لم يحظَ بإجابة واضحة. قالت له خادمة إنّها رأتهما يتّجهان نحو القاعة الرئيسيّة. دخلها بدوره ليجد نفسه أمام مشهد غريب: الوكيل في إحدى زوايا القاعة الرحبة، وحوله امرأتان تمنعانه من الحراك. كانتا تقومان بحركات وكأنّهما تداعبانه وتغيظانه، متحسّرتين بنبرة مزاح على افتقارهما إلى الحبّ والحنان، ومعبّرتين عن رغبتهما في احتضانه. لبث العجوز عاجزًا أمامهما. كان يرغي ويزبد مستاءً، فيما تمنعانه من الحراك. أسرع حسن نحوه وطرد المرأتين الشرّيرتين وهو يكيل لهما اللكمات والركلات، ثمّ سأل الوكيل بسرعة عن أخبار فتاته:

– أين الجارية الجديدة؟ أين الفتاة ذات العينين الخضرواين وجسد الحوريّة؟

بدأ الوكيل يلطم وجهه، وهو يروي لحسن ما حدث.

– حالما دخلنا الحريم، طوّقتنا خادمات ورد الورود، وأبعدنني عنها. لم يتسنّ لي الوقت لأرى في أيّ اتّجاه حملنها. بقيت هاتان المرأتان هنا لمنعي من اللحاق بشريكاتهما.

– ماذا؟ وهل تركتهنّ يفعلنَ ذلك؟ أيّها الغبيّ المسكين!

– صدّقني يا حسن. كنت عاجزًا حيالهنّ. إنها خطّة محكمة الإعداد والتنفيذ. لم يكن بوسعي فعل شيء... صحتُ طالبًا النجدة، لكنّني أظنّ أنّ ورد الورود الرهيبة قد فكّرت في كلّ شيء. رتّبت انشغال

كلّ الخصيان في أمكنة أخرى من القصر. عرفَت كيف تبقي خطّتها سرًّا، فلم يأتِ أحد لإطلاعي على نواياها السيّئة.

– حسنًا، لقد فكّرتْ في كلّ شيء إلّا فيّ. يجب أن نعثر على الفتاة في الحال. الله أعلم بما تستطيع أولئك الفظّات فعله بها.

إندفع حسن في الرواق مثل فيل غاضب، دافعًا كلّ مَن بقوا في تلك الأمكنة التي كانت خالية وهادئة على نحو غريب. إنعطف نحو رواق آخر، مظلم وضيّق، يقود إلى مساكن الخادمات. رأى امرأة بدينة جالسة أرضًا أمام باب صغير، فاتّجه حالًا إليها. حين اقترب، سمع أصواتًا مخنوقة صادرة من الغرفة التي كانت تحرسها.

مضى حسن إلى المرأة التي رفضت أن تتحرّك وبدأت تقاوم. فطلب من خادميه الخصيّين إبعادها بالقوّة، وبركلة واحدة، خلع الباب. ثمّ تجمّد في مكانه، عاجزًا عن استيعاب المشهد الدنيء الجاري على أرض الغرفة.

كانت الفتاة الجميلة تتخبّط بكلّ ما في عمرها الفتيّ من قوّة، لتقاوم أمَتين هائلتَي الحجم تجمّدان ذراعيها على سجّادة قذرة، وهي قطعة الأثاث الوحيدة في تلك الغرفة الصغيرة والقذرة أيضًا. كانت الفتاة تتلوّى، وتضمّ ساقيها محرِّكة ردفيها في كلّ اتّجاه. كان رداؤها ممزَّقا. وقد انحنت فوقها امرأتان أخريان دميمتان. كانت إحداهما قد نزعت سروال الفتاة، وتحاول أن تفتح ساقيها. كانت نواياها واضحة، فهي تستعدّ لفضّ بكارتها، بجسم أسطوانيّ كانت تحمله في يدها. لم يميّز حسن ما إذا كانت عصا مكنسة أم قطعة من الخشب المصقول. كانت المرأة الأخرى تلوّح بسكّين أمام عينَي الشابّة المذعورتين، وهي تقول لها بصوت يشبه الفحيح إنّها ستشوّه وجهها الجميل، وتفقأ عينيها الجميلتين، وتمزّق شفتيها الجميلتين الكرزيّتَي اللون.

سرعان ما أدرك حسن حقيقة ما يجري، فاستلّ خنجره، واندفع كثور هائج، يتبعه عبداه. إرتمى الثلاثة على المهاجمتين ونجحوا في إبعادهما، وإن بصعوبة. كانتا لا تقلّان وحشيّة عن سيّدتهما، وتخشيانها لدرجة أنّهما أرادتا تنفيذ المهمّة الموكلة إليهما بأيّ ثمن. حاولت حاملة السكّين غرزه في صدر الشابّة، لكنّ حسن أبعدها بركلة من قدمه وغرز خنجره في كتفها. فأفلتت السكّين زاعقة وراحت تتقلّب أرضًا ويدها على كتفها.

إنهال الخصيان الثلاثة الثائرون غضبًا، بالضرب المبرّح على الشرّيرات الأربع. وانقضّ حسن بصورة خاصّة على المرأة التي حاولت فتح ساقَي الأمة الشابّة. وصل وكيل بيت الحريم راكضًا، وأوقفه في اللحظة الأخيرة قبل أن يرتكب ما لا يمكن إصلاحه. ففضيحة بهذا الحجم في قصر الأمير ستثير الكثير من المتاعب.

تكوّمت ضحيّة أولئك المتوحّشات في زاوية من الغرفة، مرتجفة، والدموع تسيل على خدّيها، وراحت تتمتم بكلمات غير مفهومة. أدرك حسن أنّها في حال صدمة، فابتعد عن الوكيل وأسرع إليها. وضع يده برفق على كتفها ليُشعرها بالحماية ويطمئنها، وكلّمها بلطف، مؤكّدا لها أنّها نجت من الخطر، وأنّه سيهتمّ بها.

عند سماعها كلمات حسن ورؤية مهاجماتها أرضًا، استعادت هدوءها شيئًا فشيئًا. أخذ حسن يدها ليساعدها على النهوض، ولم يفلتها لتبقى مطمئنّة. أراد أن يقودها إلى خارج تلك الغرفة، وخارج ذلك المكان حيث كادت الوحشيّة البشريّة تُجهض مصيرها قبل أن يبدأ.

بوداعة، رافقت الشابّة الزمرّديّة العينين حسن، مرتجفة ومترنّحة، نحو الباب. وفجأةً توقّفت قبل أن

تجتاز العتبة. ثمّ التمعت عيناها، وكأنّها في حال انخطاف أو كأنّ شيطانًا قبض عليها. سحبت يدها من يد منقذها، واستدارت لتهاجم كاللبؤة النساء المطروحات أرضًا، لتوسعهنّ ركلًا بكلّ ما في الرعب والإذلال اللذين نالا منها من عنف. إنهالت ركلاتها على رؤوسهنّ وبطونهنّ وكلّ أنحاء أجسادهنّ، وهي تصرخ. كان الغضب والرغبة في الانتقام يمدّانها بقوّة لا يقف في وجهها رادع.

أرغِم حسن علي حملها بمساعدة أحد عبيده لإخراجها من الغرفة. راحت الفتاة المسكينة ترتجف غضبًا أكثر منه خوفًا، وتعالى صراخها حتّى لم يعد لحسن سوى هدف واحد: إخراجها بأسرع ما يمكن من ذلك الحريم العدائيّ والكريه ليحول دون وقوع فضيحة.

أسرعوا عائدين عبر الأروقة التي ظلّت وبرغم الجلبة خالية، على نحو يدعو للاستغراب. ركض الوكيل خلفهم ليضع حجابًا على الفتاة التي لا تزال نصف عارية قبل أن يخرجوا من المكان.

حين غادروا القصر، توقّفوا لاستعادة أنفاسهم تحت شمس الظهيرة. توّقفت الفتاة عن الصراخ، وجلست أرضًا منطوية على ذاتها. ثمّ مسحت دموعها. رفعت رأسها نحو نور الشمس مستسلمة لدفئها ومنافعها، فيما تسلّل إليها الشعور بأنّ الكابوس الرهيب قد انتهى، وبأنّها سالمة. حين استعادت قواها أخيرًا، نظرت إلى حسن وشكرته، ثمّ نهضت وقالت له إنّها مستعدّة للّحاق به. ودّعا الوكيل الذي أكّد لهما أنّ أحدًا في الحريم، لا هو ولا حتّى ورد الورود، لن ينبس ببنت شفة عمّا جرى.

***

أصغى الخليفة إلى رواية حسن، مطرق الرأس، وبدا متعبًا، واهنًا، وحزينًا. لقد كان رجلًا عجوزًا، يدرك أنّ أيّامه معدودة، وكانت فكرة تسلّم ابنه – بميوله إلى الانحراف – مقاليد الخلافة من بعده، تثير فيه أعمق الهواجس.

شعر بالخجل ممّا جرى في قصر ابنه، حتّى أنّه تجنّب نظرات خادمه، ثمّ قال:

– مسكينة تلك الفتاة. أنا حزين من أجلها... ويائس من مصير ابني.

– مولاي، أنا في غاية الأسى لأنّني حملت إليك أخبارًا كهذه، لكنّنا استخففنا بورد الورود. إنّها مستعدّة لتفعل أيّ شيء لتحافظ على موقعها. الخطأ خطأي. كان يجب أن أحذر، وأتّخذ احتياطات أكثر.

– تلك المرأة شرّيرة، إنّها شيطان. ربّما يجب اللجوء إلى وسائل أخرى للتخلّص منها.

– أثرها على الأمير أكبر ممّا كنّا نتخيّله. إنّها تدير حياته بكاملها، وترشده في كلّ خطوة. تحايلَت عليه ليوقّع رسالة ويختمها بعدما جعلته عاجزًا عن قراءة مضمونها، وذلك لكي تستدعي الأمَة الجديدة على عجل. وهذا الصباح، كان الأمير نائمًا في مخدعها في خلال تلك الحادثة المؤسفة. ولا شكّ عندي بأنّه لن يعرف أبدًا بما جرى.

– إذا كانت لتفعل به ما تشاء، أهي مَن ستحكم البلاد بعد موتي؟

– مُحال يا مولاي! حالما أجِد سيِّدا للفتاة الجميلة التي أنقَذتُها من مصير أسوأ من الموت، سأصبّ اهتمامي كلّه على تلك القضيّة. أُقسم بذلك أمام الله وأمامك.

لم يكن حسن بحاجة إلى أن يضيف شيئًا أمام أمير المؤمنين. كان يدرك ما عليه فعله ليعالج مسألة ورد الورود، وهي لن تكون المرّة الأولى التي يتخلّص فيها من مشكلة مع امرأة.

– ألاحظ أنّك تشعر بعطف كبير نحو الأمَة الجديدة يا حسن. أتخيّل أنّك لن ترضى بتركها في عهدة

عجائز حريمي؟

– أنت ثاقب البصيرة يا مولاي. صحيح، تلك الفتاة وجدت لنفسها مكانًا في قلبي، لكنّ هذا الأمر ليس ما يوجّهني. أنا أفكّر في مصلحتك قبل كلّ شيء. هذه الفتاة جميلة وموهوبة وذكيّة. وهي أيضًا قويّة ومفعمة بالحياة، ليتك رأيتها وهي تقاوم غريماتها. لو كانت أكثر وداعة لغُلبَت قبل أن نصل لإنقاذها. إنّها محاربة حقيقيّة، كما أرادت الانتقام بنفسها ممّن حاولنَ تعذيبها. حين وصلَت إلى هنا، لم يبدُ عليها أنّها مهزومة، بل على العكس. ينتظرها مستقبل الغزاة الفاتحين، يا مولاي. إنّها ثمينة وستكون هديّة رائعة لأمير رفيع النسب، أمير نريد إرضاءه لنكسب حظواته.

– أشعر بأنّك تفكّر في شخص ما.

– الصالح أيّوب، ابن الكامل، سلطان مصر الأيّوبيّ، سيمرّ ببغداد في طريقه إلى إمارته في حصن كيفا، كما تعلم. هو مَن أرسله الكامل للدفاع عن حدودنا ضدّ المغول الوثنيّين، والخوارزميّين المسلمين. سنكسب كثيرًا بأن نقدّم له هديّة قبل رحيله في مهمّته.

الواقع أنّ الكامل، سلطان مصر، وجد نفسه في العام 1232 أسير مؤامرات وصراعات مستمرّة في قلب عائلته. فقد نشبت حرب مفتوحة بين ابنه البكر، الصالح، وهو الوريث المفترض للعرش، وسوداء، محظيّته ووالدة العادل، أصغر أبناء السلطان. كانت سوداء مستعدّة لتفعل أيّ شيء، لترى ابنها يصبح سلطانًا على مصر. لم تنفكّ تحاول إقناع الكامل بأنّ ابنه البكر يتآمر عليه ويعدّ لانقلاب. وهكذا فإنّ الكامل العجوز، الذي كان يرغب في استتباب السلام في قصره، قد استفاد من استنجاد الخليفة به، ضدّ المغول الذين يجتاحون حدوده الشمالية، وضدّ جحافل الخوارزميّين وهم قبائل من المرتزقة، يهاجمون بلاد ما بين النهرين وسوريا سعيًا للقتال والنهب والسلب. فعيّن ابنه الصالح قائدًا للجيوش وأرسله إلى حصن كيفا، الإمارة الأبعد على حدود بلاد ما بين النهرين، وهي موقع استراتيجيّ منيع. وقد عهد الكامل إلى ابنه بتلك الإمارة، لتكون بمثابة منفى ذهبيّ بعيد عن أرض مصر. كما رافقه في جزء من الطريق، حيث احتلّ الاثنان عدّة مواقع محصّنة. لكنّه وقبل رحيله قد قام، وبتأثير من محظيّته سوداء، بتعيين ابنها اليافع العادل، وريثًا له.

بإيماءة من رأسه، أعطى الخليفة موافقته لحسن، وأضاف:

– أنت على حقّ يا حسن. إنّه الحلّ المثاليّ، لا سيّما أنّ الصالح سيرحل بالفتاة من هنا، ما يساعدنا على إخماد الفضيحة. يجب إعطاؤها جهازًا جميلًا بدلًا من الصندوق الذي تركته. لا يمكننا تقديمها هديّة إلى أمير بأهمّية الصالح بدون أن تكون لها أفخر الملابس.

وهكذا، في ذلك النهار الخارج عن المألوف، انتقلت الفتاة الجميلة ذات العينين الزمرّديّتين، الغزالة الممشوقة القامة والشُجاعة كأسد، مرّتين من يد إلى يد. خرجت من منزل تاجر رقيق، إلى حريم ابن منحرف سيرث لقب أمير المؤمنين، لينتهي بها المطاف هديّة موعودة لأمير مسلم كبير آخر، ومحارب متقشّف وصارم ذي مستقبل غير مضمون. بيد أنّ العاشقَين المستقبليين يتشاركان على الأقلّ قاسمًا واحدًا: كلاهما ضحيّة مؤامرات الحريم.

كان حسن يستعجل تحويل الإذلال الذي عانته الشابّة إلى انتصار. خرج من مجلس الخليفة وتوجّه إلى الحريم ليطلب إلى الفتاة الاستعداد للذهاب إلى سيّدها الجديد.

***

كان الصالح رجلًا طويل القامة، نحيلها، أسمر البشرة، بسيطًا في مظهره وفي أسلوب عيشه. لم يكن

وسيمًا حقّا، بل منقبض الملامح، قاسيًا وصموتًا. جلست المرأة الشابّة على كرسيّ واطئ في زاوية غرفة عاديّة وبسيطة المظهر مثله، وأخذت تتأمّله، في انتظار أن ينتهي من كتابة رسائله، ويوليها اهتمامه. حين أُدخِلت إليه في تلك الغرفة، نظر إليها طويلًا، ثمّ طلب منها باحترام انتظاره حتى ينتهي من عمله.

كان حسن قد رافق المرأة الشابّة إلى القصر حيث يقيم الأمير. نحو أواخر بعد الظهر، طلب مقابلة الصالح لتقديمها إليه، الذي قبل بلياقة هديّة الخليفة تلك، وطلب من حسن أن يشكر لأمير المؤمنين سخاءه.

غادر حسن القصر هادىء البال وراضيًا عن إنجاز مهمّته. بدا الصالح سعيدًا جدًّا بالهديّة التي تلقّاها. فقد لاحظ حسن كيف التمعت عيناه السوداوان دهشةً حين اكتشف تلك الفتاة ذات العينين الزمرّديّتين. كذلك سمع الأمير يطلب إلى خدّامه أن يذهبوا بها إلى الحريم حتّى تستريح ويُعدّوها للمساء. من الواضح أنّه كان يستعجل قضاء الليل معها.

راحت الفتاة تتأمّل في الصالح، وتشعر بأنّ نوعًا من الحنان يولد في داخلها نحوه، ورغبة في أن تضمّه بين ذراعيها لتعزيته، ولتعيد إليه الرغبة في الابتسام. كانت تتبيّن خلف مظهره القاسي والجديّ، أسى دفينًا. لقد أيقظت نظرات الأمير القاتمة والشرسة والكئيبة انفعالات الفتاة، واستفزّت أنوثتها كما ألهبت فضولها.

حتّى ولو أنّ حسن لم يقل لها الكثير عن الرجل الذي سيصبح سيّدها، سوى أنّه صاحب مكانة مرموقة، وقويّ وعادل، فقد أوحى لها الأمير بالاحترام، بدون أن يثير فيها الخشية، لأنّها استشعرت آنذاك السطوة التي ستكون لها عليه.

خيرًا فعل حسن بإحضار الفتاة إلى هنا بهذه السرعة. فهي لم تكن تشعر بالأمان في قصر الخليفة، بل كانت تجفل كلّما اقتربت منها نساء الحريم أو حاولنَ لمسها. كما خشيت أن تُترك وتُنسى، وسط أولئك العجائز، بهدف كتمان تلك الفضيحة. فكرة مُريعة كانت أن تغادر ذراعَي نجم الصباح المحبّتين لترى شبابها يذوي في غياهب النسيان. لذا اطمأنّت إلى رؤية حياة جديدة تُرسم لها مع هذا الأمير، بعيدًا عن بغداد. ووعدت نفسها ببذل قصارى جهدها لتستجيب لحاجاته، وتفوز بحظوته، وإذا كان الأمر ممكنًا، بقلبه.

بدت سعيدة حين لاحظت عدد النساء الضئيل في ذلك الحريم، ما خلا الخادمات القليلات اللواتي ساعدنَها على الاستعداد للقاء الأمير. لا شكّ بأنّ نساء أخريات سيحضرنَ إلى حصن كيفا. أمّا في الوقت الراهن فالأمير لها وحدها.

في خلال حمّامها الثاني في ذلك اليوم الطويل والاستثنائيّ، استسلمت لعناية خادمات الحريم اللواتي غسلنَها بالصابون وصببنَ عليها الماء وفركنَ جسدها. كان الماء يسيل على جسدها الموفور صحّة وقوّة، ماحيًا العرق وروائح الرعب الذي عانته على أيدي خادمات ورد الورود. لقد وصل حسن في الوقت المناسب: نجا وجهها وجسدها، غير أنّ ذلك الاعتداء سيطبع ذهنها حتّى نهاية أيّامها. لكنّها صمّمت وأكثر من أيّ وقت مضى على المضيّ قدمًا، والصمود في حياتها الجديدة، وتركت مشهد الرعب الذي عاشته ينصرف مع المياه الوسخة. لقد آثرت التركيز على مستقبلها، وعلى هذا الأمير الذي ينتظرها. غسلت الخادمات شعرها ودلّكن جسدها بمرهم عطر الياسمين. كان شعر جسدها قد نُتف صباح هذا اليوم في حمّامها مع نجم الصباح. لم يبقَ لها سوى أن ترتدي أجمل ملابسها، التي زوّدها بها منزل الخليفة بدلًا عن الملابس التي ضاعت أو مزّقتها خادمات ورد الورود. وقد وجد لها حسن في خزائن الحريم جهازًا صغيرًا، لكن فاخرًا.

إستعجل الصالح إنهاء كتابة رسائله إلى القادة الخوارزميّين ليستطيع التركيز أخيرًا على المرأة الجميلة الجالسة في زاوية غرفته. ولم يعد في باله غير فكرة واحدة، وهي أن يضجعها على فراشه بأسرع ما يكون. كانت عيناها الرائعتان وشفتاها المنشرحتان وقامتها الشبيهة بالغزال تزيد من حدّة رغبته في امتلاكها. برغم طبعه الصموت والصارم، وعدم اهتمامه بالخمر، كان المحارب الشابّ ذو الأعوام التسعة والعشرين يهوى ملذّات الجسد والنساء.

إنتهى من كتابة رسائله ووقّعها وختمها، ثمّ نادى خادمه لتسليمها إلى الحرّاس الذين سينقلونها توًّا إلى المُرسَل إليهم. ثمّ التفت بسرعة نحو هدف رغباته.

كانت زمرّديّة العينين قد طلبت من خدم المنزل عودًا، أخذته معها إلى الغرفة. حين رأت الأمير يلتفت إليها، نهضت، وأخذت العود ثمّ ركعت أمامه. لم يتحرّك، فأخذت يده ولثمتها. في اللحظة عينها، شعر الشابّان بخدر غريب يسري فيهما. لم يسبق قطّ للصالح أن عرف إحساسًا كهذا مع امرأة منذ اللقاء الأوّل. تراجعت الشابّة، مدهوشة، لكنّها سرعان ما استعادت هدوءها. جلست على وسادة وبدون مقدّمات بدأت العزف على آلتها وراحت تغنّي. بقي الأمير فاغر الفم أمام تلك البادرة، وأمام جرأة هذه الأمَة المذهلة. كاد أن يقاطعها، لكنّه عدل عن ذلك، مستسلمًا لسحر الموسيقى وكلمات قصيدة حبّ وشغف.

مالت الفتاة التي اندمجت في لعبتها على العود بحنان، وكأنّه طفلها أو حبيبًا طال انتظاره. بدا الأمير مسحورًا بما رآه، وبالشفتين اللذيذتين المنشرحتين كثمرة من ثمار الجنّة، واللتين راحتا تنفتحان وتنغلقان على عبارات الحبّ والرغبة، وتأخذان أشكالًا مغرية شرّ إغراء.

راح السحر يفعل فعله، فارتسمت ابتسامة ارتياح خفيفة على شفتَي الصالح وبلغ بريقها عينيه. كانت الموسيقى مُسكرة، كما عطر الفتاة. حملقت عينا الأمير في عنق الساحرة المكشوف بطريقة مدروسة، ونهديها الملتصقين بالعود الذي كانت تضمّه إليها. تصاعدت رغبته إلى أقصى حدود المستحيل، وشعر بعذاب لذيذ. لكنّه لم يستعجل، بل راح يتذوّق متعة الإصغاء إليها، ومشاهدتها تتلاعب بأوتار العود، مؤجّلًا تلك اللحظة التي لا يمكنها أن تكون إلّا فردوسيّة.

في النهاية نهض الصالح، واقترب ليجلس على السجّادة بجانب الحوريّة الجميلة. فيما واصلت هي العزف خافضة العينين، راح يداعب وجهها. تقدّم إصبعه برفق على الخطوط الدقيقة والنقيّة، جبهتها، محجريها، ثمّ استقرّ على الشفتين المكتنزتين، وأخذ يرسمهما مرّة تلو المرّة. كان الصالح مأخوذًا بالشهوة المتأجّجة فيهما. أخيرًا نزل إصبعه إلى الذقن الصغيرة ورفع الوجه الساحر ذا شكل القلب. إختارت الشابّة تلك اللحظة لتفتح عينيها الرائعتين، واسعتين، فتدعو الصالح إلى أن يغرق، ويتوه إلى الأبد في أعماقهما. مال نحوها واقترب بشفتيه فلامس الأذن الصغيرة المرسومة بدقّة، وهمس:

– أنت جميلة جدًّا، وتغنّين كطائر من طيور الجنّة. هل أنت من البشر؟ أم أنّك ملاك أتى من السماء ليغزو قلبي؟

كان صوته خفيضًا وأجشّ، ومليئًا بالرغبة التي فقد القدرة على كبتها. أجابته بهدوء وهي تضع العود جانبًا:

– لستُ سوى جارية يا مولاي الأمير، جاريتك التي لا تتمنّى إلّا أمرًا واحدًا، وهو أن ترضي رغباتك، وتغمرك بأفضل ما لديها.

لم ينتظر الصالح ثانية أخرى، وبحركة لا حنان فيها ولكنّها خلت من الوحشيّة، غاص بيديه في شعرها الكستنائيّ الكثيف، وبعثر تسريحته، وراح يتشمّم عطره. إستسلمت له وادعةً خاضعة، مدركةً

أنّها دفعته إلى حيث فقد السيطرة على ذاته.

لكنّها وجدت نفسها هي أيضًا، وقد أخذتها دوّامة عطر الرغبة والشغف التي ثارت من حولهما. مدّت إليه شفتيها المنفرجتين كأنّهما ثمرة الجنّة الممنوعة، ليأخذهما الصالح، جامعًا إلى الأبد جسديهما وقدريهما.

حملها إلى السرير بدون أن يفلت شفتيها. بالنسبة إليه، لم يعد العالم موجودًا، ولم يبقَ من حقيقة سوى جسد تلك المخلوقة الرائعة التي تتفتّح براعمها بين يديه، مفعمةً دفئًا وحفاوة. حين اكتشف بكارتها، بلغت لذّته أضعافًا. ألّا يكون أيّ رجل قد ذاق تلك الثمرة الشهيّة قبله، جعلها أغلى قيمة في عينيه. راح يتذوّق أطايب جسدها المقدَّمة له بحريّة تامّة، بمقدار ما يستطيعه محارب شابّ موفور الصحّة. كلّما ظنّ بأنّ قواه خارت، استنبط قوى جديدة، بفضل اللمسة الخبيرة والحركة اللذيذة للجسد الغضّ والطري الملتصق بشغف بجسده. كانت تلك الفتاة تمارس الحبّ بذكاء ولا تخشى أن تأخذ المبادرة. كان هذا الخليط الغريب من العذريّة والألفة مع الملذّات الجسديّة يثيره ويشدّه إليها.

أقبل عليها في المرّة الأولى على عجل، ولكن بدون عنف، وحتّى بشيء من الحنان، وفوجئ هو نفسه بذلك. فلئن لم يكن رجلًا فظًّا متوحِّشا، إلّا أنّه لم يشعر نحو الإماء اللواتي يقاسمنه سريره بأيّ احترام خاصّ أو تعلّق. كان يستدعيهنّ لتلبية رغباته، ثمّ يصرفهنّ، وأحيانًا بدون أن يعرف مع مَن قضى ليلته.

لكنّ تلك الليلة كانت مختلفة. فقد انبعث صبا طريّ العود وجمال نقيّ وسحر من تلك الفتاة الزمرّدية العينين، اللتين تلتمعان فضولًا وذكاء وتفتنان الأمير إلى أقصى حدّ. كانت تلك المرأة تثير حماسته، وأراد أن يقضي الوقت معها.

في خلال الليل، ازدادت هي جرأة فيما ازداد هو ثقة. كان كلّ منهما ينشرح بين ذراعَي الآخر، ويخامره الشكّ في أنّ معجزة تحدث بينهما، وأنّ شعورًا استثنائيًّا يحاكي الحبّ، في طور الولادة. لم يسبق للصالح أن شعر بمثل هذا الارتياح قطّ، وقد أراد أن يقدّم أفضل ما في نفسه لتلك الشابّة المؤثّرة، التي بدت بريئة وماكرة، محتشمة ومتحرّرة من كلّ كبت، في آنٍ واحد.

كان إيقاع جسديهما يتغيّر في كلّ مرّة يمارسان فيها الحبّ، ببطء أوّلًا، ليتلذّذا بكلّ حركة من جسديهما المتناغمين، ومن ثمّ في وتيرة محمومة، وحشيّة، تلامس حدود العنف. فاجأته ببادرة جميلة، كما علّمتها نجم الصباح. جعلها تأثير مداعباتها في الصالح تشعر بسرور غامر. راح لسانها الورديّ الصغير وأسنانها الجميلة تعذّبه بكثير من الخيال وتثير جنونه، حتى تدفّق منه فيض لذّة انبثق توًّا من الجنّة، وتركه لاهثًا مفعمًا بالامتنان.

كانت الخيمياء بين جسديهما محتّمة وسحريّة وفعّالة. ولم يقلّ شعور ذات العينين الزمرّديّتين باللذّة عن شعور أميرها في لعبة الكرّ والفرّ هذه، كما لم تتردّد في أن تخبره بذلك، بصدق وبدون أيّ ادّعاء. للمرّة الأولى، وجد نفسه مسرورًا بإسعاد امرأة. فقد شعر بأنّها عرفت بين ذراعيه لذّة حقيقية، ولم تتظاهر بها بهدف خداعه.

على رغم الإنهاك، لم يذق العاشقان طعم النوم، ربّما خشية أن تتبدّد الملذّات التي أراداها أن تدوم إلى الأبد. بزغ الفجر عليهما بدون أن يغمض لهما جفن، وهما يتصبّبان عرقًا، وكلّ منهما بين ذراعي الآخر، في حال من تعب النشوة. كانت روحاهما اللتان تناغمتا مثلما تناغم جسداهما، تتوقان إلى توكيد شراكتهما الوليدة، ولكن المتينة. فالمرأة ذات العينين الزمرّديتين عثرت على الرجل المقدّر لها، والأمير الصموت والهارب الغامض يضمّ بين ذراعيه امرأة تضاهيه شأنًا، إمرأة يجب أن تبقى بجانبه إلى الأبد.

في تلك الليلة، تهاوت دفاعاته الواحد تلو الآخر، على رغم صلابتها. دفاعات بناها طوال عمر أمضاه في تجنّب شتّى أنواع الأفخاخ، والتي غالبًا ما نصبتها له نساء، في كنف أسرته. شعر الأمير بالارتياح والسعادة، وفوجئ بشعور غامر يساوره بالرغبة في أن يروي لعشيقته قصّة حياته، وهمومه وطموحاته. للمرّة الأولى، أحسّ الأمير بالأمان.

ثمّة لقاءات يشاء الله سبحانه وتعالى، بحكمته ورحمته الواسعتين، أن تحدث للتخفيف عن الأرواح المعذّبة... كانت المخلوقة الجميلة تنظر إليه بعينيها الخضراوين الواسعتين، فأسرّ إليها الأمير كيف تحوَّل من وريث للعرش، بصفته الابن البكر للكامل، إلى شخص شبه منفيّ، وحاكم لحصن كيفا. روى لها كيف جعلته الطموحات والمكائد التي نسجتها له سوداء، محظية أبيه، ووالدة أخيه الأصغر، يفقد حظوة أبيه الحبيب.

إتّهمته سوداء تلك بالتآمر على أبيه. في خلال حملة العراق، بعيدًا عن مصر، كان الكامل قد عهد بإدارة شؤون المملكة إلى ابنه البكر، الصالح. لم يرُق هذا الأمر للمحظيّة، صاحبة الطموحات. فبعثت للكامل برسالة يفيض منها سمّ الوشاية، زعمت فيها أنّ الصالح وبعض القادة يدبّرون انقلابًا ضدّ السلطان. كانت ذريعتها أنّ الصالح يشتري أعدادًا كبيرة من العبيد لإرسالهم إلى المدارس الحربيّة التابعة للمماليك، والذين باتوا جيشًا خاصًّا حقيقيًّا للصالح. لكنّ ذلك لم يكن مستغربًا بالنسبة إلى أمير أيوبيّ، فضلًا عن أنّ والده كان على علم تامّ بمختلف نشاطاته.

كذلك اتّهمته سوداء بهدر المال العامّ وباستغلال سلطته كوصيّ على العرش لسلب أموال كبار التجّار والأعيان المصريّين. كان الكامل، الميّال بطبيعته إلى سوداء، مستعدًّا لتصديق افتراءاتها، فعاجل بالعودة من حملته، وعاقب القادة الذين وجّهت إليهم زوجته التهم. ثمّ استغلّ أوّل فرصة أتيحت له لإبعاد ابنه البكر عن مصر. وهكذا عُيّن الصالح حاكمًا على حصن كيفا، قلعة في غاية الأهميّة عند تخوم بلاد المسلمين.

كذلك باح الصالح للشابّة بما شعر به من ألم وظلم، حين قام والده الذي يكنّ له كلّ إعجاب، بطرده تقريبًا من بلاده، هو الذي لم يتآمر ضدّه قطّ. كان الشابّ ينظر إلى أبيه بإجلال كبير، ويرى فيه سلطانًا كامل الصفات، والوريث الذي تليق به قيم صلاح الدين الكبير. فكانت قمّة الظلم بالنسبة إلى الصالح أن يعيّن أبوه لوراثة العرش أخاه الأصغر، العادل، ابن سوداء، وهو مراهق مدلّل وتافه.

كان صوته مشحونًا بالحزن والغضب. لكنّ الشابّة كانت على قدر ثقة الصالح. كانت تتمتّع بالحكمة الكافية لئلّا تقاطعه بكلمات تعزية فارغة، وبل تركته يسرّ لها بمكنونات قلبه بكلّ حريّة. لم تتدخّل إلّا نادرًا لتطرح أسئلة أو لتدلي بتعليقات أتت كلّها في محلّها، وأظهرت قدرة على التحليل كما وذكاءً حادًّا، سحرا الأمير. كذلك الأمر، امتنعت عن إبداء أيّة شفقة قد تجرح كبرياء الأمير. شأنها شأنه، كانت تدرك أنّه لم يخسر شيئًا، وقالت له ذلك: الطريق إلى عرش مصر سيكون طويلًا وشاقًّا، لكنّ كلّ شيء يبقى ممكنًا.

كتمت عنه رواية الحادثة السيئة التي تعرّضت لها في قصر ابن الخليفة. فقد قطعت وعدًا بذلك لحسن، الذي أقسم لها بأنّه سينتقم لها عمّا قريب من ورد الورود الشرّيرة.

ها إنّ ذلك النهار المصنوع من الأحلام والكوابيس قد بلغ نهايته. كان قد بدأ بعاطفة امرأة مُحِبّة وصادقة، وتواصل بسيل من الكراهية والوحشيّة صبّته عليها امرأة قاسية وطموحة، لينتهي بمشاعر اللذّة والحبّ مع أمير جعل منها امرأة حقيقيّة، أمير لم يُخفِ عنها الشغف الذي أشعلته فيه، أمير شرّع لها أبواب قلبه السريّة. أقسمت الفتاة في سرّها أن تبقى دائمًا على قدر هذه الفرصة غير المنتظرة وأن تبذل كلّ ما بوسعها لتستحقّ مكانها إلى جانب هذا الرجل الذي سيصير سلطانًا.

كذلك أقسمَت على أن تزيح من طريقها كلّ غريمة، لتتربّع وحدها على عرش قلب سيّدها. بالطبع لن تلجأ أبدًا إلى أساليب ورد الورود، لكنّها ولمّا أدركت مدى السلطة التي تتمتّع بها المحظيّات، فهمت قواعد اللعبة. حتّى الخليفة الواسع القدرة، وأمير المؤمنين، لا يستطيع لجم نفوذ محظيّة ابنه. كانت رواية الصالح مع سوداء مثالًا آخر على ذلك: تلك المحظيّة الشابّة والجميلة كانت صاحبة سلطة وسطوة على رجل حكيم وعاقل كالسلطان الكامل.

قرّرت أنّ حياتها وقدرها سيبدآن من تلك الليلة. لم يكن ماضيها الفتيّ كله سوى درب بسيط يوصلها إلى سرير الصالح. وأمّا الاعتداء الذي تعرّضت له فقد قادها إلى هذا الأمير ذي المستقبل الواعد. بعون الله سبحانه وتعالى، استطاعت تجنّب الأسوأ، وها أنّ احتمالات جديدة تنفتح أمامها. لقد سمح لها شبابها وروحها المقاتلة وكبرياؤها بأن تستبعدَ تلك الحادثة وتخفيها تحت بساط أحلامها. لقد استخلصت منها وحسب دروسًا ستتذكّرها ما بقيت حيّة. كانت شخصيّتها القويّة والمتفائلة من أفضل مؤهِّلاتها.

توقّف الأمير عن سرد أسراره، ومرّت برهة من صمت مُرتبك. كانت الشابّة من الذكاء بأن فهمت أنّ ذلك ناجم عن الخجل، فالرجل قد تعرّى بسرعة، جسدًا وروحًا. نهضت وذهبت لتحضر ماء في كأس من الزجاج المنفوخ، مزخرفة بكتابات مذهّبة. إنتظرته ليشرب، ثمّ أعادت الكأس، ومضت إلى لوحة شطرنج ثمينة مصنوعة من العاج وخشب الإبنوس، سبق لها أن رأتها خلال المساء على طاولة خفيضة. كانت تعشق تلك اللعبة وتبرع فيها حين كانت تتشاركها ومعلّمها نور الدين.

جثت على ركبتيها، وهي لا تزال عارية. كان جسدها بلون قطع الشطرنج العاجيّة. بصوت رقيق وحازم، دعت الأمير إلى اللعب. جلس الصالح من الجهة المقابلة، وقد لبس قميصًا يستر به عريه. بدأت اللعبة. كان الأمير مسرورًا، فهو يهوى لعبة التخطيط الإستراتيجيّ تلك، وقد فوجئ بتمكّن الشابّة منها. فازت هي، وهو ما لم يكن بالأمر السهل. فالأمير مخطِّط بارع، لكنّها كانت تفوقه براعةً. قَبِل هزيمته بلياقة، وقد زاد إعجابه بتلك المرأة غير العاديّة، لا سيّما أنّها لم تخشَ الفوز على سيّدها.

إلتفتَ إلى النافذة، وقد بدأت أولى بوادر شمس الصباح تتوغّل عبرها. نظر من جديد إلى المرأة الجالسة قبالته. بدت له رائعة الجمال، لا تشوب كمالها شائبة، من الخارج أو من الداخل. كانت كتحفة فنيّة أبدعها من أنفَس الحجارة، أعظم النحّاتين على الإطلاق، وهو الله سبحانه وتعالى.

نهض الأمير ومدّ لها يده ليساعدها على الوقوف. ثمّ مضى بها إلى النافذة ليتأمّل في جمالها على نحو أفضل، في نور الصباح المنساب. أحاط وجهها بيديه، وغاصت نظرته السوداء في عينيها الزمرّديّتين، ولثم بقبلة رقيقة شفتيها الياقوتيّتين، اللتين لا تزالان حمراوين ومنتفختين من شدّة ما نالتا من قبلات طوال الليل.

– أنتِ درّة نادرة، وحجر كريم لا مثيل له على هذه الأرض، همس لها برقّة.

فضحت عيناه ما كان يشعر به من حُبّ في تلك اللحظة. لم يكن الأمير شاعرًا، ومع ذلك بدا وكأنّه تحت تأثير إلهام ووحي.

– لا، أنتِ أكثر من درّة نادرة. أكثر بكثير. تبدين لي أقرب إلى شجرة من الدرر، كالأشجار التي تزهو في الجنّة. والمزايا التي تتمتّعين بها تشبه الماسّ، والزمرّد، واللؤلؤ، والياقوت... نفيسة، لا مثيل لها. من الآن فصاعدًا، سيصبح اسمك شجرة الدرّ، فما من اسم آخر يصفك ويفيك حقّك على نحو أفضل.

وهكذا نالت المرأة ذات العينين الزمرّديّتين الاسم الذي عُرفت به طوال حياتها، وللأبد: «شجرة الدرّ».

[1] كان المستعصم آخر الخلفاء العبّاسيّين، والذي خسر بغداد أمام غزو المغول في العام 1258.

[2] الخليفة العبّاسيّ الثالث، وقد حكم في الفترة الممتدّة بين العامين 775 و785.

[3] زخرفة معماريّة على هيئة أقراص العسل.

الصالح أيّوب 1238-1240
الظفر بالعرش

إستغرق خبر وفاة السلطان الكامل بعض الوقت للوصول إلى حصن كيفا، حيث كان الصالح وشجرة الدرّ يقضيان أيَّاما سعيدة... أيَّاما وليالي استغلّتها ذات العينين الزمرّديّتين لتمكين سيطرتها على الأمير، وإبعاد أيّة غريمة محتملة، قديمة كانت أم جديدة.

كانت شجرة الدرّ على قدر الاسم الاستثنائيّ الذي أطلقه عليها الصالح في ليلة الحبّ الأولى. تميّزت كلؤلؤة نادرة، وعرفت كيف تفرض نفسها، لتصبح المرأة المعشوقة، والزوجة الشرعيّة للصالح بعد ولادة طفل ذكر، وقد دعاه والداه «الخليل».

كانت طموحات الصالح تقضّ مضجعه، ويحترق بنيران رغبته الجامحة في استعادة حقّه بعرش سلطنة مصر. ولمّا كان يرى نفسه ضحيّة ظلم كبير، استبدّ به هاجس احتلال أراضٍ جديدة، وزيادة عدد مماليكه، وأموال خزينته، بهدف واحد وهو استعادة درب القاهرة من جديد، في الوقت المناسب.

هكذا، وجدت شجرة الدرّ نفسها شريكة حياة أمير حازم ومفعم بالطاقة، على الرغم من نفيه إلى إمارة تقع عند التخوم الشماليّة لبلاد المسلمين، وهي تخوم خطرة تواجه باستمرار تهديدات قبائل المغول والخوارزميّين. للتخفيف من حدّة تلك الضغوط المتواصلة، سعى الصالح للوصول إلى اتّفاق مع الخوارزميّين، والذين كانوا، وعلى خلاف المغول الوثنيّين، قد اعتنقوا الإسلام.

لم توفّر شجرة الدرّ فرصة تثبت فيها للصالح قدراتها، رغبةً منها في أن تصبح أكثر بكثير من مجرّد محظّيته. كما دعمت بقوّة قراره التفاوض مع الخوارزميّين، غير أنّها نصحته باستئذان أبيه قبل الشروع في أيّ مفاوضة. إضافة إلى ذلك، وبهدف ضمان مساندة المرتزقة، اقترحت على الصالح تزويج إحدى شقيقاته بزعيم الخوارزميّين، بركات خان، وذلك لتعزيز الروابط الاستراتيجيّة بروابط المصاهرة. لم يُبدِ الكامل أيّ اعتراض، وأقام شقيق الأميرة الأيوبيّة احتفالًا فخمًا على شرف زواجها ببركات خان.

ومع ذلك، حافظ الصالح وشجرة الدرّ على صفاء بصيرتهما، ولم تساورهما أيّة أوهام بشأن الخوارزميّين. كانا يدركان أنّه لا يمكن الاعتماد طويلًا على ولائهم. فأولئك المرتزقة لا يحلمون إلّا بالأسلاب والمغانم، ويتبعون مَن يعدهم بثروات أكبر. حتّى أنّ بوسعهم وهم في قلب المعركة، أن ينقلبوا على حلفائهم وينضمّوا إلى أعداء الأمس، مقابل وعود بمكافآت أجزى. لكنّ الزوجين كانا يرجوان من ذلك الزواج الاستراتيجيّ أن يقلب كفّة الميزان إلى مصلحتهما، يوم تكون قوّة الخوارزميّين ضروريّة لمواجه أخصامهما الكثيرين.

وهكذا انتقل الخوارزميّون من خدمة السلطان السلجوقيّ كَيْخَسرو إلى خدمة الصالح، معزّزين بفعالية القوى العسكريّة الموضوعة بتصرّفه، ممّا سمح له بتوسيع أراضيه. فامتلك في تلك الفترة، إضافة إلى حصن كيفا، الرها وحرّان وسنجار ونُصَيبين. بموازاة ذلك، واصل الأمير شراء المماليك لتدعيم حرسه الخاصّ. كانت تلك عادة مألوفة آنذاك لدى الأمراء وكبار الأعيان، غير أنّ الصالح زاولها لدرجة أنّه بات بسرعة، وبفضل ذكائه الاستراتيجيّ وطاقته، أميرًا كبيرًا يُحسب له حساب في بلاد ما بين النهرين.

لكنّ الوضع لن يلبث أن يتغيّر وعلى نحو مأساويّ، مع ورود خبر وفاة الكامل. فالرجل العظيم

الشهير بحكمته وشجاعته السياسيّة، قد أسلم الروح في بداية ربيع العام 1238 في دمشق. سرعان ما أُعلن عن تنصيب العادل سلطانًا، وهو أصغر أبنائه، من سوداء المحرِّضة على إبعاد الصالح إلى حصن كيفا. كان ذلك مخالفًا لكلّ ما يتمتّع به أخوه الأكبر الصالح من حقوق.

تلقّى هذا الأخير خبر وفاة أبيه فيما كان يضرب حصارًا على الرقّة، وهي مدينة تابعة لإمارة حمص. فهمت شجرة الدرّ، التي كانت ترافقه حيثما يذهب، سبب استعجاله في فكّ الحصار للتوجّه إلى القاهرة، بدون أن تشاطره تلك الرغبة. كاد ذلك القرار المتهوّر أن يكلّفهما ثمنًا باهظًا، لكنّه سمح لهما أيضًا بأن يذوقا خبث حلفائهما الخوارزميّين. فهؤلاء المرتزقة، وإذ حُرموا غنيمتهم المنشودة، انقلبوا ساخطين ضدّ الأمير وأرادوا أسره، ما اضطرّ الصالح للهروب وزوجته إلى سنجار، تاركًا خلفه كنزه وأملاكه.

في سنجار، كانت في انتظارهما مغامرات جديدة ومخاطر أخرى. فالسلطان السلجوقيّ، الذي كان يكره الصالح لأنّه حرمه دعم الخوارزميّين، كان يستعدّ للسير إلى سنجار، حين بلغه أنّ لؤلؤ، أتابك الموصل في بلاد ما بين النهرين، قد سبقه. كان لؤلؤ الشهير، والذي أُطلق عليه هذا الاسم لولعه اللامتناهي بالبذخ والترف، يحتقر الصالح، وقد أقسم على القضاء عليه، فضرب حصارًا على سنجار، وعلى الأمير وزوجته اللذين لجآ إليها.

كان الخطر كبيرًا. فالصالح بعيد عن حصن كيفا، وقد حرم من مساندة مماليكه وجيشه، وتخلّى عنه الخوارزميّون الذين لا يعرفون لا الدين ولا الخلق، فبات تحت رحمة لؤلؤ. راح هذا الأخير يعلن على الملأ أنّه سيسوق الصالح إلى بغداد في قفص حديديّ. فشعر البعض بأنّ نهاية الصالح باتت وشيكة.

لكنّ شجرة الدرّ التي لا تعترف بالهزيمة أبدًا، هبّت لنجدته. وحدها امرأة من طينتها كانت قادرة على التفكير في خدعة كتلك.

وقع اختيارهما على قاضي سنجار لتنفيذ الخطّة. لم يأتِ هذا الخيار من قبيل الصدفة، فالقاضي كان رجلًا عالمًا ومُخلصًا ويحظى بالاحترام الواسع. قبل كلّ شيء، كانت سنّه لا تزال تسمح له بتنفيذ مهمّته، لأنّ توفير فرص نجاح المهمّة كان يحتاج إلى مهارة فكريّة وجسديّة.

إستدعى الصالح القاضي إلى القصر الذي اتّخذه مقرًّا له. كانت شجرة الدرّ في إحدى زوايا الديوان، فشرحت خطّتها بصوت هادئ وصافٍ ورقيق، بدءًا بتعداد مزايا القاضي لشرح أسباب اختياره:

– أميرُك بحاجة إليك. نحتاج إلى رجل يملك شجاعتك وإخلاصك ومزايا الخطابة العالية التي تتحلّى بها، وخصوصًا براعتك في فنّ التفاوض.

أحسّ القاضي بالضيق، فهو لم يعتَد أن تخاطبه امرأة بتلك الطريقة، إمرأة تشارك زوجها السلطة علانيّة. فآثر لمرّة واحدة التخلّي عن ألمعيّته وتمتم:

– أنا خادمكما. سأفعل كلّ تأمران بفعله، جاهدًا لإرضائكما.

– هل تملك الشجاعة للنزول من أعلى الأسوار ليلًا واجتياز خطوط العدوّ؟ سأله الصالح. أريد إيصال رسالة إلى قائد الخوارزميّين، بركات خان، زوج شقيقتي. لا يمكنني أن أرسل جنديًّا جاهلًا. أنا بحاجة إلى رجل ثقة، يملك ما تملكه من قدرات تفاوض، لإقناع الخوارزميّين بمساعدتنا.

بدت الحيرة على وجه القاضي، فقد كان يعلم بأنّ الصالح هرب إلى سنجار من أمام الخوارزميّين الحانقين على الأمير الذي حرمهم من غنيمتهم، حين تخلّى قبل الأوان عن حصار الرقّة.

أدركت شجرة الدرّ حيرة الرجل العالي الشأن. فشرعت في شرح الخطّة له، وبادرت بأعصاب

هادئة وبشيء من الفكاهة:

– بما أنّهم كانوا في أثرنا، فهم غير بعيدين بدون شكّ. يمكنك الوصول إلى مضاربهم بسهولة، وهكذا يأتون إلى نجدتنا بسرعة أكبر.

ثمّ أوضحت له الوضع، وأوعزت بتعليماتها إليه لمفاوضة بركات خان.

كانت الخطّة التي وضعتها شجرة الدرّ في غاية البساطة. فالأمير وزوجته، واللذان لم يكونا يهدفان آنذاك إلّا إلى عرش مصر، قادران على التضحية ببعض المدن لمواصلة السير إلى القاهرة. أمّا الخوارزميّون الذين يقتصر همّهم الحقيقيّ على الغنائم الممكنة، فسيقبلون بالتحالف مع الصالح مرّة جديدة، إذا لاقى الثمن مستوى أطماعهم. أمّا القاضي فكان مخوّلًا أن يقدّم لهم مدن سنجار والرها وحرّان، وبالطبع كان عليه تذكير بركات خان بأنّه صهر الصالح.

– عليك أن تقصّ شعرك وتحلق شعر ذقنك، لئلّا يتعرّف إليك رجال لؤلؤ. إذهب بسرعة للاستعداد، لأنّك ستخرج هذا المساء مع هبوط الليل. بمشيئة الله وعونه، سوف تغشى أبصار عدوّنا في خلال مرورك، وتنجح بمهمّتك. نمنحك ثقتنا الكاملة، ونصلّي لنجاحك.

لم يخيّب قاضي سنجار أملهما، بل على العكس، فالخدعة التي تخيّلتها شجرة الدر سارت وكأنّ الله سهر على نجاحها. غاب القاضي عن الأنظار، ثمّ عاد ومعه القوّات اللازمة لإنقاذهما، بعدما وافق الخوارزميّون على شروط الصفقة. فهزموا جيش أتابك الموصل بدون عناء، وأنقذوا الأمير وزوجته من الفخّ القاتل. ثمّ ساروا توًّا بقيادة الصالح لنجدة ابنه البكر، طوران شاه، الذي كان يدافع عن مدينة ديار بكر في وجه جيش السلاجقة.

بات على الصالح الذي نجا بفضل شجاعة زوجته الغالية وذكائها، أن يُظهر للكواسر الذين ظنّوه هالكًا، وطمعوا في أملاكه، أنّه لا يزال يمثّل قوّة يجب أن يُحسب لها حساب، في توازن القوى في المنطقة. سرعان ما قضى الصالح، المخطّط الاستراتيجي البارع والمقاتل الشجاع، على الجيش السلجوقيّ وأرغمه على الانسحاب. بعدما أعادت إليهم وعود الثراء بأسهم وقوّتهم، قاتل الخوارزميّون إلى جانب الصالح، فسحقوا بدون عناء، ولا سيّما بدون أيّ توبيخ ضمير، جيش سيّدهم السابق.

لم يُرد الأمير أن يتأخّر وقتًا أطول، فترك ابنه البكر ليحكم حصن كيفا وعاد ليسير في اتّجاه سوريّا، ترافقه كما دائمًا، شجرة الدرّ العزيزة. كما رافقه قسم صغير من مماليكه، من بينهم بيبرس وبعض فرق المرتزقة.

الخليل

إقتناعًا منها بصوابيّة قضيّة زوجها، استعادت شجرة الدرّ طريق كلّ المخاطر، بدون أن يخلو الأمر من غصّة شديدة. بعدما رأت ولفترة وجيزة ابنها الخليل، البالغ من العمر عامًا واحدًا، وجب عليها تركه من جديد في عهدة الحاضنة. إلّا أنّها عرفت هذه المرّة أنّه سيكون بحماية نايا، التي دخلت مؤخّرا في خدمتها.

أثّر تفاني الخادمة الصوماليّة اليافعة والجميلة ذات عينَي الظبية، في قلب شجرة الدرّ. كانت الخادمة تعشق سيّدتها، ومستعدّة للتضحية بحياتها في سبيلها. كانت تأسف للغاية إذ لا تستطيع أن تتبعها لتحميها من «نزوات القدر»، كما راحت تردّد كلّما افترقتا. ومع ذلك فقد كان يعزّيها أنّها تسدي إليها خدمة أكبر ببقائها. تستطيع شجرة الدرّ أن تطمئنّ، يقينًا منها بأنّ خادمتها ستحمي، وبحياتها إن اقتضى الأمر، الإنسان الأغلى على قلبها، ولدها الخليل. تلك الشابّة الذكيّة والواسعة الحيلة كانت متراسًا ضدّ أيّ خطر، وخصوصًا ضدّ أيّة غريمة قد تسعى للثأر من الزوجة المحظيّة، بالاعتداء على طفلها.

وهكذا، دامعة العينين ودّعت شجرة الدرّ الشخصين الأعزّ على قلبها، ووعدتهما باستدعائهما إلى جانبها حالما يسمح الوضع بذلك. فقد قرّرت ألّا تدع طفلها يتنقّل على الطرق، قبل أن يستقرّ والداه على عرش جدّه.

دمشق

كانت شجرة الدرّ تحبّ دمشق، وكانت مقتنعة بأنّ هذه المدينة ستكون المحطّة المفصليّة، في طريقهما للوصول إلى قمّة السلطة. لقد تلقّى الصالح دعوة خاصّة ليكون ملكًا على المدينة، وهي أهمّ مدن السلطنة بعد القاهرة.

كان الجواد، ملك دمشق، أميرًا أيوبيًّا غريب الأطوار، وقد فاق اهتمامه بالصيد اهتمامه بإدارة شؤون إمارته. ذات صباح، ذهب فجأةً في جولة الصيد، تاركًا مفاتيح المدينة وسلطاته كلّها بيد أحد خصيان قصره، عبد وضيع، وأبعد من أن يكون على قدر مسؤوليّة كتلك. سرعان ما ظهر عدم كفاءة الخصيّ واستبداده. كما ارتكب خطأ فادحًا بمحاولته ابتزاز كبار تجّار دمشق، تلك المدينة العريقة في أصول التجارة وفنونها. أتت ردّة فعل أعيان المدينة سريعة، فاستدعوا الجواد ووضعوه أمام مسؤوليّاته، مطالبين برأس الخصيّ. حكم الجواد على العبد الغبيّ بقطع الرأس في الساحة العامّة، وذلك لتهدئة الخواطر وإعادة الاستقرار إلى المدينة.

غير أنّه لم يلبث أن ضاق ذرعًا من جديد بإدارة شؤون المدينة. أراد استعادة حريّته، وأعلن بعفويّته المعهودة: «فيمَ يفيدني الحكم؟ أفضّل صقرًا وكلبًا على المُلك». في بحثه عن بديل له، أظهر الجواد هذه المرّة قدرًا أكبر من الحصافة، بل من الدهاء حتّى. ولمّا كان لا يكنّ أيّ احترام للسلطان العادل، وبل يمقته، قدّم دمشق وأمجادها، وإنّما أيضًا عبءها الكبير إلى الصالح، في مقابل بعض مدن مقاطعات بلاد ما بين النهرين، تسمح له بعائدات ماليّة مجزية.

حثّت شجرة الدرّ زوجها على قبول هبة السماء هذه، بدون تأخير. فالعرض الذي يقدّمه الجواد سيساعده حتمًا في بلوغ قمّة السلطة. وسيكون عرش دمشق مرحلة استراتيجيّة في الطريق إلى السلطنة، فيجعل الجميع يعترف بسلطتهما كما ويكسبهما هامشًا واسعًا من المناورة. هكذا راح شأن الصالح يتعاظم، وأخذ يقترب من هدفه أكثر فأكثر.

***

حين وصل الصالح إلى دمشق، استُقبل بكلّ الحفاوة التي تليق بمركزه ونودي به ملكًا على المدينة بدون أيّة معارضة. سُرّ ساكنو المدينة، الأغنياء منهم والفقراء، بأن يروا أخيرًا على العرش أميرًا مشهورًا بجدّيته وشجاعته، بعد حقبة الجواد وخصيّه. أظهروا ارتياحهم ورضاهم بنزولهم إلى الشوارع ليخصّصوا له استقبالًا مهيبًا واحتفاليًّا يليق بالملك الجديد. كانت دمشق بركة. وكانت شجرة الدرّ تسلّم بقدرات الصالح في أن يكون سلطانًا عظيمًا، وقد أتت فرصته الآن ليبرهن عن ذلك.

سرعان ما اكتشفت سلطات المنطقة ملكًا على دمشق، محبوبًا جدًّا من قادته. والأكثر إثارة للقلق، كان تمتّعه بصيت حسن في أوساط قادة إماراتهم الخاصّة: فالصالح اعتُبر مخطِّطًا استراتيجيًّا بارعًا، ومحاربًا غير هيّاب، وعادلًا وصادقًا مع رجاله، سواء أكانوا من الأحرار أو المماليك. كما عُرف عنه أنّه يقاتل إلى جانب رجاله، بدلًا من الاحتماء في موقع آمن، شأن معظم الأمراء الآخرين، وهذا ما كان يثير إعجاب محاربي سوريا ومصر. والواقع أنّ أيّ أمير أيوبيّ سواه لم يكن يتمتّع بهذا القدر من الاحترام في أوساط القادة جميعًا.

وهكذا فإنّ عودة الصالح من منفاه ليشغل منصبًا بتلك الأهميّة في سوريا، أثارت اضطراب أولئك الأمراء، ودعتهم إلى إعادة النظر في مواقعهم على رقعة الشطرنج السياسيّة. تسارعت لعبة التحالفات،

وحاول الجميع الاستفادة من فترة عدم الاستقرار تلك في سلطنة مصر، ليحاول توسيع نفوذه.

سرعان ما فكّ الناصر داوود أمير الكرك، ارتباطه بالعادل، بعدما سبق وأقسم على طاعته. راح يسعى للتقرّب من الصالح فعرض عليه مساعدته في غزو مصر لقاء الحصول على إمارة دمشق. كان ذلك الأمير الطموح يطمع منذ فترة بالعاصمة السوريّة، ومستعدًّا لبذل كلّ شيء في سبيل الفوز بها.

رأى كلّ من الصالح وشجرة الدرّ أنّ السلاح الأمضى للفوز بالسلطنة، هو إقناع العناصر الترك في جيش العادل بالانقلاب على هذا الأخير، وخلعه عن العرش. عاجل الصالح بالسعي لإثارة الانشقاقات في جيش أخيه الأصغر. وقد فاقت نجاحات مساعيه تلك، كلّ توقّعاته. توافد إليه قادة مصريّون كثيرون يعرضون خدماتهم، وينضوون تحت رايته. وما زاد من سوء حال العادل السيّئ الحظّ، أنّ الفرق التركيّة في جيشه قد تمرّدت في بلبيس، على الأراضي المصريّة. أرسل السلطان قوّات حرسه الكرديّة لمحاربتهم، لكنّ الترك هزموهم، ثمّ قصدوا دمشق لموافاة الصالح، برغم العفو الذي وعدهم سلطانهم به.

إشتدّ تصلّب الصالح وثقته بأنّ الحظّ يبتسم له، وخال أنّ بوسعه الاستغناء عن مساعدة الناصر داوود، فرفض أن يعطيه دمشق مقابل تحالفهما. ما كان الناصر داوود مستعدًّا لنسيان تلك الخيبة الشديدة، فأقسم على الثأر وإرغام الصالح على تقديم دمشق إليه.

كانت شجرة الدرّ تدعم معظم قرارات زوجها، وتنصحه بالتريّث لدراسة الوضع في كلّ مرحلة، والتقدّم بحذر. لم ترد أن تراه يتهوّر في معارك أو تحالفات مع أمراء معروفين بطمعهم، وغشّهم، وقدرتهم على تغيير مواقفهم بسرعة البرق. كما أرادت أن يتجنّب الصالح بقدر الإمكان، اكتساب أعداء في صفوف أنسبائه.

كانت تعتقد أنّ عليهما البقاء في دمشق ومواصلة سياسة تقويض أسس عرش العادل، وترسيخ سلطتهما في سوريّا، بانتظار تبيّن اتّجاه هبوب الرياح عند القادة والأعيان المصريّين. بفضل بصيرتها الواسعة، كانت قد أدركت السمة الأولى التي تميّز زوجها الشهير عن سائر أفراد العائلة الأيوبيّة: شعبيّته لدى صفوف القادة والمحاربين السوريّين والمصريّين، وكلّهم تقريبًا من قدامى المماليك، ذوي الأصل التركيّ، الذين أُعتِقوا. كانت شجرة الدرّ فخورة بتحدّرها من الأصول عينها. مثلها، تمّ شراؤهم في حداثة سنّهم، وقد تربّوا لاحقًا لهدف واحد وهو خوض الحروب والدفاع عن مصالح الأمراء أسيادهم. كان عددهم مرتفعًا في مصر وسوريا، ويزداد باطّراد. كان واضحًا لكلّ صاحب رؤية بعيدة، أنّ ثمّة قوّة جديدة لا مفرّ منها، في طور الظهور. أخذ أولئك الرجال يتحوّلون إلى دولة داخل الدولة، ولن يلبثوا أن يصبحوا قادرين على رفع الملوك أو الإطاحة بهم. وعليه، فإنّ إقناعهم بأنّ الصالح هو الوريث الشرعيّ الوحيد للكامل، والأمير الوحيد القادر على إعادة الاستقرار والعزّة إلى السلطنة المتقهقرة تحت أيدي ذاك اليافع المنحرف والمسيء الذي يحتلّها، يعني ارتقاء أولى درجات سلّم السلطة.

كانت شجرة الدرّ تعتقد أنّهم بحاجة فقط إلى القليل من الوقت، لحضّهم على استخدام قوّتهم وللمرّة الأولى، كصانعي ملوك. فقوّة العبيد القدامى لا تزال تشكّ بقدراتها ونفوذها، وتخشى التمرّد على أسيادها الأيوبيّين. ألحّت شجرة الدّر على الصالح حول ضرورة التحلّي بالصبر، والتنقيب بعمق لاستخراج قوى مناصريهم الترك، واستخدامها لسحق العادل ووالدته.

لكنّ الصالح تجاهل وللأسف نصائحها وقرّر أنّ الوقت حان للسير إلى القاهرة والسيطرة عليها. كان مراسيل بعض الأمراء المصريّين قد أكّدوا له أنّ البلاد كلّها ستخضع له، وأنّه سيُعترف به سلطانًا حالما يدخل القاهرة. ترك دمشق وسار إلى القاهرة على رأس ستّة آلاف فارس، معظمهم من

العسكريّين الترك الذين تخلّوا عن العادل لدعم الصالح.

ضعفت شجرة الدرّ أمام استعجال الصالح، وانتقلت إليها حماسته ورغبته في السير إلى القاهرة بدون أيّ تأخير. عندئذٍ، أصرّت على أن يسدّد ضربة سريعة وقويّة، ما دام الحظّ يبتسم له ويقف في صفّه. ما كان يجب إظهار أيّة علامة تردّد، قد يفسّرها القادة الأتراك على أنّها نقص في الحزم، وضعف من قبل بطلهم الجديد. فإخلاصهم للصالح لم يسبق أن خضع للتجربة، وقد ينتقلون من معسكر إلى آخر إذا ساورتهم أيّ شكوك حول مزايا الصالح. رأت شجرة الدرّ أنّ الوضع متزعزع، وأنّ ردّة فعل الأنسباء الأيوبيّين تبقى كما دائمًا غير متوقّعة.

وحدث ما كانت تخشاه. تردّد الصالح، وهو على قاب قوسين من هدفه، فتأخّر في طريقه، وأمضى في مدينة نابلس الواقعة تحت حكم عدوّهما المعلن، الناصر داوود، وقتًا أطول من المطلوب.

***

حاولت شجرة الدرّ أن تتساهل مع الصالح، وأقرّت بأنّ الوضع قد تعقّد فجأةً: كان من الصعب تفسير الإشارات السياسيّة الواردة إليهم من كلّ مكان، وقد راح الأمراء الأيوبيّون يبدّلون تحالفاتهم، وينكثون بعهودهم بسهولة مُقلقة، فلم يشأ الصالح المتوجّس المجازفة بالقيام بأيّة خطوة ناقصة.

فيما كان الصالح وشجرة الدرّ في نابلس، دخل المشهد سفير الخليفة العبّاسيّ في بغداد، وقد أصبح المستعصم بالله. وعلى الرغم من أنّ شجرة الدرّ لم تكنّ أيّ احترام لشخصه، إلّا أنّ منصبه كأمير للمؤمنين يبقى المرجعيّة الروحيّة والدينيّة للملوك والأمراء المسلمين، ويفرض عليهم الاحترام.

شعر المستعصم بالله بالخطر الجديّ الناتج عن الانشقاقات في عائلة الأيوبيّين الكبيرة، وأراد التدخّل بصفته سلطة دينيّة. برأيه، كان من الملحّ الوصول إلى حلّ لأزمة الوراثة، وذلك لإنهاء الحروب الداخليّة بين الإخوة، قبل انتهاء الهدنة مع الصليبيّين الفرنجة، في شهر سبتمبر 1239. كان الكامل، والد الأخوين المتحاربين، قد توصّل إلى تلك الهدنة عن طريق المفاوضات. وعليه، أرسل المستعصم بالله سفيرًا، يقترح الاعتراف بالعادل سلطانًا على مصر وبالصالح سلطانًا على دمشق، وذلك في سبيل وضع حدّ للخلاف.

أشفقت شجرة الدرّ على ذلك المبعوث السيّئ الحظّ، الذي رمي به في وكر أفاعي السياسة. لم يكن لمهمّته أيّ أمل بالنجاح، وبلغت مقترحاته آذانًا صمّاء، وضاعت كلماته وسط المناوشات الدائمة بين الأنسباء الجشعين، وكلّ منهم يسعى للفوز بالحصّة الكبرى من إمبراطوريّة صلاح الدين الكبير.

بضغط من أمّه، رفض العادل تسليم دمشق، ومن جهته، لم يرد الصالح التخلّي عن حقوقه في ميراث أبيه. كان المقرّ الأعلى للسلطنة في القاهرة علّة وجوده، ولم يكن أيّ شيء آخر ليرضيه، ولا حتّى السلطة المطلقة على دمشق ومقاطعاتها، فيما واصل أفراد العائلة الآخرون العزف على كلّ الأوتار، عاقدين حلفًا من هنا، وقاطعين حلفًا من هناك.

تلك المفاوضات التي كانت شجرة الدرّ ترفضها، جعلتهما يهدران الوقت، وبعثت بمؤشّرات سيّئة إلى القادة الترك الحديثي الانضواء تحت راية الصالح. في خلال استراحتهما في نابلس، في سبتمبر 1239، حدث ما كان بديهيًّا حدوثه: قام اثنان من أنسباء الصالح، بعدما فسّرا تردّده في مواصلة السير إلى القاهرة على أنّه إشارة ضعف، بمهاجمة دمشق والاستيلاء عليها. في غياب مَلكها لم تُبد المدينة مقاومة تُذكر.

على أثر خسارة دمشق، وأمام الاهتزاز المفاجئ لموقف أميرهم، فقد الجنود الثقة، فتشتّتوا وعمَّت

الفوضى. بتشجيع من عملاء الأعداء، تخلّى القادة وجنودهم عن الصالح وزوجته في نابلس، وتركوهما مع المخلصين القلائل الذين لازموهما. وهكذا، رأى الناصر داوود فرصة لم يتأخّر في اغتنامها. أتى إلى نابلس ليقطفهما وكأنّهما ثمرتان يانعتان، واقتادهما أسيرين إلى قلعته في مؤاب. سمح للصالح بأن ترافقه فقط زوجته وأحد أتباعه، فاختار الأمير ركن الدين بيبرس؛ مملوك ذو صفات استثنائيّة، متحدّر من كوبشاك.

أميران مسجونان في قلعة مؤاب

بمزيج من الانجذاب والغيرة، تابعت العينان الزمرّديّتان الجميلتان طيران الصقر. راح الطائر المهيب يحلق حرًّا، باسطًا جناحيه، باحثًا عن طريدة تليق بأن تكون قوته، في صحراء مؤاب القاحلة التي تمتدّ على الضفّة الشرقيّة من نهر الأردن. ثمّ بحركة مباغتة جمعت بين الرشاقة والسرعة، انقضّ الطائر الكاسر من الأعالي على فريسته الهلعة. لم تفارقه العينان الزمرّديّتان ثانية واحدة، واستطال العنق الطويل والأنيق ليتابع تحليقه صوب عشّه، حيث سيمزّق الصقر لحم فريسته ليقتات منه. لقد أتمّ مهمّته بدون أيّة وحشيّة، بل ببساطة لمجرّد البقاء على قيد الحياة.

كانت شجرة الدرّ واقفة أمام نافذة القلعة، مأخوذة تمامًا بذلك المشهد حيث تتحاذى الحياة والموت، وحيث يصبح موت كائن حيّ ضروريًّا لبقاء آخر. شعرت بنفسها هي أيضًا مستعدّة تمامًا لتبسط جناحيها وتحلّق فوق صحراء مؤاب باتّجاه مصر. كانت مصر تناديهما، وتجتذبهما وكأنّها حجر مغنطيس.

حاولت شجرة الدرّ وهي تراقب الطائر الكاسر، أن تتغلّب على شعورها بالإحباط. كانت وزوجها يواجهان أسوأ عقبة تقف في طريقهما حتّى ذلك الحين. لقد أطبق عليهما فخّ مذهّب، وكان من الحجم الذي يصيب باليأس حتّى أشدّ المحاربين بسالةً. ومع ذلك، راودتها غرائز صقر وقد تجلّت فريسته خير تجلٍّ: العادل، مغتصب السلطة، وأمّه سوداء، المخادعة والمتلاعبة.

كان ذلك مساء 20 أبريل من العام 1240، وقد مضت سبعة أشهر على أسر شجرة الدرّ وزوجها، في تلك القلعة الحصينة النائية وسط الصحراء، في سجن نسيبهما الناصر داوود، حاكم الكرك في الأردن. كانا محرومين من كلّ دعم، ما خلا وجود بيبرس، مملوكهما المُخلص الذي لا يفارقهما.

كان بيبرس قد دخل في خدمة الصالح في الوقت عينه الذي أتت فيه شجرة الدرّ. وقد أثبت، على غرارها، أنّه شخص استثنائيّ وشجاع وقويّ وذكيّ. على رغم مكره وطموحه، كان يتحلّى بإخلاص مطلق لسيّديه.

لطّف الغروب من شدّة النور، فجعل المنظر القاحل أقلّ عدائية أمام عينَي السلطانة المستقبليّة الخضراوين والمتّقدتين. كانت ملتصقة بالنافذة، وكأنّها تأمل بأن ينبت لها جناحان لتهرب من أسرها، عبر هذه الكوّة. وقف الصالح خلفها وطوّق خصرها بذراعيه، وغاص بشفتيه في شعرها الحريريّ، متنسَّما عطره المشبع بالعنبر. إحتكّت المرأة بجسد زوجها بكثير من الشبق، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها اللذيذتين.

كانت شجرة الدرّ تعرف أميرها حقّ المعرفة، وشعرت أنّه بحاجة إلى أن يستمدّ قوّة من قوّة امرأته ورقّتها. لعلّه تلقّى أخبارًا لا تبشّر بكثير من الخير. إستدارت، وبدون أن تطرح عليه أيّ سؤال، قدّمت له شفتيها كثمرة يانعة وشهيّة، مستفزّة نهمه، ومتحدّية شعوره بالكآبة.

لم يكن الصالح يطيق الأسر. فالرجل المحارب الذي اعتاد ساحات القتال، والفارس الذي قلّما يترجّل عن صهوة حصانه، كان يذبل ببطء بين جدران القلعة. محرومًا من حريّته ومرغمًا على البطالة وعدم الحركة، كان يعاني أكثر فأكثر من نوبات قلق ويأس. في الآونة الأخيرة، راح يستشيط غضبًا، وتملّكه مزاج عكر، فكان كلّ من شجرة الدرّ وبيبرس يحيطانه بتفانيهما، لمساعدته على تجاوز تلك المحنة.

كان بيبرس يشاركه التدريب على استعمال الأسلحة في باحة القلعة. وكانت شجرة الدرّ تحبّه، وتؤاسيه، وتحاول أن تعيد إليه القوّة والأمل في الحياة. كانت تسدي إليه النصح، وتحلّل معه الأحداث

بذهن منفتح وصاف ومنطقيّ. كما كانت تحميه بفضل تفاؤلها الصادق ودعمها المطلق، مقتنعةَ بأنّ زوجها سيرتقي عرش أبيه، وبأنّ أحدًا، لا الناصر داوود ولا العادل، لن يستطيع الحؤول دون ذلك.

لم يقاوم الأمير الكئيب إغراءات زوجته. في أيّ حال، لم يكن يرفض لها طلبًا. كانت شجرة الدرّ ملجأه، تهدّئ الهواجس التي تعصف بباله وتقضّ مضجعه ليلًا. كان يحرص على إبقاء طبعه العنيف والقاسي والقليل الصبر، خارج حياته الزوجيّة. حين يكون وزوجته الغالية، كان يبحث عن الحبّ والانسجام وسلام الروح. كانت هي عنصر التوازن والرقّة الوحيد في حياته، والشخص الوحيد القادر على احتواء نوبات غضبه، والوحيدة التي يأخذ بنصائحها.

ساعدته على خلع ملابسه، لتلاحظ بأسى أنّه خسر مزيدًا من الوزن. طوّقته بذراعيها وقبّلت صدره الناحل، منقّلة شفتيها برفقٍ على بشرته السمراء. إرتعش وانقاد لها بوداعة فيما مضت به إلى سريرهما المكسوّ بحرير الهند. لاحقًا، بعد الغرام، أخذت عودها، ورنّمت له أغانٍ هادئة مهدهدة، لتساعده على النوم.

قبل فترة قصيرة، كان الصالح قد تلقّى رسالة من أحد جواسيسه الكثر في القاهرة، تصف المهرجانات التي أقامتها سوداء، المرأة الدنيئة، احتفالًا بالقبض على ألدّ أعدائها. فقد دعت شعب المدينة إلى وليمة فخمة أقامتها في ساحة كبيرة، أسفل قلعة صلاح الدين.

هزئت شجرة الدرّ بحركة لا مبالية من ظاهر يدها، وبابتسامة مشعّة، من تلك الأخبار السيّئة، طاردةً عن زوجها مزاجه المتعكّر. ثمّ أكّدت له، بتحليل منطقيّ لا يجادَل، أنّ تلك المهرجانات السابقة لأوانها في مملكة العادل، إنّما هي نذير شؤم له ولأمّه. إمساكهما بزمام السلطة لا يزال هشًّا، كما أنّ نخبة العسكر ورجال الإدارة والاقتصاد في القاهرة، لم تبايعهما على الطاعة بعد، وقد بدأت بوادر الرفض بالظهور. بيد أنّ الفتى المسكين ووالدته كانا يجهلان تمامًا هشاشة وضعهما المترنّح.

كان الليل قد أرخى سدوله تمامًا حين قرّرت شجرة الدرّ التي جافاها النوم، أن تنهض. إتّقت برد ليل الصحراء، بفستان فضفاض من الحرير الأخضر، وعادت إلى مكانها أمام النافذة المفتوحة. راحت تتأمّل النجوم المتألّقة في السماء شديدة الحالكة، وتتفحّصها بدقّة وكأنّها قادرة على تزويدها بوسيلة للتحرّر من ذلك القفص الذهبيّ.

لم يكن الأميران بحاجة إلى شيء، فالناصر داوود حرص على أن يعامَل الصالح بما يليق بمقامه. كان مسكنهما مريحًا، مفروشًا بالطاولات الخفيضة المصنوعة من الخشب الثمين، وبكمّيات كبيرة من الوسائد المصنوعة من أفخم الحرائر المطرّزة. وقد غُطّيت الأرض بسجّاد سميك وناعم. كذلك كان الطعام ذا جودة عالية ومتنوّعا. غير أنّ الصالح وشجرة الدرّ لم ينسيا قطّ أنّهما محتجزان عنوةً، ورهن إرادة الناصر داوود، وأنّ مصيرهما بين يدَي ذلك الشخص الظالم والطمّاع.

تسلّلت عبر النافذة خيوط نور ورديّة ورقيقة. نظرت شجرة الدرّ إلى الظلال التي راحت تستنير شيئًا فشيئًا من حولها. راحت المعالم تستعيد أشكالها. برغم الظلمة، لم تستطع ألّا أن تلاحظ الأثاث الفخم المحيط بها. كان الناصر يعامل نسيبه بكلّ ما يليق بمقامه، كأحد كبار الأمراء الأيوبيّين. لا شكّ بأنّ تلك الدراية تثبت أنّ هذا الأسر ليس سوى وسيلة ضغط، في انتظار المفاوضات المقبلة.

ترك لهما الناصر أمر إدارة شؤونهما، وإرسال الرسائل وتلقّيها بكلّ حريّة. وهكذا، باتت المراسلة الدؤوبة مع العالم الخارجيّ وتحليل ما يتلقّيانه من الرسائل، النشاط الأساسيّ للأميرين المسجونين في تلك القلعة. من بين المعلومات المتنوّعة التي كانت تردهما، برزت آخر الأخبار الواردة من مدينة القدس. الواقع كان أنّ الصليبيّين استعادوا جرأتهم. وبفضل التعزيزات التي وصلتهم في خلال العام 1239، وبقيادة كونت منطقة شمبانيا، تيبو الرابع، ظنّوا أنّ بإمكانهم تشييد بعض التحصينات في

القدس، في حين كانت بنود الاتّفاقيّة الموقّعة بين فريدريك الثاني والكامل، تمنع ذلك بشكل قاطع. وقد تجرّأوا حتّى على طرد كلّ المسلمين من المدينة. أمّا الناصر داوود، الباحث دومًا عن وسيلة لرفع مكانته، فقد اغتنم تلك الفرصة ليحاول التميّز. أخذ المبادرة بالردّ على الفرنجة. في ديسمبر من العام 1239، حاصرهم ونجح باستعادة القدس في غضون ثلاثة أسابيع فقط. ثأرًا للمسلمين الذين طُردوا من مدينتهم، أمر بإخراج كلّ الفرنجة من القدس وأقام عليها واليًا تابعًا له.

قضت شجرة الدرّ ليالي طويلة لم تعرف فيها مذاق النوم، تستعيد المرّة تلو المرّة في ذهنها، الأحداث التي جرت منذ رحيلهما عن بلاد ما بين النهرين. وكلّ مرّة، كانت تصل إلى الاستنتاج بأنّ وضعهما أبعد ما يكون عن اليأس. حتّى أنّها باتت تتوقّع حلًّا قريبًا. لا بدّ من أنّ الناصر داوود سيستعجل استثمار مكانته الجديدة للسيطرة على دمشق، وهي مهمّة لن يستطيع القيام بها من دون عونهما، وخصوصًا من دون صِلاتهما بين صفوف الخوارزميّين. كان بأمسّ الحاجة إلى تلك التعزيزات، ووحده الصالح كان قادرًا على تأمينها.

لم تكن تلك الليلة الأولى التي تقضيها شجرة الدرّ بدون نوم، في تلك القلعة. لكنّها المرّة هذه، لم تحاول حتّى أن تستريح. بل هي لم تعد ترغب في الراحة، وقد استبدّت بها رغبة واحدة: أن تتصرّف لكي يخرجا من ذلك السجن الذي بات لا يُحتمَل. لكنّ ذلك لن يتمّ بأيّة طريقة كانت. بدأت شمس الصباح تنير الصحراء المترامية إلى ما لا نهاية أمام عينيها، شمس تحمل الأمل والحياة للبعض، لكنّها تحمل كذلك خطر الموت لكلّ مَن يغامرون بأن يجتازوا بدون استعداد، هذه البيئة الشديدة العدائيّة.

هذه المرّة، يجب الظهور بمظهر أكثر ليونة وتساهلًا مع الناصر داوود، والتوصّل بسرعة إلى اتّفاق وفقًا لشروطه. قلّصت نظرة حازمة ملامح وجه شجرة الدرّ، فيما اتّقدت عيناها شررًا. في لحظات الوحي والفطنة تلك، كانت تشعر بأنّها مستعدّة لتفعل كلّ شيء وتعد الناصر بأيّ شيء، ليستطيعا مواصلة طريقهما إلى القاهرة، لا سيّما وأنّه لن يعود قادرًا على التعرّض لهما بعد أن يرتقيا العرش.

كان معظم الأخبار التي وردتهما مؤخّرا مشجِّعا. وقد أكّدت لزوجها مع بداية المساء، وفي محاولة لطمأنته، أنّ هذا التوقّف القسريّ يجب ألّا يُضعف عزيمتهما، وبل قد يكون مفيدًا حتّى. ثمّ استشهدت بآية من القرآن: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) والواقع أنّه ومنذ أسر الأميرين، تعرّف الشعب المصريّ ونخبته المدنيّة والعسكريّة إلى حقيقة العادل، وخبروا استبداده، وإفراطه في العنف، وحدود مزاياه الإنسانيّة أو الفكريّة. كان ذاك السلطان القليل الخبرة والمتعجرف والمنحرف، يثير استياء القادة وموظّفي الدولة المصريّين بكلّ أطيافهم. كانت الرسائل التي يتلقّاها الصالح تؤكّد ذلك أكثر فأكثر. فالشابّ ذو الأعوام الثمانية عشر أطلق العنان لشهواته على الملأ، سكرًا وتفلّتا وانحرافًا. لضمان ولاء جنوده، أغدق عليهم الذهب، كونه لا يملك أيّة شرعيّة عسكريّة، ولا المزايا التي تُكسبه حبّ جنوده واحترامهم. وحيث لا محلّ في عرش مصر للخطوات الناقصة أو لقصور الرؤية، راحت أخطاء العادل تتضاعف. مارس المحاباة بلا رادع، وخال كلّ شيء مباحًا له. طرد من البلاط موظّفي أبيه القدامى القادرين على إرشاده، واستبدلهم برفاق السوء الرُّعناء الذين لا يضيّعون دقيقة واحدة في تبديد المال العامّ. وقد استثار سلوكهم الشائن استنكار كلّ قادة البلاد وأعيانها.

لتلك الأسباب، كان الناصر داوود مضطرًّا إلى التسليم بمستقبل الصالح السياسيّ الزاهر. باحتجازه وريث العرش المصريّ، ومعاملته إيّاه معاملة ضيف لا أسير، كان الناصر يحتفظ بورقة رابحة أساسيّة. أمّا شجرة الدرّ فلم تكفّ عن الإلحاح على زوجها بأنّ الوقت حان للتوصّل إلى تسوية ما مع الرجل الذي سيصبح – بعد سيطرته على القدس – الحَكَم الأساسيّ لفضّ النزاعات القائمة في كنف العائلة الأيوبيّة.

لعبة التحالفات

صباح 21 أبريل 1240، تأكّدت توقّعات شجرة الدرّ. حمل مبعوث أرسله الناصر داوود رسالة عاجلة إليهما، يدعو فيها بكلّ مودّة الصالح وزوجته إلى موافاته في القدس بأسرع وقت ممكن. شعرت شجرة الدرّ بسعادة عارمة، فهما سيستطيعان أخيرًا اجتياز أبواب هذا السجن الذهبيّ!

هرعت لإيقاظ زوجها، بابتسامة عريضة ونظرة مفعمة بالأمل. فتح الصالح عينيه وابتسم بكسل، متذكّرا بلا شكّ ملذّات الليلة السابقة. مطّ ذراعيه وراح ينظر بنَهَم إلى الوجه المشعّ فرحًا والمنحني فوق سريره. وبصوت سعيد زفّت إليه الخبر السارّ:

– هل نمتَ جيِّدا يا حبيبي؟ أرجو ذلك، فأنت بحاجة إلى كامل نشاطك للسفر إلى القدس.

وابتسمت أمام نظرة زوجها التي تحولّت بسرعة البرق من الدهشة إلى الفرح. إستوى الصالح جالسًا في سريره وأخذ زوجته بين ذراعيه وغمرها بالقبلات:

– كنت محقّة إذ حافظتِ على هدوء أعصابك وتفاؤلك طوال هذه التجربة الشاقّة. شخصيًّا كنتُ لأفضّل خوض ألف معركة ومجابهة ألف خطر على البقاء أسيرًا هنا، أجترّ حنقي على عائلتي وألعن القدر الذي يعاكسني بلا رحمة. لولاك يا نور حياتي، لما بقيتُ حيًّا في هذا السجن. واليوم سنخرج منه، ونواصل طريقنا الذي قُطع علينا بوحشيّة.

رغم ذلك، عادت نظرة قاتمة لتسكن عينيه، وقال:

– وماذا لو تبيّن أنّ الناصر داوود مخادع حقير؟ ماذا لو حاول قتلنا على طريق القدس؟ لا يمكنني الوثوق بهذا الرجل.

طمأنته شجرة الدرّ قائلة:

– أنت على حقّ. الناصر شخص حقير وخطير. لكنّنا أسيراه منذ أشهر سبعة، ولو أراد قتلنا لفعل ذلك في هذه القلعة البعيدة عن كلّ شيء، متذرِّعا بحادث أو بمرض. لا يا نور عينيّ، الناصر داوود يفهم تمامًا قيمتك. وهو لم يحتفظ بك إلّا ليفاوضك بشروط أفضل. كان ينتظر اللحظة المناسبة وحسب، وها هي قد أتت. صحيح أنّه في موقع القوّة، ولكنّ قوّته لا تكفي للاستيلاء على دمشق التي أذكّرك بأنّك لا تزال مَلكها الشرعيّ.

ثمّ تريّثت قليلًا قبل أن تتابع فكرتها:

– نعم. أخيرًا فهم نسيبك أنّك الورقة الأقوى التي يملكها. كما كنت أردّد لك دائمًا، ليس للناصر داوود خيار سوى أن يضمّ قضيّته إلى قضيّتك. وقد توصّل أخيرًا إلى ما توصّلنا إليه من استنتاج. لعلّه في ذروة الرفعة بعد سيطرته على القدس، لكنّك لا تزال الأمير الأيوبيّ الأكثر تمتُّعا بالاحترام والشعبيّة بين جيوش المنطقة. معًا، ستكونان شخصين لا يُقهران. حين تجلس على عرش مصر، ستصبح أنت الحَكَم في العائلة، وتفعل ما تشاء، ولن يستطيع أحد ضدّك أيّ شيء. ولن تقدّم دمشق للناصر إلّا إذا رغبت في ذلك.

إبتسمت بمكر تاركةً كلماتها تفعل فعلها.

أجاب الصالح مداعبًا وجه محبوبته:

– أنتِ على حقّ يا حبيبتي، لكن، دعينا لا نفرح قبل الأوان.

– لكنّني لن أحرم نفسي فرحة تذكيرك بأنّنا احتُجزنا بعد إحدى المرّات النادرة التي لم تصغِ فيها إليّ يا حبيبي. لكن، لا تقلق. أشعر في عمق قلبي بأنّنا قريبان من تحقيق حلمنا. لن أتأخّر في الإشراف على استعدادات الرحلة، فأنا أستعجل السفر. ولا أنوي أن أحمل إلّا ما هو ضروريّ. لا أريد الاحتفاظ بشيء يذكّرني بهذا السجن.

وعليه، خرجت شجرة الدرّ وهي تدندن أغاني حبّ ومجد. لم يستطع تشاؤم زوجها النيل منها، لشدّة فرحها باستعادة الحريّة.

***

كان الناصر داوود بحاجة إلى جيش ليحارب السوريّين ويحتلّ دمشق. وظلّ الخوارزميّون المرتزقة الأكثر تمتُّعا بالتقدير، لشجاعتهم واستبسالهم في القتال. وقد راح حُسن العلاقات بين الصالح وقائدهم يكتسب قيمة لا تقدّر في عينَي الناصر، الذي بات مستعدًّا لإعتاق الصالح مقابل الحصول على مساعدة الخوارزميّين، ومساعدته على غزو القاهرة، وصولًا حتّى إلى إعلان ولاءه له إن لزم الأمر. كان يريد وبأيّ ثمن نيل مساعدة أولئك الخوارزميّين، الذين كان زعيمهم بركات خان، متأهِّلًا من شقيقة الصالح.

أيّ مكان قد يكون أنسب من القدس، المدينة التي عادت مؤخَّرا إلى حضن المسلمين، لعقد تحالف بهذه الأهمية؟ ذهب الناصر داوود والصالح مع مرافقيهم إلى القدس ليقسموا اليمين على الولاء المتبادل. قضى الاقتراح الذي قدّمه الناصر، صاحب الطموح الكبير، باقتسام إمبراطوريّة صلاح الدين بين النسيبين، فيجلس الصالح على عرش مصر، ويملك الناصر داوود على سوريا ومقاطعات بلاد ما بين النهرين.

لم يكن الصالح سعيدًا بهذا الترتيب، لأنّه أراد أن يكون ملكًا بدون منازع على كامل إمبراطوريّة أبيه. عشيّة اللقاء، كان وشجرة الدرّ يرقدان جنبًا إلى جنب في المخيّم المنصوب أمام أسوار القدس. عملت زوجته، الأكثر مكرًا منه، على تهدئة مخاوفة ونصحته بالصبر والحكمة.

– هدفنا استعادة حرّيتنا والوصول إلى القاهرة. بعد ذلك، سنرى ما يقرّره الله العليّ العظيم لنا وللإمبراطوريّة، قالت وهي تحاول أن ترشد زوجها إلى طريق الصواب. نسيبك متفوّق علينا في الوقت الراهن، ولكنّه لن يبقى كذلك طويلًا بعدما تجلس على عرش أبيك. إقبل شروطه يا زوجي العزيز. إقبلها الآن وهو لا يزال سكرانًا بانتصاراته، قالت له بابتسامة صغيرة. سترى أنّه لن يلبث أن يندم على تكتيكاته، التي يعتبرها الآن عبقريّة. كلّ الشروط التي قد تقبلها ونحن أسيراه الآن، ستصبح باطلة بعد تحرّرنا، لأنّك تكون حينئذٍ قد تصرّفت تحت الضغط. أكرّر لك: نحن أسيراه، أي أنّنا ملزمان بالقبول بمشيئته، للحفاظ على حياتنا، والرحمن، بحكمته الواسعة، لن يحاسبنا على عدم احترام شروط أُمليت علينا، ونحن محرومان من إرادتنا الحرّة، همست له وهي تداعب صدغيه وشعره.

ثمّ انحنت فوقه وغاصت نظرتها الخضراء الساحرة في عينيه السوداوين. ثمّ لثمت شفتيه في قبلة طويلة أغرقته في بحر من الملذّات. وتابعت تقول وهي تبتعد عنه:

– حين نصل إلى مصر، ويحيط بك مماليكك، ستصبح رجلًا لا يُقهر يا حبيبي.

– لسنا في مصر بعد يا شجرة الدرّ، قال بصوت مرتجف وقلق، وهو لا يزال تحت تأثير قبلتها.

– كن متفائلًا، آمرك بذلك يا أميري. لست تملك خيارًا آخر، قالت له بصوت حازم تردّدت فيه نبرة تشي بالغضب وقلّة الصبر. آمِن بالله سبحانه وتعالى، وبقدرك. ثِق بنصائحي. أنظر أين أصبحنا الآن. مَن كان ليصدّق هذا منذ يومين؟ أما خرجنا من السجن للأسباب التي توقُّعتها؟ باتت القاهرة أقرب من

أيّ وقت مضى يا حبيبي. وها أنّ بيبرس، رجلنا المخلص، في طريقه إلى بلبيس، حيث حشد أخوك العادل جنوده. هذا الأخير قلق جدًّا من تحريرك ومن الوفاق المستجدّ بينك وبين الناصر. أثق ببيبرس وبقدرته على تحريض رجال العادل ضدّه في وقت وجيز. لواثقة من أنّه يكفي أن يُقال لهم إنّك حرّ وفي طريقك إلى القاهرة، حتّى يتخلّصوا من ذلك الضعيف، ويفتحوا أبواب القاهرة على مصراعيها أمامك.

– ليتني أتحلّى بتفاؤلك وإيمانك بمصيرنا يا حبيبتي، قال لها بنظرة معتمة.

حينذاك، تأكّدت شجرة الدرّ من أنّ المِحَن الأخيرة قد أرهقت زوجها. كان يجدر إخراجه من هذه الحلقة المفرغة بأيّ ثمن، فيستطيع أن يرى النور الذي كانت هي تلمحه في نهاية هذه الرحلة إلى القدس.

– إطمئنّ يا عزيزي. كلّ شيء يشير إلى أنّ قادة الجيش الترك في مصر قد حزموا أمرهم. هم يرفضون تحمّل مذلّة خدمة سيّد كهذا. هدير الثورة يرتفع في صفوف الجيش، كما أنّ لبيبرس من الحيلة والإقناع ما يضمن نجاح مهمّته. سينادي المتمرّدون باسمك عاليًا، ويختارونك وريثًا وحيدًا وشرعيًّا للكامل.

– أي أنّني سأصبح ملكًا بفضل الجنود الترك في مصر، قال بنبرة تنمّ عن شيء من الاستياء.

– لا، ستصبح سلطانًا لأنّك الوريث الشرعيّ للكامل، وابنه البكر والأمير الأيوبيّ الوحيد الجدير بالجلوس على عرش صلاح الدين الكبير. الجنود الترك هم وسيلتنا الوحيدة لاعتلاء عرش السلطنة. لا مال لدينا، ولا جنود، كما ولا نزال تحت رحمة رجل مخادع وطمّاع. لذلك كلّ الوسائل مقبولة للخروج من هذا الطريق المسدود. لنذهب للاستيلاء على العرش، وبعد ذلك نفعل ما علينا فعله للاحتفاظ به.

نطقت شجرة الدرّ بتلك الكلمات بصوت واثق وقويّ. كانت آنذاك تهدهد زوجها بين ذراعيها، كما قد تهدهد طفلًا يفتقر إلى الحنان. آلمها أن ترى ما آلت إليه حال الأمير، فضمّته بشدّة إلى صدرها.

في خلال السنتين المنصرمتين، ومنذ بداية رحلتهما، كان القدر يسدّد إليهما الضربة تلو الأخرى، وبلا هوادة. لقد اضطرّا إلى تجاوز كلّ أنواع الأفخاخ والخيانات والتغلّب عليها. بعد أشهر الاحتجاز السبعة، بات الصالح، الرجل الكئيب بالفطرة، أكثر سوداويّة وقسوة وانغلاقًا على نفسه. والأمير العزيز النفس، والشجاع، والمتحفّظ في سلوكه كما في حديثه، قد تحوّل تدريجيًّا إلى شخص غضوب وعنيف وجدّ متعجرف. وحدها امرأته، وبفضل طبعها المرح وحنانها وبراعتها وصبرها، كانت تستطيع تهدئته وردعه. لقد كان مولهًا بها، وراح يبحث أكثر فأكثر إلى نيل موافقتها على كلّ ما ينوي القيام به. كانت هي عالمه وملجأه والدواء الذي أرسله الله ليداوي به آلامه.

نام الصالح هانئًا بين ذراعَي شجرة الدرّ، التي غلبها النعاس هي أيضًا، مطمئنّة، لأنّها علمت أنّ الصالح سيعقد الاتّفاق في اليوم التالي مع الناصر وبدون نقاش.

***

بدءًا من ذلك اليوم، أخذت الريح تهبّ في مصلحتهما، وتحسّنت حالهما وكأنّما بفعل السحر. أمّا الجنود الأتراك الذين أرسلهم العادل إلى بلبيس لقطع الطريق على أخيه السائر إلى القاهرة ومعه الناصر وجنوده، والذين ضاقوا ذرعًا بعدم كفاءة هذا السطان وزمرته وانحرافاتهم، فقد ثاروا عليه وانضمّوا إلى الصالح. في الوقت عينه انتفض المماليك الذين بقوا في مصر، فخلعوا العادل عن عرشه وسجنوه في قلعة القاهرة. وأخيرًا انفتحت أبواب مصر واسعة أمام الصالح وشجرة الدرّ.

في يوم صاف من يونيو 1240، دخل مصر الرجل الذي سيصبح سلطانًا عليها. هتف الشعب

للمَلكين الجديدين حالما وطئت أقدامهما الأرض المصريّة. راح المنادون يجوبون الشوارع قارعين الطبول لإعلان الخبر السعيد. تزيَّنت المدن بأفخم حللها، وعمّتها الاحتفالات الشعبيّة الواسعة. سار الصالح ووزوجته ترافقهما الأهازيج والرقص على طول الطريق إلى القلعة، وصولًا إلى قاعة العرش.

قصر القلعة
1257، ما من ويل أشدّ ممّا حلّ بنا

تهادت سحابة، مصرّة على العبور وحيدة وسط سماء صافية رائعة الزرقة. في قصر القلعة، ومن خلال النافذة المطلّة على حديقة الباحة الداخليّة المخصّصة للنساء، راحت شجرة الدرّ المسترخية على أريكتها، تتفرّس فيها. إذ عادت بهدوء من حلم يقظتها، تلوح على شفتيها ابتسامة خفيفة، أخذت تتابع مصير تلك العنيدة باهتمام، وتنتظر لحظة اختفائها المحتوم من صفحة الجلد. كادت تلك السحابة التي اتّخذت في عينَيها شكل سمكة، أن تثير شفقتها لأنّها تاهت على هذا النحو خارج مياهها. من هي تلك المزعجة التي أتت تفرض نفسها هكذا على صفاء السماء؟ كيف وصلت إلى هنا؟ مالت شجرة الدرّ برأسها إلى اليمين لتواصل متابعة مصير السحابة-السمكة التي يحملها نسيم لطيف. ثمّ ضيّقت بعينيها حين أدركت أنّ السمكة تفقد شيئًا فشيئًا شكلها الجميل لتتلاشى نهائيًّا. لقد أتمّت مسيرتها القصيرة قبل أن تختفي إلى الأبد. عادت السماء إلى زرقتها المطلقة التي لا تعكّر تناغمها أيّة لطخة.

وعادت شجرة الدرّ للتفكير في شؤونها الحاليّة. شعرت بنواة خطّة تنبت في داخلها. كان عليها أن تتّخذ قرارًا بسرعة وتبدأ التطبيق بدون أيّة انفعالات. كانت في خطر كبير، وقد أكّد لها أيبك ذلك. لحسن الحظّ أنّه انصرف ظانًّا بسذاجة أنّه قهر مقاومتها. كان حبّ السلطة قد أفسد الرجل وأعمت بصيرتَه نجاحاتُه الأخيرة، كما تعاظم اعتداده بالنفس، بعكس ذاكرته التي راحت تتضاءل أكثر فأكثر. لقد خرج مقتنعًا بأنّه أخضع السلطانة، زوجته، أو أقلّه مؤقّتا.

كان عليها أن تغتنم الفرصة التي منحتها إيّاها العناية الإلهيّة. لطالما احتفظت في سراديب عقلها، بالخطّة الضروريّة لمعالجة وضع أيبك، وذلك منذ أن افترقا. لكنّها كانت تتمنّى ألّا تُضطرّ إلى اللجوء إليها أبدًا. غير أنّ لقاء هذا الصباح أكّد لها أنّ الحلّ الجذريّ بات ضروريًّا، بل هو خشبة الخلاص الوحيدة. كان من المجازفة تطبيقه، لكنّ المخاطر لم تثنِها يومًا عن عزمها، وهي حتمًا لن تتراجع الآن، وليس في هذا الوقت على وجه التحديد؛ فقد سيطرت عليها رغبة كبيرة في الثأر والنفوذ، رغبة تفوق كلّ اعتبار.

إيّاك أن تأتي أمرًا في حالة غضب: هل ترفع أشرعتك في العاصفة؟

أطلق أيبك تنهيدة عميقة من المتعة. ظنّ أنّه أحسن صنيعًا بالمجيء للاستحمام عند شجرة الدرّ، برغم نظرات اللوم التي رمقه بها وزيره الفايزي، وتحذيرات عبد الرحمن، مستشاره للشؤون الدينيّة، والدائم التمتمة في لحيته الطويلة البيضاء. كان أيبك قد نسي مهارة شجرة الدرّ في اختيار أفضل الزيوت وأمهر المدلّكات لحمّامه. إن كان واثقًا من أمر فهو أنّ تلك المرأة العذبة تتقن الاعتناء بجسده. كان الحمّام لديها بعد مجهود مباراة البولو لذّة حقيقيّة صرفة.

كيف له بالحذر من أيّ شخص أو من أيّ شيء كان، وسط هذا محيط المتعة الخالصة هذا؟ بين أيدي فاطمة وسامية الماهرتين، سرعان ما تلاشت كلّ ذكرى للفايزي أو لعبد الرحمن. راحت المرأتان تدلّكان بنشاطٍ ظهر المحارب البارز العضلات وساقيه المنحوتتين، فيما أيديهما السمراء الأربع تصقل البشرة البيضاء وفقًا لتعليمات سيّدة المكان: يجب بذل أفضل ما تملكان من فنّ ومن قدرة ليعيش السلطان لحظات من السعادة المطلقة. فالاسترخاء سيخفّف من حذره، وتتضاءل قدراته على الإتيان بأيّ ردّ فعل، وتلك هي الشروط المطلوبة لإنجاح خطّة شجرة الدرّ.

الواقع أنّها انتهت وسط هواجسها، بقبول الخطّة التي فرضت نفسها، وباعتمادها كالحلّ الأوحد والأنجع. ما إن اتّخذت قرارها هذا حتّى شعرت بأنّها تحرّرت. فالانتقال إلى الفعل بعد أشهر الانزواء، والمليئة بالأفكار المرعبة والسوداويّة حول مستقبلها، قد أعاد التورّد إلى وجنتيها الشاحبتين، والألق إلى عينيها اللتين طوّقتهما الدوائر السوداء. لكنّه كان ألقًا محمومًا، وغير مألوف.

بعزم، وخصوصًا قبل أن تفقد شجاعتها، بدأت شجرة الدرّ تُعدّ كلّ ما يجب إعداده للحمّام الذي وعدها السلطان بأن يأخذه عندها بعد مباراة البولو. يجب أن يكون هذا الحمّام، وهو الأخير لأيبك، كاملًا. كان الرهان ضخمًا، والنتائج خطيرة، يصعب التحكّم بها. ومع ذلك، رأت السلطانة أنّ المجازفة تستحقّ خوضها. فالشكّ، بما يتضمنّه من آمال، أسهل احتمالًا في ذهن شجرة الدرّ، منه يقين النهاية المشؤومة على يدَي زوجة أيبك الجديدة.

كان عليها أن تستعيد القدرة على كتابة تاريخهما، بعدما حاول أيبك احتكار الريشة وشطب شجرة الدرّ. لا، السلطانة هي التي ستكتب خاتمة الرواية، وبريشة مغمّسة بالحبر الأحمر. لم تكن شجرة الدرّ لتتقبّل إهانة أيبك، وتهدّئ العاصفة التي أطلقتها خيانته. لقد اتّخذت قرار امرأة جُرحت مرّتين: مرّة في كرامتها ومرّة في قلبها. كان السقوط في الهاوية قد بدأ قبل أن تقرّر خطّتها ضدّ أيبك. لعلّ السقوط محتوم، لكنّه سيتمّ وفقًا لشروطها هي.

تلقّت نساء الحريم أمرًا صارمًا بالبقاء في غرفهنّ، وعدم الاقتراب من قاعة حمّام السلطانة، تحت طائلة العقاب بالضرب بالعصيّ. وقد كُلّف خصيان مسلّحون بالوقوف في محيط الحمّام، للتأكّد من عدم اقتراب أيّة واحدة منهنّ عن فضول، ذلك الفضول النسائيّ الذي لا يشبع. في سلّم مشاعر النساء، كان الفضول عيبًا قد يتغلّب أحيانًا على الخوف، وخصوصًا في كنف حريم، حيث يقضي النساء أوقاتهنّ بإضاعة الوقت أو بالضجر أو بالتجسُّس على بعضهنّ البعض.

كانت شجرة الدرّ تسود، إن لم يكن على ولاء معظم إماء الحريم، فأقلّه على احترامهنّ، وبالحدّ الأدنى على خشيتهنّ. وقد تسنّى لها الوقت والفرص الكثيرة لفرض سلطتها. كانت نساء الحريم قد اعتدن تقلّبات مزاج سلطانتهنّ، ولا يناقشنَ أوامرها، أو يبدينَ تردُّدا، بل يسارعنَ إلى الخضوع. ومع

ذلك، فحسد بعضهنّ المكبوت قد يكون على قدر عالٍ من الخطورة في أوقات الأزمة والشكّ هذه. كانت غرائز أولئك النساء يقظة، ويستشعرنَ الجوّ الثقيل المخيِّم على الحريم منذ أشهر. وكان جميعهنّ يعلم بأنّ شجرة الدرّ تنتظر زيارة السلطان.

في البلاط، كان جمال الدين محسن، رئيس الخصيان، من أوفى عملاء السلطانة، ومستشارها وخادمها منذ عهد طويل. كما كان مقرَّبا من زوجها الأوّل، السلطان الصالح. كذلك، كانت شجرة الدرّ تولي حارسها الشخصيّ كافور، ثقة عمياء، وهو كومة ضخمة من العضلات، وأسود كالليل. كان كافور أيضًا رئيس فرقة حرّاس الحريم وكلّهم من الخصيان، يُسمح لهم بدخول الحريم والبقاء على مقربة من النساء وحراستهنّ. طبعًا، كانت نايا المخلصة حاضرة دائمًا لتساعد سيّدتها في كلّ ما تقوم به، بدون أن تطرح أيّ سؤال. من جهته، كان جمال الدين محسن قد أطلع عبده الشخصيّ، سنجر الجفري، وهو خصيّ مثله، على الخطّة المزمع تنفيذها.

هؤلاء فقط كانوا على علم بالنوايا الحقيقيّة لشجرة الدرّ. أمّا المشاركون الآخرون في المأساة التي كان يُعدّ لها، فلم يكونوا سوى عبيد جاهلين ومطيعين. تلك كانت حال فاطمة وسامية، الراكعتين على جانبَي مقعد رخاميّ والمنهمكتين في تدليك جسد أيبك الرياضيّ. كانت تنهيدات اللذّة التي يطلقها تطمئنانهما إلى نوعيّة عملهما. لا شكّ بأنّ السلطانة ستكون راضية. كما أنّها كانت موجودة في الحمّام، وتدور حول المقعد الذي تمدّد عليه أيبك، وتحت بطنه قطعة قماش من الكتّان الأبيض المطرّز بورود كبيرة حمراء فوق أغصان يانعة ووافرة.

يداه تحت ذقنه، راح أيبك يلوي عنقه ليرمقها تمرّ بالقرب منه، جميلة ورشيقة. بين الفينة والفينة كانت تنحني لتبتسم له، وتداعب شعره، وتستفسره عمّا يرغب فيه. ثمّ تختفي خلف عمود جميل من الرخام الأبيض المصقول، لتعود للظهور بخطواتها الخفيفة الشبيهة بخطوات راقصة. أطالت ذلك الطواف حول مضجع أيبك، بدون أن تفارق شفتيها تلك الابتسامة المغرية والواعدة بألف لذّة ولذّة. كانت رؤية قدميها الصغيرتين عاريتين على الرخام المبلّل تغرق السلطان من جديد في ذكريات لقائهما، والملذّات التي تستطيع تلك المرأة توفيرها.

في عالم الدفء والمتعة هذا، المحاط بجدران مكسوّة ببلاط خزفيّ نفيس أبيض ذي منمنمات مزهرة بالفيروزيّ والأخضر الغامق والكحليّ مع أزهار صغيرة برتقاليّة، كان أيبك تحت تأثير الساحرة التي تترصّده. لقد نجحَت في جعله ينسى كلّ ما هو خارج تلك الحدود المائيّة. غاص السلطان في الجوّ الذي أعدّته له تلك الحوريّة، والتي بدت أجمل تحت نور الحمّام الخافت الذي تبعثر شعاعه الهادىء كشذرات ذهب تتناثر في الهواء. كانت أشعّة الشمس الغاربة تتسلّل إلى وسط السقف، عبر فتحات القبّة الصغيرة، والتي كانت تسمح أيضًا بتهوئة القاعة. في الزوايا وعلى كلٍّ من جهات النافورة الرخاميّة البيضاء المنتصبة في الوسط، قد أُشعلت بضعة مصابيح زيتيّة تبثّ أنوارًا حالمة. وعلى جانبَي باب المدخل عُلّقت مباخر فضيّة، يتصاعد منها عطر ثقيل ومُسكِر، ملأت أبخرته الهواء، أكثف ممّا هي في العادة. أحاط ذلك الجوّ الرقيق والمثير بالسلطان، وأضفى عليه سعادة، وثقة، واسترخاء، وخفّة.

كانت كاهنة ذلك المعبد قد اتّخذت الوقت لتغيير ملابسها، من أجل احتفال الوداع هذا: ارتدت سروالًا منتفخًا من الحرير الأصفر، غنيّ التطريز بالخيوط الذهبيّة، والخيوط الحمراء والبرتقاليّة على هيئة طيور خرافيّة، عيونها من حبّات الزمرّد الحقيقيّة. بفعل الرطوبة، التصق السروال بساقَي شجرة الدرّ الممشوقتين، فزاد من حمّى الرغبة التي تملّكت أيبك. فوق السروال انسدل قميص فضفاض وأصفر هو الآخر، مشقوق عند الجانبين، ومطرّز بالطيور عينها ذوات الأعناق الطويلة والجميلة. لم تشدّ خصرها بحزام، كما تركت صديريّتها الصفراء أيضًا مفتوحة. وقد التصق القميص الرطب بثدييها المستديرين الجميلين.

كانت تلك المرأة في عينَي أيبك شعاعًا من الشمس، سقط من السماء ليحرقه بناره المقدّسة. كان شعرها منسدلًا تحت عمرة حريريّة صفراء بشكل عمامة، وفي وسطها مشبك ذهبيّ مرصّع بياقوتة رائعة، حمراء بلون الدم، وكبيرة كبيضة يمامة، تحيط بها لآلئ بيضاء جميلة. كما اعترض جبينها الأبيض المستتير صفّ من اللآلئ عينها، تتوسّطه ياقوتة شبيهة بياقوتة المشبك، سوى أنّها أصغر حجمًا. وتدلّت من العمامة غلالة حمراء ذات تطريز ذهبيّ دقيق لتمتزج بخصلاتها وترسم حدود وجهها الفاتن، وتلامس صدرها العارم وظهرها. كانت تلك عمرة ملكة حقيقيّة. شعر أيبك برغبة شديدة في أن ينزع عنها ملابسها الجميلة لينال منها عارية، هنا وبدون تأخير، لشدّة النار التي أشعلت حواسّه.

سألت فاطمة وسامية السلطان أن يستدير. ثمّ بدأت سامية بتدليك رأسه، وفي الوقت عينه انصرفت فاطمة إلى تدليك قدميه. أغمض أيبك عينيه، واستسلم للارتياح الذي أغدقته عليه أيدي الأمتين البارعتين. لم يكن يشكّ في أنّ شجرة الدرّ ستشاركه سريره في وقت لاحق من ذلك المساء.

توقّفت شجرة الدرّ أمام أيبك وحدّقت فيه بعينيها الزمرّديّتين اللتين زادت من اتّساعهما، خطوط الكحل الأسود المرسومة بيد نايا البارعة. فقط لو أنّ السلطان استطاع أن يراهما: كانتا عينَي هرّ يحدّق في عصفور، فريسته الغافلة عن خطر الموت المتربّص بها.

– هل مولاي راضٍ عن عمل خادمتيّ؟ سألته برفق ولطف. هل ينقص لذّته شيء؟ هل هو جائع؟ هل هو عطش؟

– نعم، عطش لك أيّتها الساحرة الجميلة. أرغب في أن أشرب رحيق شفتيك اليانعتين، أجابها بدون أن يفتح عينيه.

– آه، وأنا التي ظننتُ بأنّ سلطان قلبي قد نسيني تمامًا، وتخلّى عنّي لأجل ثمار لم تنضج بعد، ولا طعم لها. يغمر الفرح قلبي حين أتيقّن من أنّ الحَسَدة لم يصيبوا، أجابت وهي ترمق الباب بنظرة سريعة، وإنّما كافية لتلمح إشارة الخصيّ محسن.

كان كلّ شيء جاهزًا، في انتظار أن تعطي هي الإشارة الخضراء. حرصت على البقاء في الجهة الثانية من الغرفة لصرف انتباه السلطان عن الباب.

– أنا أيضًا عطشة، تابعت تقول، عطشة حقًّا. ولا شيء سوى الماء البارد يستطيع أن يروي غليلي.

وفكّرت في سرّها: «العطش للانتقام».

صفّقت بيديها ثلاث مرّات. تلك كانت الإشارة.

– نايا، أسرعي، الشراب.

رافقت صوتَها الرقيق والهادئ جدًّا في العادة، نبرة توتّر شبه خفيّة. لكنّ أيبك الذي خدّر جوّ الحمّام غرائزه، وانصبّ اهتمامه كلّه على السلطانة، لم يفطن للأمر، كما تجاهل وقع الخطوات الثقيلة المسرعة نحوه، والتي لم تكن بطبيعة الحال، خطوات نايا الممشوقة.

في لمحة بصر، وقع أسير قوّة ذراعين سوداوين سمّرتاه في مكانه. كان سنجر الجفري أوّل المهاجمين، وبضربة واحدة من ظاهر يديه العملاقتين، قذف سامية وفاطمة جانبًا. تلاه كافور الذي جمَّد ساقَي أيبك.

بسرعة البرق، التمع السيف أمام عينَي السلطان المحملقتين ذهولًا، والجاحظتين رعبًا، قبل أن يمزّق بوحشيّة جلده وعضلات صدره. بفعل استعجاله، أخطأ جمال الدين قلب أيبك بفارق بضعة مليمترات. أيقظ الألم الهائل السلطان من الذهول الذي ضربه مع ضربة السيف. كان لا يزال حيًّا.

أفلتت صيحة رهيبة، كصرخة حيوان يُذبح، من شفتيه ومن صدره المفجوج. أسرع سنجر وكمّ بيده فم السلطان لمنعه من الاستغاثة. راحت نظرات أيبك تبحث بيأس عن شجرة الدرّ، حيث كان قبل ثانية فقط، أو قبل دهر، يسمع صوتها الرقيق يستفسره عن رغباته.

جامدةً بأكملها، كانت شجرة الدرّ ملتصقة بأحد الأعمدة الرخاميّة البيضاء. كان لوجهها شحوب رخام هذه الأخيرة، وقد نـتأت عيناها فزعًا، وانحبست أنفاسها، وتباعدت شفتاها في تعبير عن رعب مباغت وصاعق، وشدّت قبضتيها المغلقتين، والمتقزّزتين إلى صدرها.

مع حرارة الحمّام، أخذ الدم يسيل بسرعة من الجرح المفتوح في صدر أيبك. ضاعف لون الدم أضعافًا لا عدّ لها، الورود الحمراء المطرّزة على قماش الكتّان الأبيض تحت جسده. واصلت قطرات الدم طريقها لتسقط على الأرض المبلّلة. راحت شجرة الدرّ تتأمّلها، وقد تحوّلت نظرة الفزع في عينيها إلى نظرة مشوّشة وأكثر رقّة، نظرة شخص حالم، وهو لا يزال مستيقظًا، نظرة مَن لا يصدّق ما ترويه له عيناه. كان عقلها يرفض الاعتراف بالحقيقة. لا شكّ بأنّ هذا كلّه حلم، رؤيا لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

لكنّ أنينًا مرعبًا أطلقه أيبك ذكّرها بقسوة بأنّها لم تكن في حلم. جاء تجسّد خطّتها ليسقط على ضميرها ثقيلًا، بعنفه ورعبه الدامي. رغم أنّها أرادت هذا العمل وأعدّت له بعناية، وجدت صعوبة في تقبّله بعدما تحقّق.

أدرك أيبك، بما بقي له من صفاء ذهن، أنّ فرصته الوحيدة والضئيلة في النجاة تكمن بين يدَي هذه المرأة التي أراد إزاحتها عن السلطة. في تلك اللحظة الحاسمة من حياته، كانت هي سيّدة السلطة المطلقة، وهي من تمتلك خيار إنقاذه أو الإجهاز عليه.

كان يحاول إزاحة يد سنجر عن فمه، بدون جدوى. فهمت شجرة الدرّ من نظرته اليائسة أنّه يريد مكالمتها، فاقتربت منه بحركة بطيئة، تكاد تشي بالخوف، وأومأت بحركة خفيفة من رأسها إلى سنجر. فانزاحت اليد العملاقة عن فم الرجل المحتضر، ما يكفي فقط للسماح له بأن يتكلّم، أو للعودة لكمّه فورًا إن حاول الاستغاثة.

بصوت مرتجف، أسكره الألم والإذلال، توسّل أيبك السلطانة قائلًا:

– أرجوك يا شجرة الدرّ، لم يفُت الأوان. دعيني أعيش وسنعود كما كنّا. سأعيد إليك كلّ ما أخذته منك. أنا نادم بمرارة على كلّ ما دبّرته ضدّك. أفهم غضبك. أنت جعلتِني ملكًا، أمّا أنا فخنتُك. إمنحيني فرصة لكي أكفّر عن ذنبي. ماذا ستكون حالك بدوني؟ هل فكّرت في ذلك؟

كان جمال الدين محسن يعرف سيّدته حقّ المعرفة. تبيّن في عينيها الاشمئزاز: الاشمئزاز من الرجل الذي يجرؤ على التوسّل إليها بعدما حاول أن يسلبها كلّ شيء، وأيضًا الاشمئزاز من الفعل الدمويّ، من الاغتيال. خشي فجأةً أن تخامرها فكرة التراجع. كانت يدا جمال الدين ممسكتين بالسيف الدامي فوق صدر أيبك، جاهزتين لتوجيه الضربة القاضية، فقرّر التدخّل.

– فات الأوان يا سلطانتي، لقد تجاوزنا نقطة اللاعودة. والآن هي حياتنا مقابل حياته. لا تصغي إلى مَن خانك، فهو لن يتردّد لحظة واحدة في التخلّص منك إذا ضعفتِ أو فكّرت في العفو عنه.

كان سنجر يثبّت بكلّ قوّته صدر أيبك، الذي شعر لدى سماعه أقوال جمال الدين، بأنّ فرصه في النجاة تتضاءل. راح، وبما ولّده فيه اليأس من قوى، يتخبّط بجنون، متوهّمًا أنّه يستطيع التخلّص من قبضة العبد. لكنّ ساقيه بقيتا مجمّدتين بذراعَي الخصيّ الأسود كافور، وأبواب الحمّام الثقيلة موصدة، يحرسها الخدم. كان الفخّ قد أطبق تمامًا على السلطان. وبقي جمال الدين محسن رافعًا السيف فوق صدره، ينتظر أمر السلطانة النهائيّ.

إتّجهت الأنظار كلّها إلى شجرة الدرّ. نظرات الضحيّة، كما نظرات الجلاّدين، ونظرات نايا والمدلّكتين، المتقوقعتين عند أسفل أحد جدران الحمّام، ورأساهما بين ركابهما. رفعتا عيونهما في انتظار صدور الحُكم. شعرت السلطانة بضغط كلّ تلك النظرات، وما تحمله من توقّعات وما تعبّر عنه من ثقة. كان عليها أن تحزم أمرها. فجأةً، هدأ قلبها الذي كان يخفق في صدرها كقلب عصفور جريح. أدركت أنّها اختارت، وأنّها لا تستطيع، ولا تريد أن تتراجع وتعفو عن هذا الخائن الجاحد.

كشفت عينا أيبك المغرورقتين بالدموع أنّه يدرك النهاية الوحيدة الممكنة لهذه المأساة. بإيماءة خفيفة من رأسها الجميل، حسمت شجرة الدرّ مصير زوجها، هامسة:

– ليس هذا إلّا عدلًا.

وفي سرّها، أتمّت جملتها قائلة: «العين بالعين، والسنّ بالسنّ، والبادئ أظلم. لم أكن أتمنّى الوصول إلى هنا، إلى هذه المجزرة الفظيعة».

هذه المرّة، أحسن الخصيّ التصويب. واخترق السيف قلب السلطان.

***

حينذاك، كانت أشعّة الشمس الغاربة تضيء بخجل حمّامات الملكة والجثّة المتروكة على المقعد. كانت خيوط متداخلة من الدم تسيل على الرخام الأبيض، متّجهة نحو قنوات تصريف المياه المستهلَكَة، وقد تحوّل لون الأخيرة من الورديّ إلى الأحمر، ما أضفى واقعيّة على المشهد الممتدّ أمام أنظار المتآمرين. لقد مات السلطان، وقد قُتل بأيديهم، وعلى مرأى منهم. إبتعدوا قليلًا عنه، يتأمّلون ما صنعته أيديهم وكأنّما يريدون تأخير اللحظة حيث عليهم أن يواجهوا عواقب ما فعلوا.

بدا السلطان بوجهه الملتفت نحو السقف، وعينيه اللتين لا تزالان مفتوحتين، ضعيفًا ووحيدًا، ويكاد يكون مثيرًا للشفقة. كانت نظرته مليئة بالرعب والعذاب، وكأنّه لا يستطيع ولو في مماته أن يتقبّل نهاية كهذه. كانت ذراعه التي مدّها نحو شجرة الدرّ متوسّلًا قد هوت إلى جانبه، وأصابعها لا تزال مفتوحة في وضع استرحام أخير، فيما بقيت الذراع الأخرى منقبضة بمحاذاة جرح صدره المفتوح. كانت ساقاه ممدودتين على المقعد كقطعتَي خشب لا جدوى منهما، فيما ظلّ وركاه تحت الغطاء الكتانيّ، الذي غلب اللون الأحمر بياضه.

لبرهة اكتست السماء باللون الأحمر، وكأنّما أشعلها غروب الشمس، كبادرة وداع للملك المقتول، قبل أن تغشاها ظلمة متسارعة. تناوبت درجات الأزرق الليليّ كلّها على استباق السواد المرصّع بأضواء الثريّا، ودخل قصر القلعة ليلًا تملأه النجوم ولكن، قاتم، من دون قمر. وهكذا انتهى يوم 10 أبريل 1257 الربيعيّ، وسط ظلال الموت والشكّ.

أمّ عليّ

سبق لأمّ عليّ، مطلّقة أيبك ووالدة ابنه الوحيد نور الدين عليّ، أن طُردت بناء على أوامر السلطانة شجرة الدرّ، غير القابلة للنقاش. منذ ذلك الحين أضمرت لها كراهية لا مثيل لها. في تلك الليلة، وسم الاضطراب نومها وسكنه كابوس متكرّر، يظهر فيه أيبك شاحب الوجه ومتألّمًا، يمدّ إليها يديه طالبًا العون، وخلفه وجه امرأة وطيفها: تلك المرأة المكروهة، وموضوع الغيرة، ومصدر كلّ متاعب أمّ عليّ، وهدف كلّ لعناتها، وسارقة الرجال؛ شجرة الدرّ.

كانت أمّ عليّ تكنّ لزوجها إعجابًا وحبًّا لا حدود لهما، حتّى أنّهما تضاعفا منذ أن تركها ليتزوّج من شجرة الدرّ، وأصبح سلطانًا على مصر. كان عشقها له يقتات من كراهيتها لغريمتها، كراهية لم تنفكّ تجترّها منذ انفصالها عن زوجها. كانت مستعدّة للبقاء خادمة في حريم السلطان لتتمتّع برؤية هذا الأخير من وقت لآخر، لكنّ السلطانة اعترضت على الأمر بشدّة. وحده نور الدين عليّ كان يحقّ له المجيء لرؤية أبيه.

بيد أنّ وضع أمّ عليّ قد شهد بعض التحسّن في السنتين الأخيرتين. فقد أتى السلطان مرّات نادرة لزيارتها. وتحديدًا، بات يستدعي ابنه الذي بات له من العمر خمسة عشر عامًا، للمجيء لرؤيته والجلوس بجانبه في مجلسه. كان يبدي اهتمامًا بتربيته المدنيّة والدينيّة والعسكريّة. إعتبرت أمّ عليّ عودة الاهتمام بها وبابنها، بمثابة عطيّةٍ من السماء. وقد عرفت، بحدسها الذي صقلته سنوات العذاب، كيف تُسكِت شكواها وملامتها، مستقبلةً بكلّ ما يليق بالسلطان من الاحترام والعاطفة، النزر اليسير من الانتباه الذي يتنازل بإظهاره لها.

إبتهجت أمّ عليّ في سرّها بما فسّرته، وبشكل صائب على ما يبدو، كمؤشّر لفقدان الملكة تأثيرها على أيبك. ثمّ سُرّت بشائعات انفصال شجرة الدرّ عن أيبك. وفي النهاية، أسعدتها أخبار خطوبة السلطان على أميرة شابّة. لكنّها برغم ذلك، لم تُشفَ من العذاب الذي سبّبه لها طلاقها، قبل سبع سنوات، بناءً على طلب السلطانة. فباتت كراهيتها الشديدة إلى جانب أفكارها الانتقاميّة المتواصلة، تشغل أيّامها ولياليها، بلا هوادة.

أطلّ الفجر بألوانه الورديّة والبرتقاليّة. كانت الشمس تتأهّب لإضاءة شوارع القاهرة. قرّرت أمّ عليّ أخيرًا أن تغادر سريرها وذهبت توقظ ابنها. رجته أن يتوجّه إلى القلعة للاستعلام عن أخبارٍ أبيه. روت له الكابوس الذي راودها والذي اعتبرته نذير شؤم، مؤكّدة أنّها لم تنفكّ تستيقظ سابحةً في عرقها ودموعها، من شدّة ما أقلقها ذلك الحلم الرهيب، والذي يحاكي الواقع لدرجة أنّها شعرت أنّ بوسعها لمس يدَي أيبك الممدودتين.

إلتمعت عيناها المحمومتان، كعيون المهجوسين الذين تتآكل أجسادهم فكرة واحدة ووحيدة، وقد باتت هدف حياتهم، ومعناها ووجهة سيرها. إذ تسكنهم الفكرة عينها ليل نهار، غالبًا ما ينتهي هؤلاء بامتلاك قدرات قراءة الغيب، في ما يتعلّق بموضوع هاجسهم. وهكذا كانت أمّ عليّ لتستشعر موت أيبك، في أعماق روحها.

– والدك العزيز قد مات أو هو يعاني عذابات الموت. تلك اللعينة شجرة الدرّ تضمر له الشرّ منذ خطوبته بأميرة الموصل. أنا متأكّدة من أنّه يحتاج إلى مساعدتنا، لا يمكن تفسير حلمي على نحو آخر. صدّقني، صرّت لابنها. أسرِع يا بنيّ. أسرِع إلى ديوان أبيك السلطان، ولكن في طريقك، مرّ بقصر قُطُز نائب السلطان. ستحتاج إلى مساعدته لاجتياز أبواب قصر القلعة.

سرعان ما أثارت هواجس الأمّ ذعر الابن. فلطالما كان والده مصدر إعجابه الشديد، ووالدته مصدر قلقه واضطرابه. إرتدى ملابسه على عجل، وحمل معه قطعة خبز كفطور، وغادر المنزل المتواضع، فيما كان نهار 11 أبريل 1257 يستعدّ ليعرض ألوانه الرائعة على سكّان القاهرة.

ولكنّ أمّ عليّ سرعان ما أعادت النظر في ما فعلته. فلئن كان الوضع مأساويًّا كما تظنّه، فمن المؤكّد أنّ ابنها ليس قادرًا، ولو كان برفقة نائب الملك، على مواجهة تلك المرأة. كانت قوّة غامضة تجتذب أمّ عليّ إلى مسرح المأساة، أي إلى قصر شجرة الدرّ، ولم تستطع مقاومتها. شعرت بأنّ ساعة الانتقام قد دنت أخيرًا، وبأنّ ابنها سيكون بحاجة إلى عونها لإحراز النصر.

أيقظت خادمتها وشريكتها، كريمة، وأخطرتها بشكوكها. ثمّ طلبت منها أن تستعدّ، وأن تحمل سلّة بلح لتبدو كبائعة متجوّلة، وتدخل حرم القلعة. بعد ذلك، كان عليها أن تجد وسيلة لتنبيه شريكتها في داخل الحريم: مرجانة، خادمة عجوز كانت في خدمة الزوجة الأولى للصالح، والدة طوران شاه. كانت مرجانة شنيعة الخلق ودنيئة، وقد كرهت من النظرة الأولى شجرة الدرّ، حتّى أنّها كانت مستعدّة لتفعل أيّ شيء من أجل إيذائها. كانت الحليفة المثاليّة لأمّ عليّ.

طلبت أمّ عليّ من خادمتها موافاتها بعد بضع ساعات عند باب ثانويّ للقلعة، وهو مكان سبق لمرجانة أن أوصت باستعماله إن دعت الحاجة. كان ذلك الباب يسمح بدخول القلعة، بدون لفت الانتباه.

– لا شكّ بأنّ قُطُز نائب السلطان، ونور الدين عليّ سيطلبان رؤية أيبك. عليك ومرجانة أن تراقبا سير الأمور في الحريم. إذا ما خرجت شجرة الدرّ لسبب أو لآخر، إلى قاعة العرش، مكان السلطان، علينا أن نتبعها ونحضر الجلسة. أنا على قناعة تامّة بأنّ الرجلين الباسلين سيحتاجان إلى مساعدتنا، لمواجهة ترسانة الأكاذيب والأفخاخ التي بوسع تلك المرأة إطلاقها.

جمال الدين محسن

بعد إعدام زوجها، دخلت شجرة الدرّ في حالة من الفراغ العاطفيّ. لا بهجة ولا ندم أو حزن، بل غمامة بيضاء أغشت وعيها، كغلالة من الحرير الشفّاف، ستارة تحمي قلبها ودماغها من عنف اللحظات الأخيرة، والتي خرجت منها مرفوعة الرأس، تتقدّم بخطى آليّة وإنّما خفيفة على نحو غريب، لتسلك دربها إلى جناحها الخاصّ.

في انتظار تعليمات جديدة من سيّدته، بقي كافور في المكان ليحرس المدخل، ويمنع أحدًا من المغامرة بالدخول. قاد سنجر سامية وفاطمة إلى غرفة معزولة عن الحريم. لم يتلقّ الخصيان، على خلاف العادة، أمرًا بالسماح لنساء الحريم بمغادرة غرفهنّ والتجوّل بحريّة. خيّم على هذا العالم النسائيّ صمت غير مألوف.

مع ابتعاد السلطانة عن الحمّامات وعن جثّة السلطان المقتول، راحت تشعر بشيء من الحريّة، وبارتياح يكاد يكون شيطانيًّا. أخذت تتنفّس بسهولة أكبر، وكأنّما تخلّصت من مشدّ ضيّق كان يخنقها.

دخلت إلى جناحها، تتبعها نايا، وأسرعت ناحية حوض اغتسال وإبريق من الذهب الخالص، لتغسل يديها. نزعت عنها ملابسها بحركات سريعة، وكأنّها تريد أن تتحرّر من عبء ما. وبيد رشيقة، حرّرت رأسها وشعرها من العمرة التي كانت تأسرهما. عاريةً، أخذت جرّة ابتلعت منها جرعات عدّة من الماء البارد. في عجلتها، كان الماء يسيل من فمها ويبلّل عنقها الجميل. بعد ذلك، أخذت قمقمًا فضيًّا صغيرًا لترشّ وجهها بماء الزهر. وفي النهاية استدارت نحو نايا، وسألتها أن تحضر إليها الشاي على جناح السرعة. فالأجواء كانت تَعِد بليل جدّ طويل.

كانت الملكة تحبّ العيش في النور وتمقت الظلام. إنهمكت نايا بإشعال فتائل عدّة مصابيح زيتيّة توزّعت في الغرف، بعضها يتدلّى من السقف بسلاسل ذهبيّة. كانت مجموعة المصابيح غنيّة، فالسلطانة مولعة بالقطع الجميلة. كان بعض المصابيح من النحاس المشغول، وبعضها الآخر من الزجاج المنفوخ والمزخرف، كما زُيّن معظمها برسوم أزهار، وبآيات من القرآن، مكتوبة بخطوط ذهبيّة جميلة. كان الصالح، زوج شجرة الدرّ الأوّل، قد أهدى إليها أبهى ما صنعه أفضل حرفيّي القاهرة.

مضت نايا إلى المطبخ فيما ارتدت شجرة الدرّ، بمفردها، فستانًا فضفاضًا من كتّان الإسكندريّة الأبيض، مطرّز بالخيوط الذهبيّة عند الكمّين وحول العنق وعلى الحزام الذي يشدّ خصرها النحيف. تحت ذلك الفستان لبست سروالًا أبيض، طُرّزت أطرافه أيضًا بالخيوط الذهبيّة. وبقيت حافية القدمين. عادت نايا بصينيّة الشاي، وأبلغت السلطانة أنّ جمال الدين محسن ينتظر تعليماتها عند الباب.

– أريد أن أشرب الشاي بهدوء، وألّا يزعجني أحد. بعد ذلك أناديه. فلينتظر.

كان جمال الدين محسن بارز السمرة، ضخم البنية، شديد الاعتناء بمظهره، ويعتمر دائمًا عمامة كبيرة تتناسب ولون معطفه. وقد أضفت شفتاه الضخمتان وذقنه الملساء والمستديرة شيئًا من الرخاوة على وجهه، لكنّ عينيه البنّيتين الصغيرتين كانتا تلتمعان ذكاءً ومكرًا. بسرعة، قدّرت شجرة الدرّ صفاته، وبسرعة ساعدته على ارتقاء سلّم السلطة في خدمة زوجها الراحل، الصالح. وقد أصبح منذ ذلك الحين خادمها الأوفى والأشدّ حماسة. كان سندًا لها في كلّ قضاياها، ومؤيِّدًا لكلّ قراراتها. كانت يؤمن بقدراتها، لدرجة قد يظنّ المرء أنّه مغرم بها. لكنّ وزنه الزائد وبشرته الملساء كانا ليشهدا، إذا ما دعت الحاجة، على واقعه خصيًّا من بين الخصيان.

عيل صبر جمال الدين المسكين. سبق له أن تجاوز وشجرة الدرّ الكثير من المحن، لكنّه لم يشعر قطّ بأنّه يواجه خطرًا كبيرًا كهذا، برغم أنّ أيبك لم يكن السلطان الأوّل الذي تمنّيا موته، أو كان عليهما إخفاء وفاته. في النهاية، تغلّب اضطرابه على صبره، فقرّر الذهاب ليقرع برفق باب الجناح الملكيّ. دعاه صوت مستاء إلى الدخول.

إنحنى أمام السلطانة. كانت جالسة على سجّادة رائعة، منسوجة بخيوط الحرير والذهب، ومزخرفة برسوم هندسيّة متماثلة ومتعاكسة، بألوان الملكة المفضّلة. كان ينبعث من المصابيح نور دافئ وناعم، ينعكس على القوارير الكثيرة، وقماقم العطر، وأوعية الكحل العاجيّة أو الفضيّة، المشغولة بمهارة. كانت تلك الأشياء موضوعة على طاولات خفيضة من الخشب المرصَّع باليشب، أو عروق اللؤلؤ، أو الأحجار الكريمة.

كانت شجرة الدرّ مستندة بأحد مرفقيها إلى الوسائد، وتتلذّذ بكوب شاي. أمامها كان باب المصطبة مفتوحًا على حديقة الحريم، التي تتصاعد منها عطور أخّاذة لأنواع متعدّدة من الورود وغيرها من الأزهار. كانت كلّها في طور التفتّح، بعدما لمستها يد الربيع السحريّة والدافئة. ظهرت السلطانة بمظهرها الجميل والنبيل، بدون تبرّج. وقد تموّج شعرها الغنيّ واللامع بحريّة على ظهرها. بدت عيناها زائغتين سارحتين في نجوم سماء داكنة، نجوم منثورة كالدرر الماسّية على المخمل الأسود. كانت موسيقى مياه الحديقة تغمر تلك اللوحة بجمال نادر.

أمام هذا المشهد، انقطعت أنفاس جمال الدين. تردّد، وفكّر في التراجع للعودة لاحقًا. لكنّه تذكّر قلقه فتنحنح وقال:

– أستميحك عفوًا يا مولاتي. ولكن ثقي بأنّني لا أتصرّف إلّا بما هو في مصلحتك. تأخّرنا وبات اتّخاذ القرار أمرًا ملحًّا.

– أنت على حقّ يا عزيزي جمال. ماذا كنت لأفعل لولا وجودك بجانبي؟

إلتفتت إليه بوجه بهيّ كالبدر، علته نظرة باردة وبعيدة، كالضوء الأبيض المنبعث من نجوم تلك الليلة الخالية من القمر.

لقد أعاد ظهور رئيس الخصيان شجرة الدرّ إلى أرض الواقع، بصورة قاسية وسريعة، لتواجه عواقبها. لم يوقّع رحيل زوجها نهاية فصل فقط، بل بداية درب مزروع بالأفخاخ التي قد تكون مميتة بالنسبة لها ولشركائها. والله وحده العليم بما ستكون عليه نهاية هذه المأساة. لكنّ الأوان فات على التراجع الآن، ولا يزال مبكرًا جدًّا على الاستسلام.

أمرت جمال الدين محسن بأن يذهب وعبدين لنقل جثّة السلطان وإخفائها في مهجع مقفل من جناحها الخاصّ. ثمّ أوعزت إليه، متفاديةً نظراته، بأن يقطع أحد أصابع السلطان، ذلك الذي يضع فيه الخاتم الملكيّ، ويحمله إلى الأمير عزّ الدين الحلبي:

– قل له إنّ الأمير مات فجأةً ليلًا، وإنّ المملكة بحاجة إلى رجل له قوّته ونفوذه لإدارة شؤونها وتجنّب الحرب أو الانشقاقات. وأفهِمه أنّ الوصول إلى العرش يمرّ عبر الزواج بي.

– سأسارع إلى ذلك يا مولاتي. لا تقلقي. فعزّ الدين الحلبي طامع في السلطة منذ زمن بعيد، وسيسرّه طبعًا المجيء ليكون بقربك.

إرتسمت على وجهها ابتسامة مرارة، وأجابت:

– عزيزي محسن، أقدّر فيك ثقتك. لكنّني أتبيّن في نبرتك أنّك أنت نفسك لا تؤمن بما تقول. أنت

مثلي تعرف حقّ المعرفة الرجال وجبنهم في لحظات الحياة الحاسمة، حين يجب أن يكونوا على مستوى الأخطار الكبيرة، ليحصدوا أعظم الأمجاد. نادرون جدًّا مَن يستطيعون ذلك. برغم ادّعاءات الحلبي وطموحاته، فأنا غير واثقة من أنّه مستعدّ للمجازفة بتغيير مسار القدر. لذلك، ولأجنبّك العودة خالي الوفاض، سأعطيك اسمًا آخر. إذا رفض الحلبي الفرصة التي نقدّمها له، ستذهب للقاء الأمير جمال الدين بن أيدوغدو، وتقدّم إليه العرض نفسه.

– أنت في غاية الحكمة والشجاعة يا مولاتي. أرجو ألّا أخيّب ظنّك أبدًا وأعود إليك ومعي أحد الرجلين القادرين على إنقاذ الوضع.

– أعلم يا محسن، لطالما كنت وفيًّا ولم تخيّب ظنّي قطّ. وبطريقك، جِد كافور، واسأله أن يستدعي حسن العطّار. أريد أن أعهد إليه بشخص عزيز على قلبي. سيفهم كافور.

الاستراحة القصيرة، وفترة الغشاوة الذهنيّة، والانفصال السعيد عمّا حدث وما قد يحدث، كلّ ذلك انتهى تمامًا. وها إنّ ليلة من العمل والانتظار والقلق قد بدأت.

إبن مرزوق

قبيل الفجر، وبعد عودة جمال الدين محسن، استدعت شجرة الدرّ ابن مرزوق، وهو مملوك صالحيّ عجوز وأحد أخلص مستشاريها. أدخلته القلعة عبر باب سرّي يقود مباشرة إلى حديقتها. بدون أن تنبس ببنت شفة، كشفت له عن جثّة أيبك ممدّدة على سرير في غرفة صغيرة مغلقة في جناحها الخاصّ. لم يتفاجأ ابن مرزوق كثيرًا، فقد كان على علم بنيّة ثأر السلطانة، وقد بذل جهده لثنيها عن ذلك.

بدون أيّ اعتراض من جانب شجرة الدرّ والتي لطالما أجادت الإصغاء، راح ابن مرزوق يشرح لها العواقب الفوريّة لجريمتها العاطفيّة والسياسيّة.

– لقد قتلتِ السلطان، فجعلت العرش متاحًا لأوّل ساعٍ. وفي عجلتك، لم تُعدّي شيئًا لحماية نفسك، ولا حتّى سندًا يقف إلى جانبك. هذا العرش بحاجة إلىً رجل يتمتّع بقدر كافٍ من القوّة والاحترام ليتولّى مسؤوليّة حكم البلد، المهدّد دومًا من الخارج والداخل. يجب أن يكون السلطان قادرًا على لجم طموحات أمراء المماليك. لا أرى لكِ مخرجًا يا مولاتي، أضاف بدون موارية.

– أنت على حقّ. للوهلة الأولى يبدو أنّ مصيري الهلاك، قالت بهدوء متجنّبة النظر في عينَي محاورها.

راحت تنظر عبر النافذة المفتوحة على الحديقة، متنشّقة عطور أزهار ذلك الفجر الربيعيّ. ثمّ ملأت رئتيها بالهواء النقيّ، وبدأت بسرد أحداث خيبات الليل، معترفة بصدق بأنّها غير قادرة على التحكّم بنتائج فعلتها.

– لمّا لم ألقَ أيّ جواب من مالك الناصر، ملك حلب الكريه، والذي كان بوسعه أن يكون خير بديل عنّي، ووريثًا شرعيًّا لعرش الأيوبيّين، بعثتُ ليلًا إلى الأمير عزّ الدين الحلبي برسول، يحمل إليه أحد أصابع أيبك ومعه الخاتم الملكيّ، ليقترح عليه أن يتولّى شؤون الدولة. لا شكّ بأنّ عز الدين الحلبي هو أحد أقوى الأمراء المماليك.

ثمّ التفتت إلى ابن مرزوق وحدّقت في عينيه.

– لكنّه رفض. لم يجرؤ على قبول عرضي، والسخيّ للغاية. والله يعلم أنّه يحلم منذ زمن بعيد بأن يصبح سلطانًا.

خطت بضع خطوات مفكّرة، ويداها مشبوكتان خلف ظهرها. لم تشأ أن يرى ابن مرزوق إلى أيّ حدّ كانت تشعر بالخيبة والإحباط، فعقّبت بابتسامة ساخرة صغيرة على شفتيها اللذيذتين وقالت:

– قدُّمت العرض عينه إلى الأمير جمال الدين بن أيدوغدو، فرفضه كذلك. بصراحة، لم أكن أعرف أنّني محاطة بهذا القدر من الجبانة.

خرجت منها كلمة «جبانة» وكأنّها تبصقها بصقًا، وتابعت تقول:

– ومع ذلك، كنت مستعدّة لأقسم بأنّ ذينك الأميرين طامعان بالعرش، وبأنّهما قد يتقاتلان للفوز به، وهما لا ينتظران سوى الفرصة المؤاتية. ليلة أمس، أعددت لهما الأرضيّة المناسبة، وشرحت لهما كلّ ما عليهما فعله، وقدّمت لهما السلطنة على طبق من فضّة. وانظر كيف يكافآنني: يخذلانني. لست في النهاية سوى امرأة، وها هما يتركانني وحيدة في مواجهة رجُلَي أيبك: نائبه قُطُز، والوزير الفايزي. حين دقّت ساعة الحقيقة، كشف هذان الطيّبان عن طبيعتهما الحقيقيّة. إنّهما خائفان. أمّا أنا، شجرة الدرّ

وسلطانة مصر، فلستُ خائفة. بل سأجابه أعدائي، وبعون الله سبحانه وتعالى، قد تتسنّى لي فرصة النجاة. أقسم بذلك ويشهد الله عليّ: لن أدع لأحد أيّة فرصة لنعتي بالجبانة. سأريهم من أيّة طينة جُبلت.

حدَّقت في عينَي ابن مرزوق وأضافت بنبرة أكثر رقّة ولكن بنظرة شرسة:

– لستُ نادمة على شيء. لقد أراد أيبك إذلالي، وقد نال ما يستحقّه بسبب إهاناته. كانت الفرصة ثمينة جدًّا ولم يكن بوسع ثأري أن ينتظر. ولو لم أبادر، لمتُّ حنقًا وذلًّا.

ثمّ رفعت رأسها وكرّرت:

– سأجابه أعدائي. حيثما أنا الآن، قلّما تهمّني النتائج. أسلّم نفسي إلى الله وإلى رحمته الواسعة، وإلى القدر المكتوب على جباهنا منذ لحظة ولادتنا. أحمد الله على أنّه منحني الفرصة للتخلّص من الجنّ الذي كان يخنقني ويسلبني حياتي أكثر فأكثر كلّ يوم. يد الله هي التي أعادت أيبك أمس إلى قصر القلعة، بين يديّ.

خرج ابن مرزوق مسرعًا عبر الباب السريّ عينه. كان يرفض رفضًا قاطعًا أن يُربط بينه وبين اغتيال السلطان المعزّ. ومع ذلك خامره الفضول ليعرف كيف ستجري الأحداث، التي لم تكن تبشّر السلطانة بالخير، على الإطلاق.

***

كشف لقاء شجرة الدرّ بابن مرزوق وتشاؤمه الواضح، إلى أيّ حدّ كان الوضع ميئوسًا منه. كما أنّ موقف الكبرياء الذي وقفته واستعراض الشجاعة الذي قدّمته، قد أنهكاها. ما كاد ابن مرزوق ينصرف حتى انهارت السلطانة بالبكاء على سريرها ذي ألوان النيل، وقد غلبها التعب والقلق. إنهارت أعصابها ولم تستطع مقاومة عاصفة الدموع التي راحت تهدّد بأن تجرف معها كلّ شيء. لكنّها ولحسن الحظّ، سرعان ما غرقت في نوم وجيز، ومضطرب، وغير كافٍ لتجديد قواها.

حلمت بأنّ قدمها زلّت بها في مياه النيل، وبأنّ تيَّارا شديدًا يجرفها وهي عاجزة عن مقاومته. في حلمها، شعرت بقواها تخونها، وغلبتها الرغبة في إيقاف كلّ كفاح، والاستسلام لقوى الطبيعة التي تفوقها قدرة وجموحًا. لكنّها راحت تقاوم، بفعل العادة ليس إلاّ، فهي لم تعتد أن تسلم سلاحها، حتّى في أشدّ المواقف مدعاة لليأس. هكذا كوّنتها الطبيعة. أخذت تصرخ لتمنح نفسها الشجاعة، محاولة إبقاء رأسها فوق الماء. هرعت نايا التي أجفلها الصراخ، إلى سرير السلطانة، فأيقظتها وأبلغتها بحضور قُطُز ونور الدين عليّ إلى القصر.

من فقد الأمل، لا يبارحه الألم

قشعريرة. صداع حادّ. إرهاق. كانت شجرة الدرّ ترتجف. كيف السبيل إلى مواجهة قُطُز نائب السلطان، ونور الدين عليّ، الابن الوحيد للرجل الذي قتلته للتوّ؟ لقد أتيا يطلبان مقابلة السلطان. كان البلاط كلّه يعلم بأنّه أمضى الليل عندها، للقائها بعد طول غياب. ماذا ستقول لهما؟ راحت تردّد لنفسها بلا توقّف: «قوّة وتصميم يا شجرة الدرّ. إذا بدرت منك أيّة إشارة ضعف، مزّقاك إربًا».

حاولت عبثًا أن تنام. لشدّة القلق والذهول اللذين حلّا بها، رجت ألّا ينتهي الليل وخشيت بزوغ فجر يوم جديد، مشؤوم، حيث عليها أن تواجه البلاط والمماليك من كلا الفريقين، أي أنصار الصالح، مناصريها المفترضين، وأنصار المعزّ، مماليك السلطان ومعارضيها.

أقلقتها خطوة نائب السلطان وابن أيبك، فالساعة مبكرة جدًّا لطلب مقابلة السلطان. لم يكن من عادة نور الدين عليّ القدوم إلى القصر بدون دعوة. أيّ شيطان أرسلهما بمثل هذه السرعة؟ كانت ترجو أن يُتاح لها مزيد من الوقت لتستعدّ، قبل أن تضطرّ إلى مواجهة هذين الزائرين وأشخاصًا آخرين من البلاط.

شعرت شجرة الدرّ بأنّها أُخذت على حين غرّة، فقالت لنايا أن تطلب إلى جمال الدين تبليغ الزائرَين بأنّ السلطان أصيب بوعكة صحيّة، جرّاء إجهاده في مباراة البولو، ووجبة الطعام الدسمة التي تلت، وربّما بسبب حمّام مفرط السخونة، وبأنّ طبيب الملكة عاينه وأوصاه بالراحة التامّة، وبأنّ السلطان يتلقّى العلاج في الحريم، ولن يستطيع استقبالهما على الفور.

لكنّ قُطُز ونور الدين عليّ ساورهما الشكّ، فألحّا على مقابلة شجرة الدرّ لكي يطمئنّا منها على صحّة السلطان. لم يعُد بوسع شجرة الدرّ أن ترفض، وتوجّب عليها الاستعداد للقائهما، خارج الحريم، في قاعة العرش حيث كانا ينتظرانها. كانت قد قضت الليل وهي تحاول حلّ مسألة شغور السلطة، وتبحث عن وسيلة للنجاة بحياتها، متى شاع خبر وفاة السلطان، ولكن بدون جدوى. شعرت بأنّ أعصابها مرهقة إلى أقصى الحدود. والحالة هذه، كان عليها أن تستمدّ من أعماق طاقاتها الدفينة، القوّة والتصميم الضروريّين لمواجهة قُطُز ورجال الدولة.

***

كانت نايا ترتجف في سرّها خوفًا على سيّدتها، متسائلةً كيف ستستطيع النجاة من مأزقها. إنّما، ولئلّا تزيد من توجُّس شجرة الدرّ الواضح، جهدت لتحافظ على هدوئها وتحول دون أن يشي وجهها هي أيضًا بالقلق. أرادت نايا أن تظهر بمظهر الهادئة والواثقة بقدرة السلطانة على معالجة الأمور، شأنها دائمًا. أحضرت صينيّة عليها خبز وجبن وشاي، وكانت تهمّ بوضعها على طاولة خفيضة، حين بدأت شجرة الدرّ بالصراخ. عندئذٍ، هرعت إلى السلطانة وأخذتها بين ذراعيها الحاميتين، وداعبت برقّة رأسها وشعرها، وكأنّها طفلة صغيرة. لطالما فعلت ذلك مرارًا في الماضي، وباتت تدرك بفعل الخبرة، تأثير مداعباتها المهدّئ على شجرة الدرّ.

– إسمعي يا مولاتي. هذا ليس سوى كابوس بشع. أنت متعبة ومرهقة الأعصاب. كان عليك أن تنامي وقتًا أطول ليلة أمس. ستكونين بحاجة إلى كلّ قواك لمجابهة ذئاب القصر الذين يمقتونك، ومقاومة طموحات أمراء المماليك. كُلي شيئًا من الخبز والجبن اللذين أحضرتهما، واشربي بعض الشاي الساخن. وبعد ذلك سأعتني بك، ولن يلاحظ أحد أنّك بكيتِ أو قضيت ليلة كاملة من الأرق.

ثمّ ملأت الخادمة كوب ماء ومدّته إلى شفتَي شجرة الدرّ التي تجرّعته دفعة واحدة، وطلبت كوبًا آخر، فالخوف جعلها تشعر بالعطش الشديد. أعطتها نايا كوبًا من الشاي الأسود الساخن المركّز لتنشيط ذهنها. بعد ذلك قدّمت إليها الطعام، وكأنّها طفلة، وبكثير من بالامتنان تركتها السلطانة تدلّلها. بعد ذلك، سألتها نايا أن تتمدّد ودلّكت لها قدميها مطوّلًا.

كان لهذه العناية الصادقة أثر المعجزة على نفسيّة شجرة الدرّ وجسدها. شعرت بأنّها تستعيد قواها تدريجيًّا، وأخذت إرادة البقاء والقتال تتفوّق على الإحساس بالتعب واليأس. لحسن الحظّ أنّ الله بكرمه الواسع كان قد أغدق على شجرة الدرّ هبة ثمينة وهي صحّتها القويّة، التي لطالما ساعدتها على مواجهة المحن. إستعادت رباطة جأشها سريعًا، وتوارى ضعفها العابر لتحلّ محلّه روح المحاربة.

نهضت متّجهة إلى حوض من الذهب الخالص، وأتمّت وضوءها، ثمّ استدارت نحو القبلة لأداء صلاة الفجر.

تقدّمت الشمس بسرعة لتعتلي باعتداد عرش سماء القاهرة، مبشّرة بيوم من القيظ الشديد. أخذت نايا وقتها في إعداد شجرة الدرّ. ما كان على طالبَي مقابلتها، سوى انتظارها لتتمّ استعداداتها. راحت نايا تزيّنها وألبستها أفخم الملابس. بحركات بطيئة ومدروسة ومفعمة بالرقّة والتفاني، كانت الخادمة المخلصة تقوم بعملها وكأنّها المرّة الأخيرة، وكأنّما لتجميد الوقت وتكرار حركات الحبّ والحنان والاهتمام إلى ما لا نهاية.

إبتعدت الجارية خطوات قليلة لتتأمّل ما صنعته يداها، فأدهشها ما رأته حتّى سالت الدموع من عينيها السوداوين الكبيرتين. أخذتها شجرة الدرّ بين ذراعيها وقبّلتها في جبينها. إبتعدت نايا وسجدت عند قدمَي السلطانة تقبّلهما وتغمرهما بالدموع. ساعدتها السلطانة برفق على النهوض، وطلبت منها إحضار عدّة الكتابة، واستدعاء كافور. كذلك أمرتها بارتداء ملابسها للخروج من الحريم بهدف تنفيذ مهمّة خاصّة.

لم تشكّ نايا بشيء، بل أحضرت عدّة الكتابة وذهبت للاستعداد، ظنًّا منها أنّ عليها تسليم رسالة مهمّة وسريّة، لا تستطيع السلطانة أن تأتمن عليها أيًّا من عبيد القصر الآخرين.

جلست شجرة الدرّ إلى طاولة خفيضة وكتبت بسرعة بضع كلمات. كان ما كتبته نداء استغاثة، وطلبًا للنجدة من أحد أقرب أصدقائها وأشدّهم إخلاصًا، بيبرس. فمقابلة قُطُز ونور الدين تنذر بالسوء، وعليها أن تسارع إلى إنذار صديقها حول الوضع. كان بيبرس الوحيد القادر على إقناع الناصر يوسف.

ربّما لن يصل طلب النجدة هذا إلى المُرسَل إليه، أو لعلّه قد يصل بعد فوات الأوان، لكنّ كتابته جعلتها تشعر بالارتياح، وذكّرتها بهذا الصديق القويّ والقادر والذي سيبذل قصارى جهده للمجيء لنجدتها، إذا سمح له القدر بذلك.

حين أتى كافور لمقابلة السلطانة، وجدها أمام صندوق كنزها، حيث مجوهراتها الشهيرة والنقود الذهبيّة. كان شغف شجرة الدرّ بالذهب والحجارة الكريمة مشهورًا، كما لم تحاول إخفاءه قطّ. يعود ذلك إلى العهد الذي كان الصالح يغمر فيه محبوبته بأجمل الحليّ. وقد أثار هذا الكنز الرائع الكثير من الخلافات السياسيّة، كان أعنفها مع طوران شاه.

إختارت السلطانة بعض قطع النقود الذهبيّة التي، ولو لم تكن أغلى ما في مجموعتها، فهي تبقى ذات قيمة كبيرة، ودسّتها في صُرّة من الجلد الأحمر. ثمّ أغلقت الصندوق المصنوع من الخشب المحفور والمرصّع باللآلئ، وأعادته بمساعدة كافور إلى مخبأ سريّ في الجدار. كان باب ذلك المخبأ

مكسوًّا، بهدف إخفائه عن الأنظار، ببلاط أزرق وأبيض شبيه بما زُيِّنت به الأجزاء السفليّة من الجدران في كلّ هذا الجزء من جناح شجرة الدرّ. كانت ثقة السلطانة بكافور تامّة، وتدرك أنّه مستعدّ للموت من أجلها.

– حسن العطّار جاهز يا مولاتي، وينتظر في المكان الذي حدّدته له. سألني أن أنقل إليك إخلاصه واحترامه وامتنانه الأبديّ للهديّة الثمينة التي تقدّمينها له.

– جيّد جدًّا. أطلب إلى نايا أن تستعجل، فالوقت ينفد منّا. قُطُز ونور الدين عليّ ينتظران في قاعة العرش منذ فترة طويلة، وهما يثيران الكثير من الضجيج ويطالبان برؤية السلطان.

ما إن أنهت جملتها حتّى ظهرت نايا.

– آه يا نايا. ها أنت أخيرًا.

ناولتها الصُرّة الجلديّة الثقيلة والرسالة المختومة.

– سيُخرجك كافور من الحريم والقلعة عبر باب الحديقة السريّ. عند أسفل القلعة ينتظرك حسن العطّار، الطامح إلى الزواج بك منذ فترة طويلة والذي سيصبح زوجًا لك بإرادتي. لقد أعددتُ صكّ إعتاقك، وهو في هذه الصُرّة ومعه بعض مجوهراتي.

صمتت شجرة الدرّ أمام الذهول الذي علا محيّا خادمتها المخلصة. فالمسكينة تجمّدت في مكانها كالتمثال، وفغرت فاها في تعبير مفجوع:

– لماذا؟ لماذا يا شجرة الدرّ؟ لا، لا أريد الرحيل، قالت لها متوسّلة. مكاني هو معك، في السرّاء والضرّاء. ثمّ أضافت بإلحاح: يمكن لحسن أن ينتظر.

– لا، لن ينتظر. هذا قراري: سترحلين وبسرعة. كما أنّ عليك تنفيذ مهمّة أخيرة لحسابي. حالما تخرجين وحسن من هنا، تذهبان إلى مملوك صالحيّ من أنصاري المخلصين. سيرشدك كافور إلى عنوانه، وهو يقع خارج القلعة. ستسلّمينه هذه الرسالة وتبلّغينه الأمر بالرحيل في الحال، بدون أن يتوقّف إلّا لتبديل حصانه. عليه أن يقصد بيبرس ويسلّمه هذه الرسالة في أسرع وقت ممكن. سيجده في حاشية الأمير الناصر يوسف، في سوريا.

شدّت السلطانة على ذراعَي نايا ونظرت في عينيها الدامعتين، وقالت:

– أنا على حافّة الهاوية يا نايا، ولا أريدك أن تسقطي معي. من بين كلّ الذين بقوا بجانبي، أنت الأغلى على قلبي. أنت أصغر منّي ببضعة أعوام، ولكنّك أمّي وأختي، إضافة إلى كونك صديقتي. أنت مَن لم تتخلّي عنّي قطّ، ولن أسمح لأعدائي أن ينالوا منك بأيديهم القذرة. إرحلي يا نايا، سأكون أقوى إذا عرفتُ أنّك بمأمن. كوني سعيدة ولا تقلقي من أجلي. مهما حدث، فأنا ما زلتُ وسأبقى دائمًا شجرة الدرّ، سلطانة مصر.

رفعت السلطانة رأسها بكبرياء، لكنّ نايا قرأت الخوف المدفون في أعماق عينيها الزمرّديّتين، فتوسّلت إليها من جديد:

– تعالي معي يا شجرة الدرّ إذا كنت تريدينني أن أرحل. لماذا تبقين لمواجهة هؤلاء الذئاب؟ سيتقاتلون للاستيلاء على العرش. تغيّرت الأزمنة ولم يعد لك ما تفعلينه بينهم. أنت في خطر حقيقيّ، وحين أفكّر في ما قد يصيبك، أرتجف خوفًا.

– لقد اتّخذت قراري. الأمر بسيط، أنا شجرة الدرّ سلطانة مصر، لن أفرّ من قصري، بل سأجابه

أعدائي كما أستطيع. لم أفرّ من أمام جيش الفرنجة حين كان الوضع ميئوسًا منه كما هو حاليًّا. ولن أفرّ الآن من أمام أنصار المعزّ وغلام في الخامسة عشرة من عمره. لقد اتُّخذت قرارًا سياسيًّا، وسأتحمّل عواقبه كما عهدت دائمًا. كوني على ثقة بأنّني لن أُهزم هزيمة ساحقة أبدًا. وإذا حدث الأسوأ، لا قدّر الله، سأجد طريقة لأجعل أعدائي يدفعون الثمن غاليًا.

ثمّ أضافت بنبرة أكثر رقّة:

– تعرفين أنّني لا أتحمّل إذلال المنفى، ومن جهة أخرى، مَن سيأويني؟ مَن سيحميني؟ لقد أصبحتُ عبئًا، ولم يعد أحد يريدني. أنت على حقّ، لقد تغيّرت الأزمنة، وأنا أمثّل الماضي، قالت بإدراك تامّ. ثمّ أضافت وهي تضع الصُرّة الحمراء بين يدَي نايا: خذي هذه المجوهرات معك. لا أريد أن يستفيد منها أعدائي.

رفعت شجرة الدرّ يدها مقاطِعة نايا التي أرادت الاعتراض، وتابعت:

– إذا وجدتُ طريقة للخروج سالمة من بين مخالبهم، ستعرفين بذلك وتعودين للبقاء بقربي. هذا الذهب وهذه المجوهرات هي لك ولزوجك وأولادك. أتمنّى لك أن ترزقي بأبناء كثيرين يا نايا. حدّثيهم عنّي. لا تنسيني أبدًا.

فاضت نايا بالدموع وهي تردّد:

– لن أنساك أبدًا، أبدًا...

عانقت شجرة الدرّ أمَتها السابقة، ورفيقتها وصديقتها، وشدّتها إلى صدرها للمرّة الأخيرة. ثمّ ابتعدت عنها على عجل، لئلّا تُفسد دموعها كحل عينيها، ومعه العمل الفنّي الذي أبدعته نايا. ثمّ أشاحت بنظرها بعيدًا وقالت آمرةً:

– كافور، رافق نايا وتأكّد من رحيلها بسلام مع حسن. ثمّ عد إليّ بسرعة، فلا أزال بحاجة ماسّة إلى قوّتك.

إستدارت نايا وسارت نحو الباب بخطى متردّدة، تقودها ذراع الخصيّ التي تستعجلها، ولم تجرؤ على إبداء أيّة مقاومة. فقد أبصرت في عينَي سيّدتها نظرة تعرفها جيِّدا، ولم يعد أيّ نقاش ممكنًا. قبل أن تتجاوز عتبة الباب، حانية الرأس والعبرات تسيل على خدّيها، إلتفتت شجرة الدرّ ونادتها للمرّة الأخيرة:

– نايا!

أدارت نايا رأسها وقد التمع في عينيها بريق أمل، ما لبث أن انطفأ. لا، شجرة الدرّ لم تغيّر رأيها.

– إذهبي يا نايا وكوني سعيدة. بأمان الله يا صديقتي.

مع رحيل نايا إلى الأمان بين ذراعَي رجل شجاع، انزاح همّ عن صدر شجرة الدرّ، التي حوّلت أفكارها إلى المعركة القاسية التي تنتظرها في قاعة العرش. معركة قد تنتهي بهلاكها. لم تعبأ بذلك، فلطالما كانت النهاية التي لا مناص منها تنتظرها في نهاية الدرب. قد تنجح أعمالنا في تأجيل تلك النهاية قليلًا، ولكن إلى حين. عاجلًا أم آجلًا، يجب مجابهتها. كانت السلطانة شجرة الدرّ تنوي أن تكون هذه المجابهة على طريقتها.

إذ استشعرت دنوّ العدوّ، استدعت روح المحارِبة الجبّارة الكامنة في داخلها. ما لبثت أن استعادت رباطة الجأش وتأهبّت للقتال. برغم ماضيها كأمة سابقة، امتلأت رئتاها فخرًا بأنّها امرأة حرّة، وبأنّها

المسلمة الوحيدة التي نوديَ بها سلطانة. كانت فخورة خصوصًا بكونها مثقّفة وذكيّة وقادرة. لقد شكّلت عنصرًا لا غنى عنه في مسيرة الصالح أيّوب نحو ارتقاء عرش مصر بعد موت والده الكامل. لولاها لما استطاع تحويل هزائمه إلى انتصارات. كانت مُحارِبة حقيقيّة، تتحلّى بالشجاعة والدهاء. كما أنّ مزاياها تلك كانت تبرز الأكثر حين تشعر بالخطر يحدق بها.

عاد كافور، وآن الأوان للتوجّه إلى قاعة العرش لملاقاة مصيرها. وضعت يدها على قلبها الذي كان يخفق جزعًا، وراحت تردّد لتستمدّ الشجاعة: "قوّة وتصميم. شجرة الدرّ، يا سلطانة مصر، لن يصيبك إلّا ما قدّر لك الله العليّ العظيم."

***

راحت شجرة الدرّ تسير بخطى بطيئة إلى قاعة العرش، يتبعها كافور وجمال الدين محسن. قبل أن تجتاز بوّابات الحريم، أسدلت على وجهها برقعًا صغيرًا من قماش موصليّ أبيض ذا بطانة حريريّة ذهبيّة. لم يعد يظهر سوى عينيها الجميلتين الخضراوين اللتين أبرزهما الكحل وأطالهما قليلًا نحو الصدغين. أمّا شعرها الذي ضفرته نايا بعناية، فقد أخفي تحت عمرة فريدة من الديباج المقصّب بخيوط ذهبيّة. في وسطها زمرّدة كبيرة تحيط بها حبوب الماسّ، وعند كلّ من جانبيها زمرّدة أصغر منها، مزنّرة أيضًا بالماسّ. وقد علّقت قرطين ذهبيّين مرصّعين باللآلئ والزمرّد والماسّ، يتناسقان تمامًا وجواهر العمرة. كان هذا التبرّج الكامل يعكس بذخًا وترفًا لا مثيل لهما. وقد شكّلت غلالات القماش الموصليّ الأخضر والذهبيّ، الغنيّة بالثنايا الرقيقة والمعقودة في مؤخّرة العمرة، هالة جميلة شفّافة حول وجه السلطانة، لتنسدل بعد ذلك فوق صدرها وكتفيها.

كانت ترتدي بكلّ فخر معطفًا من الحرير الأخضر المبطّن بالحرير الفيروزيّ، ذا كمّين واسعين جدًّا، مطرّزين بوفرة من الخيوط الذهبيّة، رسمت وريقات منمنمة وأزهار. ما تحته صُدرة من الديباج المقصّب بخيوط ذهبيّة، يتناسق والعمرة، فوق قميص طويل بلون الليمون الأصفر الحامض، ومشقوق الجانبين. وجاء الحزام المصنوع من الصفائح الذهبيّة المرصّعة بالحجارة الكريمة ليُبرز بجلال، قدّ السلطانة الممشوق، وأخيرًا سروال فضفاض بلون اللوز الأخضر، مطرّز بخيوط صفراء وخضراء، يكشف عن طِماقين أبيضين تزيّن أطرافهما حبوب متعاقبة من اللؤلؤ والزمرّد، ومعلّقة بحلقات ذهبيّة. وكانت قدماها الصغيرتان تنتعلان خفّين جميلين ذات طرف مستدير من الحرير الأصفر المطرّز بالذهب.

فوجئ الحاجب بوصول السلطانة التي لم تكن تحضر مجلس السلطان إلّا في ما ندر. أعلن عن وصولها بصوت يخامره الشكّ. دخلت شجرة الدرّ قاعة العرش، قاعة الأعمدة التي أمرت ببنائها بعد موت الصالح، زوجها الأوّل. وأجمل ما فيها، كانت أعمدة الغرانيت الورديّ التي جيء بها من قصر جزيرة الروضة على النيل، الذي اتّخذه الصالح مقرًّا لإقامتهما خلال فترة حكمه. فقد أراد قطع تقاليد أسلافه الأيوبيّين الذين تعاقبوا كلّهم على الإقامة في القلعة التي بناها جدّهم الشهير، صلاح الدين. بعد وفاة الصالح، قرّرت شجرة الدرّ العودة إلى القلعة: وفقًا لرؤيتها، كان يفترض بذلك الصرح أن يبقى مركزًا للسلطة ولحكم مصر ومستعمراتها. كانت بالفعل قد عارضت إقامة الصالح بلاطه في الروضة، حيث سيكون بعيدًا عن عيون الشعب وقلبه، بحسب رأيها. لكنّها كانت مضطرّة إلى احترام إرادة مولاها وكانت تتفهّم رغبته في أن ينعزل على جزيرة ليحمي نفسه، بعيدًا عن الشعب كما عن نخبة المصريّين. تلك النخبة التي لم تُرده بعد وفاة أبيه، والتي سمحت للعادل، أخيه الصغير المفتقر إلى الأهليّة والقدرة، بأن يجلس على عرش أعظم محاربي الإسلام.

كانت القاعة الملكيّة والمألوفة جدًّا بالنسبة إليها، والتي لم تدخلها منذ أن أزاحها أيبك عن السلطة،

تذكّرها بالدرب التي سارتها في الماضي، والتي قادتها والصالح، يدًا بيد، إلى أعلى مراتب السلطة. الدرب التي جعلت من الزوجين المنفيّين سلطانين على مصر. لم يكن بوسع شجرة الدرّ أن تمتنع عن المقارنة بين زوجيها. الصالح الذي حوّل الأمة إلى ملكة، الرجل الاستثنائيّ الذي آمن بالحبّ لدرجة دفعته إلى مخالفة نظام الحريم والزواج بامرأة حياته، الوريث الشرعيّ لسلالة الأيوبيّين الذي شجّع امرأته على تولّي مسؤوليّة شؤون الدولة معه. وأيبك، الجنديّ العبد الذي جعلته هي ملكًا، الرجل الوضيع الأصل الذي أراد أن يعيدها إلى صفّ الإماء ويحبسها في الحريم، بعيدًا عن شؤون الدولة؛ أيبك الذي يرقد في تلك اللحظات جثّة هامدة في جناحها؛ المعزّ أيبك، السلطان الملعون الذي كان يرغمها من الآخرة، على القيام وحدها بهذه الرحلة الأخيرة إلى قاعة العرش، حيث تجازف بخسارة كلّ ما ربحته مع الصالح.

قبالة تلك الأعمدة الخالدة التي زيّنت معابد الفراعنة المبنيّة منذ آلاف السنين، استقت شجرة الدرّ الشجاعة من ذكرى الرجل الحقيقيّ في حياتها، الصالح. لقد شعرت المرأة الشجاعة بوحدة قاتلة، وباشتياق إلى الصالح، لم تعرف له مثيلًا.

قُطُز في قاعة العرش،
قصر القلعة، 1257

بُهرت عيون الحاضرين بذلك الظهور المستنير الذي يتدفق منه الذهب والحجارة الكريمة ينابيع وافرة. ذلك التأثير كان تمامًا ما تبحث عنه السلطانة، لتطبع به العقول منذ لحظة دخولها. سارت بجلال إلى العرش، نوع من سرير فخم من خشب الإبنوس المشغول والمرصّع بالحجارة الكريمة، مكسوّ بملاءة من الأقمشة الفخمة وبوسائد وفيرة، ويعلو منصّة صغيرة. وعلى الدرجات المؤدّية إلى هذه الأخيرة، عن يمين العرش ويساره، وُزّعت وسائد مخصّصة للأعيان.

منحت شجرة الدرّ نفسها وقتًا لتتذكّر الأيّام السعيدة، حين كانت تدعو المجلس للانعقاد وتستمع من أعلى هذا العرش، إلى الوافدين، تفصل بينها وبين الرجال ستارة رقيقة. لقد قرّرت عدم استفزاز قُطُز ونور الدين عليّ باعتلاء عرش السلطان المعزّ أيبك، فجلست على وسادة إلى يمين العرش، واستدارت لتواجههما. إنحنى الرجلان أمامها داعيين لها بطول العمر كما تقضي الأصول.

كان قُطُز وأصله من المماليك شأنه شأن أيبك، قد اختار الانضمام إلى السلطان الجديد بسرعة، فبات من أوائل مماليك أنصار السلطان المعزّ أيبك. في الماضي، كان ينتمي إلى نخبة المماليك الصالحيّين الذين، وبخلافه، رفضوا طموح أيبك في أن يكون صاحب السيادة المطلقة. بل اعتبروه ندًّا لهم وقاوموا سلطته. كانت لبيبرس وأقتاي والأمراء الآخرين الذين ظلّوا صالحيّين ومخلصين لشجرة الدرّ، طموحاتهم الخاصّة، وكانوا يطمحون إلى السلطة. فاضطهدهم أيبك ومناصروه.

كان خيار قُطُز ناجحًا، وسمح له بارتقاء درجات السلطة إلى أن أصبح نائبًا للسلطان المعزّ أيبك. في زمن كان أمراء الجيش يشكّلون فيه أيضًا كبار موظّفي الإدارة، كان نائب السلطان، ذي المرتبة العليا في التراتبيّة، متقدّمًا على كلّ موظّفي الدولة الآخرين. إلّا أنّه كان على قُطُز الواسع الطموح أن يحسب حسابًا للأمراء الآخرين رفيعي الشأن، لأنّهم كانوا يشكّلون قوى رهيبة باتّحادهم.

كان قُطُز متوسّط القامة، ذا شاربين كثّين ولحية قصيرة ومشذّبة بدقّة. كانت ساقاه القصيرتان صلبتين وثابتتين في الأرض، ما منحه مظهر المحارب الشرس. كان يتمتّع بعينين صغيرتين رماديّتين توحيان بالدهاء، وأنف ضخم يعلو شفتين مكتنزتين تشيان بطبيعته الشهوانيّة العاشقة للنساء. كانت شجرة الدرّ تدرك أنّ قُطُز رجل واسع الطموح، ولكنّه حذر ومرن. معه، لم يكن الباب موصدًا كليًّا. تجاهلَت نور الدين عليّ وتوجّهت بالحديث فقط إلى نائب السلطان. مضت توًّا إلى صلب الموضوع، فالهجوم كان وسيلة الدفاع الأفضل:

– أجبرتَني بإلحاحك على الخروج من الحريم والمجيء لمقابلتك. ومع ذلك فقد كانت رسالتي واضحة. فالسلطان، أطال الله عمره...

تلعثمت شجرة الدرّ في تلك العبارة البروتوكوليّة، فوجب عليها أن تعاود من جديد:

– السلطان، أطال الله بعمره، تعرّض لحادث في حمّامه وغاب عن الوعي. وهو الآن يتلقّى العلاج في جناحي الخاصّ. وعليّ العودة بسرعة إليه.

– سيّدتي، أجاب قُطُز. تسري الشائعات في بعض الأوساط بأنّ السلطان مات ليلة الأمس في هذا القصر.

ثمّ تجرّأ على أن يتابع بصوت منخفض:

– بل مقتولًا، بأمر منك.

– نميمة! صاحت متظاهرة بالشعور بالإهانة. في أيّ زمن نعيش؟ ألم يعد في وسع الرجل زيارة امرأته، بدون اتّهامها بالسعي لقتله؟

– إذًا، دعينا نراه.

– محال، أجابت بصوت حازم. أنت تعرف أنّه لا يحقّ لغير السلطان والخصيان دخول الحريم. يجب الانتظار ريثما تتحسّن حالة السلطان، بعون الله، ونستطيع نقله إلى جناحه. من الواضح أنّه في حال غياب الملك أو عجزه عن القيام بمهمّاته، عليك أنت القيام بمهامّ نائب السلطان. أنتظر منك المحافظة على الأمن والنظام بشكل صارم. لا يمكنك ترك هذا النوع من الشائعات يسري بدون معاقبة مطلقيها بقسوة. والآن، إذا لم يعد لديك ما تضيفه، أرغب في العودة إلى السلطان.

كانت أمّ عليّ وكريمة ومرجانة يتابعن المشهد، متواريات خلف سجّادة بمحاذاة باب جانبيّ. وسرعان ما لاحظن تعبير الحيرة لدى قُطُز وارتباكه الواضح. كان متردِّدا أمام تصميم السلطانة، فهو لا يستطيع إرغامها على أن تفتح له أبواب الحريم. خشيت أمّ عليّ أن تتمكّن شجرة الدرّ من كسب الوقت اللازم لترتيب الأمور في مصلحتها، والعثور على شريك ينقذها. كما أنّ قُطُز نفسه قد يصبح هذا الشريك.

إزداد اقتناع أمّ عليّ بأنّ مكروهًا قد حدث لأيبك. وتأكّدت شكوكها بعد ما روته مرجانة لها عن تلك الليلة الغريبة في حريم القلعة. فقد أُجبرت جميع النساء على البقاء في غرفهنّ وتلقّين أمرًا صارمًا بعدم الاقتراب من حمّام الملكة وجناحها الخاصّ. كما أخبرتها مرجانة بأنّ عددًا من الخصيان المسلّحين تمّ نشرهم في الحريم بأمر من كافور، وبأنّها واجهت صعوبة كبيرة في الإفلات منهم، لملاقاة أمّ عليّ.

قرّرت طليقة أيبك المجازفة بكلّ شيء للإيقاع بالمرأة التي تكنّ لها كراهية شديدة. كان يجب التدخّل فورًا لاقتناص فرصة وتغيير مجرى الأحداث. لم يكن بوسعها المراهنة على ابنها نور الدين عليّ الذي جلس في إحدى الزوايا ينظر إلى السلطانة فاغرًا فاه. فالتفتت إلى مرجانة وأشارت إليها بالتقدّم إلى حيث الجمع. تردّدت مرجانة وقد نال منها الخوف. فالسلطانة ليست خصمًا يُستهان به، ولا يمكن حشرها إلى جدار، بدون التعرّض للعقاب.

– ليس لديك ما تخشينه أيّتها العجوز الحمقاء، همست لها أمّ عليّ. أنا واثقة من أنّ أيبك مات. أحسّ بذلك في كلّ عرق يسري في جسدي. أنت الوحيدة القادرة على الثأر لنا وتسريع سقوط «شجرة الويل» تلك.

لم تترك أمّ عليّ لمرجانة الخيار، بل دفعتها بكلّ قوتها إلى القاعة، فسقطت محدثة ضجّة مخنوقة. التفتت الرؤوس نحوها وباتت محلّ كلّ الاهتمام. كان عليها أن تتصرّف وتشرح سبب وجودها. لم تنهض، بل تقدّمت على ركبتيها نحو قُطُز. عقدت شجرة الدرّ حاجبيها لمرأى هذه العدوّة القديمة تقترب منهم كالأفعى. حضورها كان ينذر بالسوء.

أغمضت مرجانة عينيها، وتلت صلاة قصيرة، ثمّ باشرت بتنفيذ مهمّتها:

– مولاي العظيم، بدأت بصوت مرتجف. أتوسّل إليك أن تسمعني أنا الخادمة المتواضعة.

– ماذا تريدين يا امرأة؟ سألها قُطُز.

– أنا، أمتك، أستطيع دخول الحريم للتأكّد من حال السلطان. أنا واثقة من أنّ شيئًا ما حدث ليلة أمس في حمّام السلطانة. وأخشى على حياة سلطاننا المحبوب، قالت متباكية. إن لم يكن قد مات، فلعلّه يعاني

من إصابة بالغة، وقد يتوفّاه الله في أيّة لحظة. يجب أن ترغم هذه المرأة على أن تفتح لي باب جناحها الخاصّ، وأن تضمن سلامتي بعد ذلك. السلطانة قادرة على أن تفعل أيّ شيء لإخفاء جرائمها.

ثمّ راحت تروي أحداث العشيّة في الحريم: احتجاز النساء في غرفهنّ، والجوّ الثقيل الذي خيّم على المكان بدل أن يعمّ الفرح احتفالًا بعودة السلطان إلى زوجته، بعد طول فراق.

كانت مرجانة تتلفّظ بتلك الكلمات وهي تنظر إلى شجرة الدرّ بعينين يسيل منهما سمّ الكراهية ودمع النفاق والخوف. هذه الخيانة الآتية من داخل القصر، فاجأت شجرة الدرّ وشلّت حركتها بضع ثوانٍ كانت أكثر ممّا يجب. حدّق قُطُز في عينَي السلطانة فرأى فيهما لمعانًا غريبًا ومحمومًا يشوبه شيء من اليأس. فجأةً بدا أنّ رائحة الخوف تحوم حول السلطانة، فقرّر اغتنام الفرصة التي أتيحت له. إلتفت نحو الخادمة العجوز وقال لها بنظرة احتقار:

– أمقت أسلوبك، لكنّني بحاجة إليك. إذا كنت كاذبة ونمّامة، فستذوقين غضبي. بل وأسوأ، غضب سيّدة الحريم.

طلب قُطُز من أحد الجنود الذين كانوا يواكبونه، مرافقة مرجانة حتّى باب الحريم، وانتظارها ما يلزم من الوقت، وعدم العودة إلّا معها، سالمة. ثمّ التفت ببطء إلى شجرة الدرّ التي بقيت جامدة في مكانها، وقال:

– صدّقيني يا مولاتي، لا أحبّ اللجوء إلى ما تعرضه عليّ هذه الخائنة من خدمات دنيئة. لكن، إذا عثرنا على السلطان ميتًا داخل الحريم، فقد يخلو العرش وتصبح الرهانات مهولة.

خلف السجّادة المعلّقة، كانت أمّ عليّ تفرك يديها فرحًا، وترجو من الله سبحانه وتعالى أن يعجّل في نهاية شجرة الدرّ.

إمتقع وجه هذه الأخيرة، وشعرت بأنّ قواها التي كانت قد استعادتها، عادت تخونها من جديد، ورأت بأنّ آمالها الضئيلة، التي استمدّتها من آخر ما تختزنه في طبيعتها المتقائلة والحذقة، تتلاشى.

غير أنّ انتفاضة إرادة أخيرة جعلتها ترسل إشارة سريّة إلى كافور الواقف خلفها. لحق الخصيّ بمرجانة بدون أن يلفت الانتباه إليه. كان عليه الحرص على ألّا تتنعّم أبدًا بثمار أعمالها السيّئة. أمّا جمال الدين محسن، فقد تعاظم الخوف في داخله وهو يراقب التطوّر الدراماتيكيّ للأحداث. كيف السبيل إلى أن تنجو شجرة الدرّ من هذا المأزق الآن؟

كادت السلطانة أن تفقد الوعي، غير أنّها أخذت نفسًا عميقًا، وراحت تستعيد رباطة جأشها. ثمّ نهضت وتوجّهت نحو قُطُز. كان محتومًا عليها أن تقوم بمحاولة أخيرة، فالنهار تقدّم، ولن يلبث الوزراء والأعيان ومرتادو البلاط أن يبدأوا بالتوافد، وهو ما سيزيد وضعها سوءًا. وقفت خلف أحد الأعمدة وأشارت إلى قُطُز بالاقتراب منها.

أمّا أمّ عليّ فكانت تزداد انقباضًا وتشنُّجا في مخبأها. لقد أثار موقف ابنها استياءها الشديد: بدا بوضوح أنّ الأحداث تجاوزته، وقد ظهر عليه إعجابه الشديد بالسلطانة البهيّة. كان يراها للمرّة الأولى بعدما أصبح رجلًا، وقد ارتمى على وسادة في إحدى زوايا القاعة، محاولًا عدم لفت الأنظار إليه. وحدها أمّ عليّ المتيقّظة لاحظت أنّ كافور لحق بمرجانة، فتأكّد لها أنّها لن تراها من جديد. لكنّ ذلك غير مهمّ، فالخادمة العجوز أدّت مهمّتها بنجاح. لكنّ أمّ عليّ، وحين رأت ما رأته من براعة شجرة الدرّ في التلاعب، غرزت أظافرها في ذراع كريمة التي كادت تصرخ ألمًا. أيّة لعبة تلعبها السلطانة الآن؟

كان قُطَز قد بات بمحاذاة شجرة الدرّ، التي أزاحت وبحركة رقيقة من يدها البيضاء، البرقع عن وجهها، ليظهر أمام عينَي نائب السلطان المأخوذتين بها، نور جمالها الذي لا يزال متألّقًا. خُيّل لقُطز أنّ غيمة انكشحت فجأةً ليظهر خلفها البدر. هذا هو الوجه الذي أفاض قرائح الشعراء وألهب مخيّلات الرجال: جبين عريض مُشرق، وعينان زمرّديّتان تحت حاجبين مرسومين بعناية، وأنف يوحي بقوّة الشخصيّة، وخدّان يخجل الورد منهما، وفم له حلاوة السكّر، فوق ذقن صغيرة ترسم وجهًا بيضويًّا متكامل القسمات، أشبه بلوحة لإحدى حواري الجنّة.

لم يكن قُطُز الذي يعرف تمامًا عمر السلطانة يتوقّع رؤيا على هذا القدر من البهاء. شلّت المفاجأة حركته، ولبث مشدوهًا أمام هذا الجمال المستنير، يقول في سرّه إنّ أيبك ربّما كان يستحقّ الموت لقاء الإذلال الذي ألحقه بالسلطانة. إبتسمت له شجرة الدرّ بخجل، ما زاد وجهها إشراقًا. رفعت نحوه عينين كئيبتين، توشكان على البكاء، وتلتمعان كمياه النيل تحت الشمس، وقالت:

– ساعة الحساب لا مفرّ منها، وأجل كلّ حياة في يد الله سبحانه وتعالى. لا أحد بمنأى عن إرادته الإلهيّة التي تكتب قدر كلّ إنسان، سلطانًا كان أو متسوّلًا. كلّ شيء مكتوب على الجبين. لن تعرف الحقيقة من الخائنة مرجانة، بل من فمي أنا. يجب أن تفهمني: لقد كنت كعصفور في قفص، وكانت روحي تذوي قلقًا في انتظار الذلّ وسوء المصير اللذين أعدّهما لي أيبك. إلتمعت دمعتان كبيرتان في عينيها، موشكتين على السقوط، وتابعت دفاعها عن نفسها قائلة: قُطز، لطالما كنتَ إلى جانبي، بطريقة أو بأخرى. أنت تعرف تاريخي كلّه، قبل أيبك وبعده. أيّ سوء أتيتُه بحقّ ذلك الرجل؟ أما عاملته دائمًا أفضل معاملة، وبكثير من الحبّ والتقدير؟ فتحت له باب الجنّة وأجلسته على عرش سيّدنا كلّنا، ملكنا الصالح، أسكنه الله فسيح جنانه. كان من الممكن أن تحلّ أنت أو أيّ مملوك آخر، محلّ أيبك. لكنّه هو مَن كان أتابِك الجيش بعد الانتصار على الفرنجة، وقد أيّدتم كلّكم هذا الاختيار. كنتُ دائمًا بجانب أيبك في الأوقات الصعبة التي مرّ بها حكمه، والله يعلم كم كانت كثيرة! لم آتِ قطّ أيّ عمل يُفقدني الجدارة، ومع ذلك أعدّ لي مصيرًا وحشيًّا وغير إنسانيّ ما كان ممكنًا أن أقبله. إنّ لامرأة مثلي الحقّ في الدفاع عن كبريائها، والبقاء مرفوعة الرأس. أتى إليّ أيبك أمس بعد طول غياب، وحذر متبادل غذّاه الحسّاد من كلّ حدب وصوب. إبتعادي عن السلطان لأشهر عديدة، جعلني أعيش وسط هواجس السوداويّة والخيانة، وملأ لياليّ بأبشع كوابيس الإهمال والنسيان.

كانت عينا شجرة الدرّ تشعّان، وكأنّ حمّى أصابتها. تأجّجت عاطفتها حقيقيّة وشديدة، لأنّها كانت تعيش عذاباتها من جديد.

– صحيح أنّ أيبك لم يقُل لي إنّه عازم على القضاء عليّ. لم يجرؤ لشدّة جبانته على إظهار جحوده أمامي، كجلّاد يعصب عينَي ضحيّته شفقة قبل إعدامها. مساء أمس، رأيتُ نهايتي في أعماق عينيه الماكرتين. لسوء حظّه أنّ الفرصة كانت ممتازة فلم أستطع أن أدعها تمرّ. أنت تعرفني يا عزيزي قُطُز، لستُ من النساء اللواتي يرضين خاضعات بما قُرِّر لهنّ. لذلك، وبأسى يعتصر روحي، ومدفوعة بإرادة أقوى منّي بكثير... هنا توقّفتْ السلطانة عن الكلام، ثمّ خفضت عينيها وأقرّت: أعطيتُ الأمر بالإجهاز عليه. كنت أتمنّى أن تكون نهايته مختلفة. سيكتب المؤرّخون أنّ شجرة الدرّ وبإرادتها جعلت من المملوك أيبك سلطانًا. وأنّ شجرة الدرّ عينها، وبإرادتها أيضًا، قضت على مُلك هذا السلطان.

وفي تلك اللحظة، حدّقت في عينَي قُطُز المأخوذ بها، ونطقت بوضوح وشدّة:

– لا يزال بمقدوري أن أجعل من مملوك آخر، سلطانًا على مصر. أعرف الرجال جيِّدا. أنت محارب عظيم يا قُطُز، وستكون سلطانًا عظيمًا. ثمّ تابعت، وعيناها تحملان ألف وعد: أنت على حقّ. السلطان مات، والعرش هنا كثمرة يانعة، في انتظار أن يقطفها رجل بعظمتك. وأنا حرّة ويمكنني...

الزواج من جديد.

سكتت قليلًا لتسمح له باستيعاب ما اقترحَته، وختمت:

– فكِّر جيِّدا قبل أن تتّخذ القرار. لا نملك سوى القليل من الوقت. لن يبقى العرش خاليًا لفترة طويلة، فالمرشّحون للجلوس عليه كثر.

***

كانت أمّ عليّ، المختبئة خلف السجّادة المعلَّقة، تراقب حركات شجرة الدرّ وقُطُز. إمتقع لونها حالما رأت شجرة الدرّ تزيح برقعها عن وجهها، واستشعرت مناورتها. كان الإغراء أكبر من أن يستطيع المملوك الطمّاع مقاومته. لم يكن سرًّا خافيًا على أحد أنّ قُطُز كان أكبر الساعين إلى عرش أيبك، فأيّ أمير مملوكيّ يستطيع الحلول محلّ أمير آخر.

قرّرت أمّ عليّ قطع الطريق نهائيًّا على شجرة الدرّ وقُطُز. كان عليها منعهما من التوصّل إلى اتّفاق، فالوريث الشرعيّ الوحيد للحلول محلّ أيبك هو ابنه نور الدين عليّ. بمعجزة التمعت خطّة في ذهنها الماكر والمعذّب، وتجلّى طموحها بوضوح تامّ، أمام عينيها. إبتسمت بخبث لم تجهد في إخفائه، لتظهر أسنانها الصغيرة والمهترئة. إذا أصبحَت الملكة الأمّ، تستطيع الثأر شخصيًّا من شجرة الدرّ، وبالطريقة التي تريدها.

لم تنتظر نهاية الحديث بين السلطانة ونائب السلطان، بل سحبت كريمة من ذراعها، وخرجتا سرًّا عبر الباب الصغير بجانب السجّادة المعلّقة التي حجبت عنهما الأنظار. في الخارج شرحت بسرعة خطّتها لخادمتها. لم يكن لديهما ثانية واحدة تضيّعانها. إن وافق قُطُز على العرض المغري الذي تزيّنه السلطانة له، يمكنه بصفته نائبًا للسلطان، وزعيمًا للمماليك التابعين للمعزّ، إصدار الأمر بإقفال أبواب القلعة، والاستيلاء على مركز السلطة المصريّة، وبذلك قد يمنع أنصار السلطان المقتول، من وضع يدهم على شجرة الدرّ، فتنجو من أعدائها وتخرج منتصرة، وتنجح مرّة جديدة في فرض إرادتها. لم يكن بوسع أمّ عليّ السماح لخطّة كهذه بأن تتحقّق. كان عليها التصرّف بسرعة.

سارت المرأتان بخطوات حثيثة إلى الباحة الرئيسيّة للقلعة.

***

فوجئ الجنود والمماليك المتواجدون في الباحة، عند المدخل الأساسيّ للقلعة، برؤية امرأتين منقّبتين بالأسود، تندفعان كالمجنونتين نحوهم وهما تصرخان وتلطمان وجههما يأسًا وتمزّقان ملابسهما. ركعت أمّ عليّ وكريمة وسط الباحة، وأزالتا النقاب عن وجهيهما وأخذتا تذرّان التراب على رأسيهما وهما تطلقان عويلًا حادًّا، وتتضرّعان إلى الله وملائكته وتستشهدان بكلّ الأنبياء.

– كان الله في عوننا، مات السلطان المعزّ!

– قتلته شجرة الدرّ في الحريم. لعنة الله عليها! إنتقم الله منها!

تعرّف بعض المماليك من حاشية قُطُز نائب السلطان، إلى أمّ عليّ، فأسرعوا إليها وطلبوا منها إيضاح ما تقوله. كانوا عاجزين عن فهم أقوالها وعن تصديق الاتّهامات التي راحت تكيلها. قال لها مملوك كهل:

– إهدأي يا امرأة، واشرحي لنا. دعينا نفهم ما تقولين.

– إذهبوا لتروا بأعينكم، صرخت! شجرة الدرّ أمرت بقتل السلطان، وهي تخفي جثّته في جناحها وتمنع نائب السلطان من الدخول إليه.

كان كلّ المقرّبين من دوائر السلطة على علم بالفتورة الذي حلّ بين المعزّ أيبك وشجرة الدرّ في الفترة الأخيرة. ولمّا كانوا يعرفون السلطانة جيِّدا، فقد خشوا غضبها، وفوجئوا بأن يسلّم السلطان نفسه إلى تلك المرأة بدون دفاع. كما فوجئوا أكثر بوجود هذه المرأة الأخرى في القلعة، والتي لا يجهل أحد الغيرة والكراهية الشديدتين اللتين تضمرهما للسلطانة.

– سأذهب لأرى نائب السلطان وأتأكّد من أقوالك يا امرأة. إذا كان السلطان قد مات حقًّا وبات الجيش بلا قائد، فالمسألة على قدر كبير من الخطورة.

إرتفع صراخ أمّ عليّ من جديد، وعادت لقذف غريمتها:

– يجب منع شجرة الدرّ اللعينة من الهروب! يجب أن تتحمّل مسؤوليّة عملها المشين! عاقبها الله! ثأر الله لي! لقد قتلت أيبك، والد ابني. إثأروا لي! يا أنصار المعزّ، إثأروا له!

سار المملوك إلى قاعة العرش، تاركًا رفاقه المذهولين والمرتبكين، في حيرة من أمرهم. إستغلّت أمّ عليّ وكريمة حالة الارتباك السائدة، واندفعتا نحو المخرج الأقرب، وهو الباب الغربيّ المعروف بـ«باب المدرَّج أو باب السلالم»، المواجه للمدينة. كان عليهما أن تنفّذا الجزء الأساسيّ من خطّتهما.

هبطتا المنحدر بسرعة قاصدتين أولى المتاجر والحوانيت، عند قاعدة هضبة القلعة. لدى وصولهما، أعادتا تمثيل مسرحيّتهما وهما تولولان ألمًا وتمزّقان نقابيهما الأسودين وتقرعان صدريهما. في الحال استقطبت المرأتان المتّشحتان بالسواد اللتان تثيران هذا القدر من الجلبة، اهتمام أصحاب الحوانيت والحرفيّين والتجّار والمشاة المارّين من هناك صباح ذلك اليوم. ثمّ انفصلت المرأتان، فركعت أمّ عليّ وسط الطريق، فيما اتّجهت كريمة مسرعة نحو مسجد قريب تعرف إمامه جيِّدا. كانت مهمّتها تجنيده للقيام بالدور الذي أوكلته به أمّ عليّ في تلك الكوميديا السوداء التي كانت ترتجلها.

واصلت أمّ عليّ ذرّ التراب على رأسها حدادًا، مستقطبةً الناس بصراخها:

– يا شعب مصر! اسمعوني! المعزّ قُتل على يد شجرة الدرّ اللعينة! السلطان قد مات، والد ابني قد مات!

– مَن أنت يا امرأة؟ سألها تاجر مهيب ذو لحية وعمامة وملابس فاخرة كان يقصد المكان لإتمام صفقة.

– أنا أمّ عليّ، والدة نور الدين عليّ، الابن الوحيد للمعزّ. خذ بثأري يا الله، خذ بثأري! راحت تصرخ وهي تنظر إلى السماء وتلطم صدرها، ثمّ أضافت وهي تلتفت إلى الحشد المتعاظم: سمعتموني! سلطانكم قد مات. تلك الكافرة شجرة الدرّ هي التي سفكت دمه!

بدأ الناس يتجمّعون حولها، وعلت أصواتهم، وأخذوا في دهشتهم وحيرتهم يردّدون شكواها وتحسّراتها. سارع الجواهريّون والصاغة إلى إغلاق أبواب متاجرهم التي أقاموها تحت أسوار القلعة المنيعة، وذلك خوفًا من أن يتحوّل هذا التجمّع إلى حالة من الشغب. حذا التجّار والحرفيّون الآخرون حذوهم، بهدف حماية ممتلكاتهم أيضًا. لعلّ الملك قد مات، وكما عند كلّ تغيير لرأس الدولة، فإنّ فترة من الاضطراب بدأت تلوح في الأفق.

تقدّم ببطء إلى وسط الساحة شيخ عجوز، وهو إمام مسجد. كانت عيناه الصغيرتان غائرتين تحت حاجبيه الكثيفين، أنفه معقوفًا ولحيته بيضاء طويلة. محدودبًا تحت ثقل السنين، كان يرتدي جلبابًا

بسيطًا، لا تشوب بياضه شائبة. سار متوكّئا على عصا ليشقّ طريقه وسط الحشد الحائر، الذي بدا كَمن يبحث عن مرشد يدلّه إلى طريق الخلاص.

كان الجمع يتعاظم باطّراد، تغذّيه باستمرار حشود آتية من الأحياء المجاورة للسوق، حيث راح الخبر ينتشر كالنار في الهشيم. كان دور كريمة يشتمل على إرسال فتيان المسجد لإذاعة الخبر وتوجيه الشعب إلى الساحة الكبرى عند قاعدة القلعة.

شقّ الشيخ طريقه بسهولة نحو أمّ عليّ: راح الجمع يتراجع احترامًا، كالبحر من أمام النبيّ موسى. فهو إمام مسجد السوق، ذو الشخصيّة الآسرة، ومحطّ إعجاب الحشود. على بُعد مسافة كافية خلفه، وجّهت كريمة إشارة لأمّ عليّ تبلغها أنّ كلّ شيء يسير كما هو مرسوم، وأنّ الإمام وافق على السير بخطّتهما. أخفت أمّ عليّ ابتسامة مكر بيدها، من دون أن تقطع نحيبها ولعناتها على السلطانة. كانت الأمور تسير بحسب ما تتمنّاه، والمشهد الأساسيّ على وشك أن يبدأ. كان بوسعها أن تثق بالكراهية التي يضمرها الإمام لأوّل ملكة بين المسلمين، والتي لا تقلّ شدّة عن كراهيتها، وإن لأسباب مختلفة تمامًا.

وضع الإمام سليمان يده على رأس المرأة الراكعة، في حركة يقصد بها حمايتها والإيعاز إليها بالصمت. بيده الأخرى رفع عصاه، وخاطب الجمهور بصوت لا تزال قوّته لتذهل العديدين، حتّى بين الذين يعرفونه جيِّدا، إذ يصدر عن عجوز هزيل مثله. كان هذا الصوت يفرض على الجميع الإصغاء والاحترام. خلال خطب الجمعة في المسجد، كان المؤمنون يخالون بأنّ جسد الإمام يستقيم، وعوده يستوي ويطول، كلّما ذكر كلام الله، ودعا إلى اتّباع مثال الأنبياء.

أمرت كريمة أحد التجّار بإحضار مقعد واطئ على الفور. توافدت الجموع من شتّى أحياء القاهرة، ووقفت أمام القلعة، مهيبة، فاقدة الصبر، ومهدِّدة. صعد الإمام إلى المقعد، وأخذ نفسًا عميقًا، وبدون مقدّمات أعلن موت السلطان، متَّهما السلطانة شجرة الدرّ:

– إنّا لله وإليه راجعون. تغمّد الله بواسع رحمته السلطان المعزّ أيبك، الذي مات هذا الصباح مقتولًا بأمر من شجرة الدرّ، هذه المرأة التي نعرف كلّنا تعلّقها اللامحدود بالسلطة. وقد أثبتت لنا من جديد أنّها ومن أجل احتكار هذه السلطة، مستعدّة لكلّ شيء، وحتّى لارتكاب جريمة – وشدّد على كلمة جريمة، متأنِّيا في لفظها – ثمّ تابع: تلك الملكة الكافرة أمرت بقتل زوجها لأنّه أراد الحدّ من تحكّمها بالسلطة. كان ينوي الزواج بأميرة أيوبيّة حقيقيّة. وهذا حقّ له بحسب سنّة الله ورسوله – عليه الصلاة والسلام. شجرة الدرّ، تلك المرأة الغريبة التي تهين طموحاتها الحقوق الإلهيّة وتقاليد بلدنا، أرادت أن تفرض من جديد إرادتها على السلطان. لا يمكننا أن ندعها تتصرّف كما يحلو لها، وأن تنجو من العقاب. ثمّ علا صوته تعبيرًا عن شعوره الكبير بالإهانة، وأضاف وهو يرتجف غضبًا: أين كرامتكم يا مؤمني مصر؟ أتتركون امرأة تدّعي لها حقوقًا في عرش بلادكم؟ امرأة تختار السلاطين ثمّ تتخلّص منهم كما تشاء؟ تركتموها تستولي على قلعة بطل الإسلام، صلاح الدين، سلام الله عليه. أنظروا أين أدّى بنا هذا الإهمال. لقد سمحت هذه المرأة لنفسها باغتيال سلطاننا. إنّها سُمّ. أيّها المصريّون، لقد خرجتم عن الصراط المستقيم منذ أوّل خطبة جمعة رُفعت باسم امرأة زعمت بأنّها قادرة على حكم مصر. امرأة، مجرّد امرأة يا مؤمني مصر! – وكان يلفظ كلمة امرأة كمن يبصق من فمه شرابًا مرًّا – إنّ اختباءها خلف السلطان المقبل لتستمرّ بالحكم لن يخفّف من ذلك الخطأ، ولا من تلك الخطيئة. فالحديث الشريف يقول: «لن يفلح قوم وَلّوا أمرهم امرأة». إسمعوا أيضًا حكمة الإمام عليّ، نسيب رسول الله، عليه الصلاة والسلام، الذي قال: «النساء ناقصات عقل ودين». أيّها المؤمنون، لديكم اليوم البرهان القاطع على أنّ ما قاله الخليفة صحيح. لقد برهنت شجرة الدرّ ذلك من جديد، بما اقترفته من جريمة نكراء.

تعالت أصوات التأييد بين الجمع المحتشد. وتابع الإمام:

– لا يمكننا الوثوق بالنساء اللواتي يردنَ التدخّل في شؤون الدولة. لنلقّنهنّ أمثولة تعيدهنّ نهائيًّا إلى مكانهنّ الصحيح، لئلّا تفكّر أيّ منهنّ مجدَّدا في التدخّل في شؤون الرجال أو تجرؤ على تجاوز أسوار الحريم. يجب ألّا ندع إساءة تلك الكافرة بلا عقاب. لا شكّ عندي بأنّها وفي هذه اللحظة بالذات تجمع أنصارها لتحاول أن تفرض علينا سلطانًا جديدًا، تختاره هي. لا يمكن للمؤمنين القبول بإذلال كهذا. كان المعزّ أيبك سلطانًا عادلًا، ورجلًا مقدامًا وتقيًّا، يسعى لمجد الإسلام وانتصار المؤمنين على الكفّار. وهذه هي زوجته الأولى.

إلتفت نحو أمّ عليّ الراكعة عند قدميه، وأومأ إليها بأن تنهض، وأضاف مشيرًا إليها بإصبعه:

– هذه هي المرأة التي تزوّج منها على سنّة الله ورسوله.

وقف المحتشدون على رؤوس أصابعهم، لرؤيتها على نحو أفضل. وتابع الإمام:

– إنّها امرأة متواضعة، لم تكن تعيش إلّا لزوجها وابنها الذي رُزقت به منه، قبل أن تقرّر شجرة الدرّ سلبها زوجها. لقد أرغمت هذه الأخيرة أيبك على أن يطلّق أمّ ابنه الوحيد، نور الدين عليّ، الشابّ الرفيع القيمة، والذي نشأ على يدَي أبيه. إنّ حكمة الله الواسعة التي حالت دون أن يحظى السلطان بذريّة من الملكة الكافرة، شجرة الدرّ، لهي إشارة! نور الدين عليّ هو الشخص الوحيد الذي يحقّ له باعتلاء عرش أبيه. وسيحيط به مستشارو المعزّ وموظّفوه. ليس في مصر من أيّوبيّين، لكن لدينا نور الدين عليّ، ابن سلطاننا المقتول. واجبنا أن نسانده، وألّا ندع شجرة الدرّ تغتصب السلطة وتوقع البلد في الاضطرابات والفوضى. من مصلحة تلك المرأة التحريض على نشوب حرب داخليّة بين الأفرقاء المتخاصمين والطامعين بالعرش، وتسهيل قيام حالة من عدم الاستقرار، لكي تبقى هي على قيد الحياة وتحتفظ بالسلطة. آنذاك، سترون أعمالكم تنهار وأملاككم تتهدّدها عصابات من الجنود الغاضبين والمتعطّشين للدم. وستسود الفوضى التي يكرهها الله سبحانه وتعالى. ستُخلع أبواب منازلكم، وتُسبى نساؤكم، ويُخطف أولادكم، ويحدق الخطر بأرواحكم. إستيقظوا أيّها المؤمنون، واستعيدوا زمام مصيركم بيدكم، ونادوا بنور الدين عليّ سلطانًا شرعيًّا علينا ووريثًا لأبيه المقتول! نور الدين عليّ هو ضمانة السلام والاستقرار لنا جميعًا! وبصوت جهوريّ، ختم كلامه قائلًا: إتبعوني إلى القلعة! لعن الله شجرة الدرّ وأنزل بها أشدّ القصاص، وأفظع العذاب، عقابًا على جريمتها. إنّها تستحقّ أن نرسلها إلى جهنّم في الحال!

مع انتهاء الخطاب الملتهب للإمام سليمان، تعالت صيحات التأييد. فقد تلاعب بمهارة بالأوتار الحسّاسة لأبناء القاهرة. إذا كانت شرارة واحدة كافية لإلهاب الشعب المصريّ، فإنّ خبر اغتيال السلطان بأمر من الملكة، وخطر فقدان الاستقرار وتهديد الحرب الأهليّة التي تثير هواجس أهل القاهرة، كفيلة بإضرام النيران في العاصمة المصريّة كلّها.

إرتشفت أمّ عليّ كلمات الإمام كمن يتذوّق رحيق ثمار الجنّة. أخيرًا سيتحقّق لها الثأر الذي طال انتظاره. نهضت وسارت خلف الإمام إلى القلعة، بخطوات خفيفة شعرت معها بأنّها لا تمشي، بل تطير. نظرت حولها إلى الجمع المتأجّج غضبًا ضدّ شجرة الدرّ، وأحسّت بنفسها محمولة على غيمة من السعادة، تدفعها ريح الحظّ السعيد. ها هي ساعة سقوط غريمتها قد زفّت أخيرًا، ولم تشأ أمّ عليّ أن تحرم نفسها لذّة أن تكون هي مَن تُعلن لشجرة الدرّ شخصيًّا خبر إذلالها وإلحاق العار بها. كانت تَعد نفسها بأن تتذوّق كلّ لحظة، كثمرة من أطايب الجنّة، وأن تحفظها في ذاكرتها كأثمن الجواهر... آنذاك مرّت ببالها رغبة عابرة، وإنّما جشعة، حيال المجوهرات الشهيرة والكنوز التي راكمتها شجرة الدرّ في خلال مُلكها الطويل. كانت أمّ عليّ تنوي وضع اليد عليها.

واصل المتظاهرون الصياح وإطلاق الشتائم بحقّ شجرة الدرّ، مستعيدين المحتوى المفعم بالكراهية لخطاب الإمام سليمان. فيما تولّى مثيرو الشغب الذين لا يخلو منهم أيّ حشد ساخط، التناوب على دور الإمام وأمّ عليّ بشكل عفويّ. مضوا بالخبر الرهيب إلى أبعد أحياء العاصمة، وراحوا يحرّضون السكّان على الالتحاق بالجمع الثائر المتّجه إلى مقرّ الحُكم.

***

تقدّم الموكب، يقوده سليمان وأمّ عليّ، صعودًا نحو باب المدرّج، وهو المدخل الغربيّ للقلعة، حيث اصطدم بالحرّاس الذين رفضوا السماح له بالدخول. راح المتظاهرون يصيحون بأعلى أصواتهم مطالبين بحقّهم في إنزال العقاب بالسلطانة وإجلاس ابن أيبك على العرش. لكنّ الحرّاس كانوا قد تلقّوا أوامرهم، فالخبر نُقل على عجل إلى قُطُز، على لسان أحد مرافقيه ممّن شهدوا استعراض أمّ عليّ وكريمة في باحة القلعة. كان المملوك قد طلب سرًّا مقابلة سيّده، وأخطره بما جرى، منتظرًا التعليمات لمعالجة المسألة. إستاء قُطُز كثيرًا، وظنّ أنّ زمام الوضع بدأ يفلت من يده. لام المملوك على افتقاره لسرعة البديهة والمبادرة، إذ لم يلجم أمّ عليّ ويضعها تحت حراسة مشدّدة. ثمّ أمره بالقيام بكلّ المطلوب للحفاظ على النظام.

لكنّ الجلبة غير الاعتياديّة التي تناهت إليه من المدينة، سرعان ما وضعته في صورة تطوّر الأحداث. لم يكن صعبًا على رجل محنّك وذكيّ ومراوغ مثله أن يدرك جوهر خطّة طليقة أيبك. فهم في الحال أنّ أمّ عليّ أخذت الجميع على حين غرّة، بمَن فيهم هو وشجرة الدرّ. كان طبعًا يدرك الكراهية الشديدة التي تضمرها تلك المرأة للسلطانة، كراهية تسيّر كلّ خطوة تخطوها، وتتنفّسها مع كلّ نسمة هواء، تتغذّى بها، ولا تذوي أبدًا.

أدرك قُطُز أيضًا أنّ الملكة خسرت، فقرّر بواقعيّته استدراك الأمر، مؤجّلًا إلى وقت لاحق أحلام السلطة والعظمة التي بدأت تداعب مخيّلته منذ سماع اعتراف شجرة الدرّ. كان عليه في الوقت الراهن، التكيّف مع المعطيات الجديدة والتعامل مع ما هو أكثر إلحاحًا. أمّا لغز أمّ عليّ، وعلمها المسبق بالأحداث ووجودها المستغرب في القلعة منذ الصباح، فمن الأمور التي سيكتشفها في يوم آخر. ما كان ملحًّا في تلك اللحظة هو الحؤول دون وقوع كارثة، وقطع الطريق على هذا الحشد الهائج الذي يسعى جاهدًا إلى دخول القلعة، كما وإعادة الهدوء إلى المدينة. أعطى أوامره بإبقاء بوّابات القلعة موصدة، بانتظار عودة المملوك الذي كان قد أرسله إلى المدينة، لتقصّي آخر الأخبار. من جهة أخرى، لم يشأ قُطُز البقاء في القلعة، معزولًا مع شجرة الدرّ: أوضح في أوامره ضرورة السماح لكبار الأعيان بالدخول، وعلى رأسهم الفايزي، وزير السلطان.

بدأت خطّة أمّ عليّ تؤتي ثمارها. لم يعد بوسع نائب السلطان التصرّف بمفرده للاستيلاء على السلطة، ففضّل التشاور مع الشخصيّات الأساسيّة الأخرى في البلاط وفي الجيش، لاتّخاذ القرار بشأن تحديد خلف للسلطان المقتول، وأيضًا بشأن مصير السلطانة.

الفايزي

كان سليمان وأمّ عليّ يُجريان مفاوضات حثيثة مع الحرّاس بهدف دخول القلعة. وفي الخلف، كانت الحشود تثور أكثر فأكثر ويعلو صياحها، مطالبةً بحقّ الدخول وإنزال أشدّ العقوبات بشجرة الدرّ. فجأةً لفت نظر مثيرَيْ الانتفاضة صمت مفاجئ. إلتفتا إلى الخلف لمعرفة السبب: راح أبناء القاهرة يبتعدون أمام إحدى الشخصيّات المهمّة، التي كانت تتقدّم على صهوة حصانها نحو الباب الغربيّ للقلعة. وقد أخذت حاشية الشخصيّة المرموقة تعنّف الحشود التي تباطأت في إفساح المجال أمام القائد وحصانه.

كان الرجل قصير القامة، شديد السمرة، متكرِّشًا من غير بدانة، ذا وجه نحيل تزيد من طوله لحية سوداء مُسرّحة ومستدقّة الطرف، غائر الشفتين، وبارز الأنف. كان هبة الله الفايزي يعتمر عمامة ضخمة ثمينة الزخارف، ويرتدي ملابس تشي بالثراء الواسع. كان أوّل مسيحيّ قبطيّ يرتقي إلى منصب الوزير المرموق. من على صهوة حصانه، تفرّس في مثيرَي الشغب بعينيه السوداوين الملتمعتين بمزيج من الذكاء والدهاء.

بسرور وحبور، رأته أمّ عليّ يقترب. فقد تبيّنت فيه حليفًا طبيعيًّا، لأنّها كانت تعرف تمامًا أنّه لا يكنّ للسلطانة حبًّا جمًّا. فهو يدين بمنصبه إلى أيبك، وكان متفانيًا في الولاء له. قرّرت التصرّف بسرعة، فخرّت على ركبتيها أمام حصانه، مجازِفة بأن تطأها قوائم الحيوان. لجم الوزير حصانه في اللحظة الأخيرة قبل أن يدهس تلك المرأة الراكعة، التي راحت تلطم صدرها وتولول وتصيح منتحبةً:

– مات السلطان المعزّ، شجرة الدرّ أمرت بقتله! أرجوك يا مولاي، خذ بثأري! أنت تعرفني، أنا أمّ عليّ، والدة نور الدين عليّ، الابن الوحيد للسلطان.

لم يظهر على الفايزي أنّه فوجئ بهذا الخبر، فقد سبق أن حذّر السلطان من قضاء الليل في جناح زوجته. كما أنّ أخبار الاضطرابات والتمرّدات حول القلعة، بلغته في الطريق.

ترجّل عن حصانه وساعد المرأة المتّشحة بالأسود على النهوض، وقال لها:

– أأنتِ المسؤولة عن الاضطرابات التي تسود المدينة يا امرأة؟ هل أنت واثقة ممّا تقولين؟ إنّ نشر أخبار كهذه بدون دليل، والإخلال بالنظام العامّ، لجريمة حقيقيّة. لعلّ السلطان مريض أو مصاب، وليس ميتًا. أخشى أنّك تركتِ كراهيتك تتحكّم بك بدون احتساب العواقب، لأنّ هاجسك الوحيد هو الانتقام من السلطانة.

– أقسم بحياة ابني، ووحيد السلطان، أنّ المعزّ مات أو هو يُحتضر، بدأت بالقول. فالأفعى التي تتحكّم بهذا القصر رفضت السماح لقُطُز بالدخول لرؤيته، لكنّ إحدى نساء الحريم أخبرتنا بما جرى مساء البارحة.

ثمّ أوجزت له رواية مرجانة سريعًا:

– وقع حادث خطير في حمّام شجرة الدرّ مساء أمس، وبعد ذلك لم يرَ أحد السلطان مجدَّدا. ما من شكّ بأنّها قتلته وتحاول إخفاء جريمتها زاعمةً بأنّ السطان مريض ولا يجدر إزعاجه. تعرف أنّها ليست المرّة الأولى التي تخفي فيها خبر وفاة سلطان. وأشكّ أيضًا بأنّ تلك الشيطانة تسعى لإغراء قُطُز، للنجاة بجريمتها. سوف تعده بالزواج وبالعرش. يجب منعها من النجاح مهما كان الثمن، يجب أن تدفع ثمن جريمتها! أضافت والدموع في عينيها: أتوسّل إليك، أنت أملي الوحيد. أنت تملك السلطة لإفشال خطّتها، و...

توقّفت لثانية، ثمّ تابعت بعدما قرّرت المجازفة بكلّ شيء:

– ... والعمل على مبايعة الوريث الحقيقيّ للمعزّ أيبك، والقادر على ضمان الاستقرار في البلاد واستمرار السلطنة. وأعني بذلك ابنه الوحيد نور الدين عليّ.

أخذ الفايزي وقته ليتأمّل ذلك الوجه الذي يجسّد الانتقام والكراهية. أطرق قليلًا، ثمّ بدا بأنّه اتّخذ قراره. إلتفت نحو الحرّاس وأمرهم بألّا يسمحوا إلّا بمرور أعضاء مجلس السلطان المصغّر، وبألّا يطلبوا المساعدة سوى من أفراد حاشيته الخاصّة لردع الحشود الثائرة. وقال إنّه سيبعث إليهم بتعليمات أخرى حين يستعلم عن حال السلطان.

ثمّ التفت إلى الجمع وحاول طمأنة أبناء المدينة، فأعلن لهم أنّه يتعهّد شخصيًّا ببذل كلّ جهد ممكن، لئلّا تسقط البلاد في أتون عدم الاستقرار والفوضى، وويلات الحرب على خلافة العرش. وأقسم بشرفه. كما طلب منهم أن يمنحوه الوقت الكافي، وألّا يزيدوا من حدّة الاضطرابات في قلب مدينة القاهرة.

وحين طلب من أمّ عليّ أن تتبعه إلى داخل القلعة، كادت أن تختنق فرحًا وأملًا.

كافور

لم يتكلّف كافور عناء مسح دم مرجانة عن خنجره، فالوقت بات عدوّه. كان عليه التركيز على هدفه الوحيد: مساعدة السلطانة على البقاء حيّة.

كان قد سار في أثر الأمَة من بُعد، وحالما تجاوزت باب الحريم وتركت الحارس الذي أرسله قُطُز، لحق بها. كان يدرك أنّها تتّجه إلى جناح شجرة الدرّ، وانتظرها بقرب باب حجرة صغيرة تفضي إلى رواق. وما إن سلكت الرواق المذكور، حتّى كمّ فمها بإحدى يديه وأدخلها الحجرة. ثمّ قطع رقبتها بخنجره وتركها على الأرض جثة هامدة، ليخرج بعدها ويغلق الباب. لقد نفّذ مهمّته الأولى بفعالية كاملة، وماتت مرجانة على الفور بدون أن تصدر عنها صرخة واحدة.

ثمّ اتّجه إلى قاعة الحرس ليجمع جنوده، أي فرقة الخصيان المتأهّبين منذ مقتل السلطان، استعدادًا للتحرّك بهدوء لعدم لفت انتباه مماليك المعزّ، الذين ازدادوا ريبة حول ما يجري في الحريم منذ أن قرّر سيّدهم أيبك قضاء الليل فيه. غير أنّ كافور رأى أنّ الوقت حان للقيام باستعراض قوّة بمواجهة التهديدات التي تتربّص بشجرة الدرّ.

كان كافور قد أقام شبكة مُخبرين، متطوّرة جدًّا، حتّى أنّه تفوّق في هذا المجال على جمال الدين محسن، الرجل الأكثر اطّلاعا في عهد السلطان الصالح أيوب. بفضل تلك الشبكة علم كافور بالعلاقة بين مرجانة وأمّ عليّ. كان يدرك أنّ مرجانة أجبن من أن تقوم وحدها بأيّ عمل، برغم كراهيتها للسلطانة، لكنّه شكّ بضلوع أمّ عليّ في بعض المحاولات التي كانت تستهدف شجرة الدرّ.

تفقّد كافور فرقه، وأعطى تعليماته إلى أحد رجاله الموثوقين، واسمه عبّاس. طلب منه اختيار بضعة عناصر لتأمين حراسة جناح شجرة الدرّ حيث ترقد جثّة السلطان، وعدم السماح لأحد بالمرور ولو بقوّة السلاح إذا اقتضى الأمر، قبل عودة الملكة. كما كُلّف عبّاس بتنظيم الحراسة عند مخارج الحريم والدفاع عنها ضدّ أيّ محاولة اقتحام. كان الحرّاس الخصيان كلّهم مسلّحين تسليحًا كاملًا بالرماح والسيوف والخناجر.

كان كافور يختار أقواهم لمرافقته إلى قاعة العرش، حين قاطعه أحد مخبريه، وهو خصيّ أسود عجوز. كان الرجل قد بلغه مقطوع الأنفاس، بعدما أتى ركضًا من باحة القلعة الرئيسيّة، لإبلاغ كافور بما يُحاك. شجّع هذا الأخير الرجل المسكين على استرجاع أنفاسه، قائلًا له:

– إهدأ، أنا لا أفهم شيئًا ممّا تقول.

– الأمر في غاية الخطورة يا كافور. ما يجري عند باب المدرّج في غاية الخطورة.

– ماذا يجري؟

– خرجت أمّ عليّ، طليقة المعزّ، من القلعة وهي تشتم السلطانة بأعلى صوتها. ثمّ اتّجهت نحو السوق صارخةً بأنّ السلطان مات مقتولًا بأمر من شجرة الدرّ. وهي الآن تحرّض الشعب ضدّ السلطانة وتنادي بالثأر. إنّها كارثة يا كافور. ستحترق القاهرة وتُسفك فيها الدماء اعتبارًا من اليوم. سنموت كلّنا!

صمت كافور ثواني قليلة لتقييم خطورة الوضع. لقد تأكّدت شكوكه بشأن نوايا أمّ عليّ، لكنّ الأمر كان أسوأ ممّا يخشاه. هرع إلى نافذة مطلّة على الساحة عند أسفل باب المدرّج. أذهله ما رآه: كانت الحشود تتزايد حول طيف امرأة بالأسود راكعة تذرّ التراب على رأسها، وترفع ذراعيها مرارًا

وتكرارًا نحو السماء، في ما بدا ابتهالًا إلى الله وملائكته. وقد بدأت جلبة مقلقة تتصاعد من الجموع، ما لا يبشّر بالخير للسلطانة شجرة الدرّ.

عاد كافور سريعًا إلى قاعة الحرس، وأمر الذين اختارهم بأن يتبعوه. لقد بات مكانهم الآن، وأكثر من أيّ وقت مضى، إلى جانب السلطانة المتروكة وحيدة وجمال الدين محسن العجوز في قاعة العرش، بمواجهة معارضيها. كان كافور يثق بقدرات شجرة الدرّ في المماطلة وكسب الوقت. لكنّ الوضع انقلب بشكل مأساويّ بعد تدخّل أمّ عليّ، وكان أبعد من أن يكون في مصلحتهم. فهذه الأخيرة ستنجح في إرغام قُطُز الحريص، على التصرّف بسرعة لاحتواء الوضع.

ما طار طير وارتفع إلّا كما طار وقع

بدأ الخوف ينال من شجرة الدرّ، وشعرت بأنّ قواها تخونها. كانت قد بقيت في قاعة العرش بانتظار قرار قُطُز، ولم تُعد خمارها الصغير إلى وجهها: أرادت أن تعرف فورًا ما يخبّئه لها القدر، وبوجه مكشوف. والواقع أنّ إلمامها بحقيقة اللعبة السياسية ومعايشتها كثيرًا من الأحداث في حياتها، قد جعلا آمالها تتضاءل. كانت تخسر. وأدركت في صفاء ذهن مفاجئ، أنّ حالة الصراع الدائم التي لطالما عاشتها، قد أنهكتها واستنزفتها حتّى الأعماق. بشكل أو بآخر، راحت تحاول إقناع نفسها بأنّ النهاية إنّما قد تكون راحة تستحقّها أخيرًا.

أكثر ما كان يعذّبها هو الانتظار وجهل سير الأمور، وكذلك اضطرارها إلى الخضوع لقرارات الآخرين، بدون أن تكون لها كلمتها. فجأةً، ظهرت الحقيقة المرّة أمام عينيها، ولوت ثغرها الجميل ابتسامة ساخرة: لقد خسرت نهائيًّا سيطرتها على الأمور، وذلك بخطأها.

في العالم المسلم، لا تستطيع المرأة أن تحكم، بدون ظلّ رجل بجانبها على الأقلّ، يكون بمثابة ستارة بينها وبين الشعب، لإخفاء هذا الواقع. أمّا هي، وبتصفيتها زوجها السلطان المعزّ أيبك، فقد استعجلت سقوطها هي نفسها. وبالخنجر عينه الذي أجهزت به على السلطان، أجهزت كذلك على شرعيّتها كسلطانة، ولم يعد بوسعها أن تنسب إلى نفسها هذا اللقب، بصفتها زوجة للسلطان. هذه العودة المفاجئة إلى أرض الواقع، قطعت أنفاسها.

كانت السلطانة الأنوفة والطموحة تترنّح. بات عليها أن تجد وبأسرع وقت ممكن، سببًا يدعوها إلى الأمل، أو فكرة تحول دون غرق دماغها في دوّامة الجنون السوداء. كان قُطُز، الأمل الوحيد الباقي لديها، يقف أمامها متردِّدا. تُرى بمَ همس له هذا المملوك العجوز الذي أتى منذ قليل؟ كان دم شجرة الدرّ في غليان، وغريزة البقاء لديها تطالب وبرغم كلّ شيء باتّخاذ قرار. كيف يستطيع قُطُز أن يتردّد بهذا الشكل أمام فرصة حياته؟ لقد قدّمت له، مع رأس أيبك، حلمه المنشود. لكن، هل كان يتحلّى بالشجاعة ليمدّ يده ويلتقط النعمة المقدّمة إليه؟ هبني اللّهم القوّة والشجاعة الضروريّتين لأواجه أعدائي!

عندئذٍ، عقد قُطُز حاجبيه، وهو ما ينذر بالأسوأ. وتلك الأصوات، تلك الصيحات التي لم تنفكّ تشتدّ، كلّها كانت موجّهة ضدّها، كلّها كانت تطالب برأسها. تناهت إليها من فوق الأسوار بعض الكلمات: «الموت»، «العقاب»، واسمها، واسم المعزّ أيبك... أحسّت بألم هائل يعتصر جمجمتها وكأنّها بين فكّي ملزمة، يد وهميّة ولكن وحشيّة تضغط أكثر فأكثر، بدون أيّة شفقة. وجّهت انتباهها كلّه إلى الجلبة والصيحات التي كانت ترتفع من المدينة في اتّجاه باب القلعة الغربيّ. سرت في الباحة حركة غير مألوفة. بات الأمر مقلقًا أكثر فأكثر، وراح فكّا الملزمة يعتصران رأسها المجلّل بالعمامة الذهبيّة، أكثر فأكثر.

في تلك اللحظة، رمقها قُطُز بنظرة العاجز. ما قرأته السلطانة في تلك النظرة جمّد الدم في عروقها وأكّد لها أسوأ شكوكها. فات الأوان على نجاتها، فالخبر تجاوز القلعة. وحتّى ولو ساورت قُطُز نفسه بقبول عرض شجرة الدرّ، فهو لم يعد قادرًا على ذلك. تسارُع الأحداث سدّ عليه الطريق، وقيّد حركته.

فجأةً سمعا صيحة بدرت عن نور الدّين عليّ، الذي اقترب من النافذة ولمح أمّه: كانت أمّ عليّ تدخل القلعة برفقة الإمام سليمان والوزير الفايزي.

– أمّي!

– أمّ عليّ؟ أين هي؟ سأل قُطُز.

أشار نور الدين عليّ بإصبعه عبر النافذة:

– لقد دخلت برفقة الوزير الفايزي، وأظنّها لن تلبث أن تنضمّ إلينا.

في الحال، بدأ لغز الأحداث الأخيرة ينجلي لقُطُز. ظهور مرجانة في البداية، ثمّ سرعة تسرّب خبر موت أيبك إلى خارج أسوار القلعة لتحريض أبناء القاهرة. أمّ عليّ... كان الجميع على علم بكرهها الشديد للسلطانة شجرة الدرّ، لكن مَن كان ليظنّها قادرة على القيام بخطوة بهذا الحجم وبمثل هذه السرعة؟

فتح الحرّاس الواقفون عند المدخل الباب الرئيسيّ، ليدخل منه عدد من الأشخاص، أعلنوا عن وصول الوزير الفايزي. ببطء، سارت خلفه في العتمة، امرأة بأوشحة سوداء ممزّقة كانت تجرّها خلفها كذيل غراب شؤم. ظهرت أمام عينَي السلطانة المسكينة التي تكاد تفقد الوعي، وأمام عيون الحضور الصامتين، بهيئة عزرائيل ملاك الثأر الأسود، وشبح الموت. حين خرجت من الظلّ، كشف وجهها السافر عن هويّتها.

كان وقع ظهورها هائلًا. ترنّح جمال الدين محسن، رئيس الخصيان، أمّا نور الدين عليّ فاندفع نحو والدته، خائفًا مرتبكًا، ليتعثّر ويسقط على قفاه بصورة مثيرة للشفقة، فاغرًا فاه في صرخة ألم مكتومة. كاد الغلام المسكين لا يتعرّف إلى ملامح أمّه، التي شوّهتها تكشيرة بشعة. كان لذلك الوجه الخارج من ماضٍ ضبابيّ وقع السوط اللاسع على ذاكرة السلطانة وأعصابها. إنّها أمّ عليّ المهجورة، الطليقة، التي ظنّتْ شجرة الدرّ بأنّها تخلّصت منها قبل سبعة أعوام، بحركة واحدة من ظاهر يدها البيضاء الرقيقة. جاءت صدمة هذا الحضور الأسود لتقضي على آخر ذرّة من الأمل بقيت لدى تلك المحاربة العنيدة والمتقائلة.

لم تساور شجرة الدرّ أيّة أوهام بشأن هدف أمّ عليّ الأساسيّ. فقد سمعت بعض الشتائم التي أطلقها أبناء القاهرة عند باب القلعة، كما كان لها من بعد النظر وصفاء الذهن ما يكفيها لتعرف ما تطمح إليه عدوّتها. أمّ عليّ تريد أن ترى نور الدين على عرش مصر، وريثًا لأبيه، السلطان المعزّ أيبك. وبذلك تصيب عصفورين بحجر واحد: إلى جانب التخلّص من غريمتها، تحلّ محلّها بصفتها الملكة الأمّ. لم تفت شجرة الدرّ سخرية القدر. كلّ ذلك ما كان ليكون لولا فعلتها هي، حين قرّرت التخلّص من أيبك.

لم يتكلّف الفايزي عناء إلقاء التحيّة على السلطانة وبل توجّه توًّا إلى قُطُز. كان يقصد محادثته ليستطلع نواياه قبل وصول الأعيان الآخرين. لكنّه لم يلقَ الانتباه اللازم من قُطُز، بل وجده مشدودًا إلى المرأتين الواقفتين عند الجهتين المتقابلتين من قاعة العرش. بدا نائب السلطان مأخوذًا بالاحتمالات التي قد تترتّب عن هذه المجابهة النسائيّة. فجأةً شعر الفايزي، هو الآخر، بالجوّ المشحون والثقيل الذي راح يتغلغل في المكان ويحتكر حواسّ الحاضرين كلّها.

لبثت شجرة الدرّ واقفة متجمّدة كصنم قديم جميل. عضلة واحدة في وجهها لم تكن لتتحرّك. اضطرّت أمّ عليّ إلى السير نحوها لاستفزازها. كانت عاجزة عن ضبط نفسها كما فعلت شجرة الدرّ، وبل كشف وجهها السافر عن لذّة وحشيّة، تكاد تكون بدائيّة. لذّة الأنثى التي تنتصر أخيرًا على غريمة سلبتها رَجلها المعشوق، وعدوّة تمتّعت حتّى تلك اللحظة بحظّ أوفر، غير أنّ ساعة العقاب قد زفّت أخيرًا.

لو أنّ مراقبًا دقيق الملاحظة أمعن التفرّس في وجهها، لاكتشف بقايا رقّة غابرة، قبل أن تشوّهه الكراهية والغيرة شيئًا فشيئًا وتحفر بصبر في بشرتها الناعمة ملامح معالم البؤس. ففمها المكتنز والخالي من اللون قد انتهى باكتساب تعبير المرارة. تقعّرت وجنتاها، ما زاد في ضخامة أنفها الكبير، والذي لم يكن على الأرجح بهذه البشاعة في الماضي، حينما كانت شفتاها حمراوين وباسمتين،

ووجنتاها ورديّتين عابقتين بالصحّة، وعيناها متألّقتين بلون البندق البرّاق برموشهما الطويلة السوداء. هاتان العينان وحسب كانتا تشيان بجمال الزمن السعيد، بشكلهما الشبيه باللوزتين ولونهما الدافئ والرقيق. لكنّ مرآتَي الروح الصغيرتين غشّاهما شحوب البؤس اليوميّ والكراهية العنيدة التي استوطنت قلب أمّ عليّ. فأحاطت بهما الدوائر السوداء وباتتا تفضحان ليالي الأرق التي لا تحصى ولا تعدّ، والتي قضتها في التضرّع إلى الله سبحانه تعالى وأنبيائه وكلّ ملائكته، لمساعدتها على الانتقام من شجرة الدرّ، والعمل على هبوطها إلى جحيم شبيه بالجحيم الذي كانت تعيشه منذ أن حطّمت السلطانة زواجها وقلبها وحياتها.

توقّفت أمّ عليّ على مسافة متر من شجرة الدرّ. عينان بلون البندق مجلَّلان بالسواد، قبالة عينَين بلون الزمرّد. وغاصت كلّ من النظرتين في نظرة غريمتها بدون أن يرمش لها جفن. حبس الحضور أنفاسهم وأصاخوا الأسماع، مركّزين انتباههم على المرأتين. ضاقت جدران القاعة، وانكمش المكان ليقتصر على محور رسمه خطّ النار الذي جمع بين النظرتين المستعرتين واللاهبتين كالكبريت.

تواصل توافد أعيان البلاط، وانضمّوا إلى المتفرّجين الآخرين المشدودي الانتباه. وقف الجميع صامتين في هذا الجوّ المشحون المسيطر على قاعة العرش. بدت المرأتان في عالم آخر، عالم الكائنات التي تتصارع من أجل البقاء، تحت تأثير مشاعر وانفعالات تكاد تتجاوز حدود الاحتمال.

بولوجهما عتبة ما لا يُرى، راحت الكائنتان تكتسبان قدرات خارقة للطبيعة، فاستطاعت كلّ منهما أن تخترق بعينيها، غشاء غريمتها الجسديّ الزائل، وصولًا إلى التقاط جوهرها وقراءة باطنها بوضوح تامّ. بدت كلّ منهما عاجزة عن تحويل نظرتها عن الأخرى، فيما تنقّب في أبعد أعماق روحها. غير أنّ شجرة الدرّ التي أضنتها الأحداث المريرة، كانت من رمشت أولًا ورفعت يدها إلى فمها لتكتم صرخة: لقد رأت الفظاعات الساكنة في قلب غريمتها، كما رأت مشهد الموت المريع والمعيب الذي تتمنّاه لها هذه الأخيرة.

أمّا أمّ عليّ فقد وضعت يديها على ردفيها ومالت برأسها إلى الخلف لتنفجر في ضحكة غير بشريّة، أقرب إلى عويل الذئبة. قطعت تلك الضحكة السحر الذي كان قد جمّد جمع الرجال، الشاهدين على هذا اللقاء، وأعادهم إلى حقيقة المجابهة التي كانت تجري أمام عيونهم المشدودة. رافق تلك الضحكة الهستيريّة التي تجمّد الدماء في العروق، فرح وحشيّ شعّ من عينَي أمّ عليّ: لقد عرفت السعادة أخيرًا، ونجحت في إدراك خوف غريمتها ويأسها، وراحت تتلذّذ بهما. ومع ذلك فقد بذلت شجرة الدرّ، بكبريائها الهائل، قصارى جهدها لإخفاء مشاعرها عن النظرات الشريرة التي تقتحم كيانها. ولكنّ جهودها باءت بالفشل أمام إصرار أمّ عليّ الصاعق وظمأها الذي لا يرتوي إلى الثأر.

يداها على ردفيها، راحت أمّ عليّ تدور حول شجرة الدرّ كعنكبوت سوداء حول فراشة جميلة رمى بها القدر الظالم في شباكها المحبوكة بعناية، وقالت لها:

– يا شجرة الدرّ، ستخسرين ثمارك كلّها، وأنا التي سأقطفها.

همست بكلماتها المسمومة تلك في أذن السلطانة، وكانت قريبة منها لدرجة أنّ رائحة فمها الكريهة كادت تُفقد شجرة الدرّ الوعي.

– سأسحقها تحت بابوجي. تابعت تقول، مُرفقة كلماتها بخبطة عنيفة من قدمها. أيّام مجدك ولّت إلى غير رجعة، وجاء زمني. سأجلس مكانك وأصبح أنا السلطانة. كلّ ما هو لكِ سيصبح لي. هذه الجواهر الرائعة مثلًا، قالت، وهي تلمس بإصبع جشع قرطًا ثمينًا يتدلّى من أذن شجرة الدرّ الجميلة والمرسومة بدقّة، التي لم تجد حتّى القوّة لتبعد بقفا يدها ذلك الإصبع الفظّ. سآخذ منك كلّ شيء، تابعت بحدّة. كلّ شيء ما عدا أيبك. الرجل الذي كان حياتي، والذي سلبتِني إيّاه مرّتين: في الماضي حين أرغمتِه على

تطليقي، واليوم حين قتلتِه ويتّمت ابني.

وأمام ذهول الجميع، انفجرت مجدًّدا بقهقهة هستيريّة:

– حين أفكّر بأنّني أدين بلذّة الثأر لآخر جريمة تقومين بها كطاغية مستبدّة! هذا الثأر الذي طال شوقي إليه! قضيت ليالٍ بكاملها أتضرّع إلى الله وأنبيائه ليسمح لي بأن أتذوّقه قبل موتي– ويا مرحبًا بالموت بعدما أُتِمّ ثأري – يد الله هي التي أعمت بصيرتك. ويدك أنت هي التي عجّلت في سقوطك وفتحت أمام ابني طريق العرش... لي ضلع في الأمر أيضًا. أشدّد على توضيح هذا الأمر: إنّ دوري كان حاسمًا في سقوطك. لولا تدخّلي السريع لنجحتِ بلا شكّ في إجلاس أحد مناصريك على العرش. مدفوعة بغريزتي والكراهية التي أضمرها لك، أرسلت قُطُز وعليّ هذا الصباح للتحقّق من صحّة أيبك، قالت أمّ عليّ مؤكّدة شكوك شجرة الدرّ. كنت متأكّدة من أنّه لن يستطيع الخروج سالمًا من بين مخالبك. وقد أكّدت مرجانة لي ذلك صباح اليوم... وفي الواقع لقد أمرتِ بقتلها هي أيضًا، أليس كذلك؟ سألتها أمّ عليّ والتي كانت على يقين من مقتل مرجانة.

لم تستطع أمّ عليّ إخفاء الفرح الوحشيّ الذي اجتاح كيانها لرؤيتها السلطانة وقد استبدّ بها الرعب أمام هذا السرد الشيطانيّ. تابعت تقول:

– كنت موجودة صباح اليوم خلف السجّاد، هناك، ولاحظتُ محاولاتك لإغراء قُطُز. رأيت في عينيه أنّه لم يكن بعيدًا عن الانقياد لك، فكان عليّ التدخّل لأمنعك من تحقيق انتصار جديد. كان يجب أن تسقطي كي أستطيع أن أنهض من جديد، فقرُّرت تحذير أهل القاهرة، وإشهادهم على ما يجري، لكي تتالي القصاص العادل على جريمتك. نجحتُ في ذلك بمساعدة إمام المسجد. وها هم أبناء القاهرة يطالبون الآن برأسك، أيّتها السلطانة العزيزة. فتذكّري جيّدًا ما سأقوله: أنا، أمّ عليّ، مَن عجّلت بسقوطك.

كان ذلك أكثر من أن تستطيع شجرة الدرّ المسكينة تحمّله. فاتّكأت، وهي تكاد تفقد الوعي على أحد الأعمدة لتستعيد أنفاسها. لكنّها وجدت، لا أحد يعرف من أين، القوّة لترمق أمّ عليّ بنظرة سخرية وتقول لها:

– إعرفي بأنّني لم أكن بحاجة إلى إرغام أيبك على تطليقك. كلمة واحدة كانت كافية، لأنّه آنذاك كان يعبد الأرض التي اطأها. تابعت مؤكّدة: مقارنةً بما كنت أعرضه عليه، لم تكوني أنت بشيء يُذكر. لا تستعجلي الاحتفال بانتصارك، فأنت لا تفقهين شيئًا في أسرار عرش مصر. أنظري إلى ابنك. ليس سوى غلام تافه، في الخامسة عشرة من عمره، أمّا السلطة فبيد هؤلاء الرجال.

وأشارت بعينيها إلى نائب السلطان والوزير وبعض أمراء المماليك الذين دخلوا قاعة العرش في الدقائق الأخيرة، وبعضهم من أنصارها. أمّا كبار الأعيان، الذين حضروا كلّهم تقريبًا، فقد وقفوا يتفرّجون مشدوهين على المجابهة بين امرأتَي السلطان المقتول. كان بينهم أمير المجلس [1]، والبُردَدار [2]، وقائد جيش المماليك، والأستدار [3]، والخَزْنَدار [4]، أي بإيجاز كلّ كبار أعيان المملكة، والذين يجمعهم السلطان عادةً للتشاور معهم في الأمور المهمّة. لقد أتوا مسرعين من كلّ قصور القاهرة، بعدما بلغهم هدير الشائعة الذي راح يتعاظم في المدينة.

– إنّ عددًا كبيرًا منهم يطمع في العرش، تابعت شجرة الدرّ تقول. حتّى ولو اختاروا التوصّل إلى اتّفاق لتفادي وقوع حرب أهليّة، وقرّروا إجلاس ابنك مؤقّتًا على العرش، أنصحك بالاستفادة من كلّ لحظة، لأنّه لن يحكم إلّا ظاهريًّا، ولن يبقى سلطانًا لفترة طويلة.

ثمّ توّجهت إلى الأعيان بالقول:

– إنّ هذا الاختيار سيكون غير مشروع وفقًا للقانون الذي وضعه الملك الصالح، رحمه الله. تذكّروا مبادئ تأسيس فرقة المماليك التي أنتم منها: لا يحقّ للمتحدّرين من عبيد مماليك تمّ شراؤهم في السوق، أن يرثوا عن آبائهم أيّة وظيفة رسميّة.

– غير مهمّ، أجابت أمّ عليّ، ما دام ذلك ليمنحني الوقت لأعدّ لك نهاية فظيعة، وأدوس ببابوجي رأسك المغرور! سأقتلع جذورك، يا شجرة الدرر الكريمة، وكأنّك لم تكوني قطّ، ولن يتذكّرك أحد أبدًا.

– لا تبالغي في تقدير قدراتك! إنتقامك الوضيع لا يخيفني، أجابت شجرة الدرّ. لن تكبري بقطعي، بل ستبقين دائمًا حشرة بين حشرات أخرى تعيش طفيليّات على جذعي الثمين. حياتي كانت انتصارًا استثنائيًّا سيبقى إلى الأبد مكتوبًا في صفحات تاريخ مصر والعالم الإسلاميّ. قد تتوصّلين إلى القضاء عليّ جسديًّا، لكنّك لن تنالي من شهرتي أبدًا. إعرفي أيّتها التافهة أنّني غير نادمة على شيء. أيبك خانني بحقارة وهو المدين لي بكلّ شيء، فثأرت لنفسي ثأرًا مشروعًا. لكنّك محقّة في أمر واحد: يد الله الحكيم والبصير هي التي أرشدتني، لأنّ كلّ شيء مكتوب. قدرنا مكتوب على جبيننا، ولا يمكن أن تنتهي قصّتنا إلّا كذلك.

ثمّ توقّفت برهة لتلتقط أنفاسها، وتابعت تقول:

– حاولت دائمًا أن أعيش حياتي على أفضل نحو، وسعيت إلى السير في طريق الحقّ حين أتيح لي الخيار. أنا أرضى اليوم بحكم الله غير نادمة، ومرفوعة الرأس ومطمئنّة القلب.

كان بوسع شجرة الدرّ أن تستمدّ بعض القوّة من حضور رئيس فرقة الخصيان وحارسها الشخصيّ كافور، الذي كان قد عاد أخيرًا. وقف خلفها وأبلغها بصوت خفيض أنّه اختار أفضل عناصر فرقة الخصيان ليكونوا بجانبها، في حال احتاجت إليهم. آنذاك أخذ جدار دفاع منيع من الخصيان المدجَّجين بالسلاح، يرتفع خلف السلطانة.

رمقتهم شجرة الدرّ بنظرة امتنان، وقد أثّر فيها إخلاصهم برغم وضعها البائس. لكنّها كانت قد اتّخذت قرارها، وهي لن تعرّض نفسها للسخرية أو تريق دماءً بلا جدوى. كما كانت تقرأ وضعها بصفاء ذهن تامّ. كان عليها ترك كبار الأعيان يتناقشون ويقرّرون. أمّا هي، فلم يعد لديها الخيار، وبل ستتصرّف بحسب ما يؤول إليه نقاشهم.

كانت أعصابها المُجهَدة تحثّها على اللّجوء إلى جناحها. كانت متعبة، وتشعر بصداع حادّ، وتكاد ساقاها لا تحملانها. تجاهلت أمّ عليّ، تلك الحاقدة المُحبَطة والمتعطّشة للثأر، والتفتت إلى أعضاء مجلس السلطان، فحيّتهم باحترام وسارت إلى المخرج المؤدّي إلى الحريم. بادلها الأعيان التحيّة باحترام مماثل، وانقسموا تلقائيًّا إلى صفّين ليفسحوا لها بالمرور. شكّل خصيانها حولها حلقة منظّمة تليق بمقامها الكبير ورافقوها إلى الباب. وهكذا خرجت شجرة الدرّ مرفوعة الرأس، طلعة ملكة حقيقيّة.

في منتصف الطريق، انهارت أعصابها وسقطت بين ذراعَي كافور الحاميتَين، في غيبوبة ضروريّة وشافية. لا شكّ بأنّ تلك الغيبوبة جنّبتها الجنون، لشدّة ما كان سقوط شجرة الدرر الثمينة العظيمة الكبرياء، عنيفًا وقاسيًا.

---

[1] أمير المجلس هو المشرف على كرسيّ السلطان وسريره.

[2] البردادر هو المكلف بفتح الستارة أو غلقها على باب الأمير أو الوزير.

[3] الأستدار هو المشرف على كلّ بيوت السلطان من مطابخ وحاشية ونفقات وكسوة.

[4] الخزندار هو المشرف على خزائن أموال السلطان.

كافور

أخذ قلب كافور يخفق بسرعة، فالرجل لم يشعر قطّ بخطر الموت كما شعر به في تلك اللحظة. وها هي شجرة الدرّ تهاوت بين ذراعيه، وقد استطاع الإمساك بها في اللحظة الأخيرة قبل أن يصطدم رأسها بالأرض. وها هو يحملها بسرعة إلى ملاذ الحريم، وخلفه رجاله، أمام نظرات مماليك المعزّ العدائيّة، والذين بدأوا يتقاطرون إلى داخل قصر القلعة. بات واضحًا للجميع أنّ الدماء ستراق.

فيما وضع كافور شجرة الدرّ برفق على سريرها، سمع الصيحات المتصاعدة من أزقّة القلعة وأروقتها. كان رجال الحلقة المولجة بحراسة السلطان المعزّ قد أمضوا الليل في القلعة، وهم أوّل من تفاعلوا مع اتّهامات أمّ عليّ. راحوا يطالبون بجثّة سيّدهم، السلطان المعزّ أيبك، فوقف رجال كافور في وجههم يمنعونهم من خلع باب الحريم.

إستعجل كافور العودة إلى مخارج الحريم لتنظيم المقاومة بهدف حماية السلطانة. كانت بعض المناوشات قد وقعت، وأصيب أحد رجاله إصابة بالغة، فيما اتّكأ أحد مماليك المعزّ إلى الجدار، وفي صدغه جرح فظيع.

حاول مماليك المعزّ احتواء عنفهم، لأنّ عددهم لم يكن كافيًا. لكنّ كافور لم يشكّ في أنّ الإمدادات لن تعتّم بالوصول. كان هناك ما يكفي من الرجال للدفاع عن القصر، لكنّ حرس القلعة يخضعون لأوامر السلطان أو نائبه، لا لأوامره هو. لذلك، لن يقفوا في وجه مماليك المعزّ، الذين بات تهديدهم واضحًا:

– نريد أن نرى السلطان! إذا ما زال حيًّا كما تزعمون، دعونا نراه! وإن قتلته شجرة الدرّ، فسنثأر له، ونذبحكم كلّكم، وتدفع شجرة الدرّ ثمن جريمتها!

إختار كافور جمع رجاله في محيط الحريم. كانوا مستعدّين للموت دفاعًا عن سلطانتهم. أجابوا رجال المعزّ:

– سننتظر قرارات المجلس. قُطُز نائب السلطان والوزير الفايزي هناك، والقرار يعود لهما. لكن، تأكّدوا من أنّنا سندافع عن شجرة الدرّ حتّى القطرة الأخيرة من دمائنا.

راح كافور يحاول تهدئة الخواطر. أراد منح الوقت لقُطُز وأنصار الصالح في المجلس، ليأخذوا القرارات التي قد تُجنّب القاهرة أحداث الشغب، وتمنع وقوع مجزرة في القصر. كان يعلم بأنّ قُطُز قد حدّ من حريّة الدخول إلى القلعة، لكنّه لن يستطيع منع الأمراء الموالين للمعزّ من دخولها، برفقة رجالهم. كان يجب الاستعداد للأسوأ، ولذلك وجب أن يعرف في الحال، القرار الذي كان ليُتَّخذ في قاعة العرش.

أمر رجاله بالوقوف عند أبواب جناح شجرة الدرّ، وكلّف عبّاس حماية باب الحريم. قرّر أن يترك لهذا الأخير أمر معالجة الوضع إزاء بعض أنصار المعزّ الذين كانوا قد ابتعدوا قليلًا، بعدما أدركوا أنّهم لن يستطيعوا التغلّب على رجال كافور.

وعليه، اتّجه نحو قاعة العرش. أثّرت نظراته الشرسة وقامته المديدة شديدًا في نفوس أنصار المعزّ، فتركوه يمرّ بدون أن يتجرّأوا على مهاجمته، متهيّبين كذلك الأمر لمرأى الحرّاس يتبعونه مدجّجين بالسلاح. خيّم جوّ ثقيل على قصر القلعة، وشعر الرجال باقتراب العاصفة وانفجار العنف الذي لن يلبث أن يليها. لكنّهم لبثوا جميعًا في انتظار قرارات قادتهم.

بوصوله إلى قاعة العرش، أومأ كافور إلى قُطُز، الذي دعاه للدخول. ففعل بعدما ترك حرّاسه عند

الباب. كان كافور الأقوى نفوذًا في القصر بعد شجرة الدرّ، لذا أدرك قُطَز أنّه سيحتاجه، إذا ما أراد الحدّ من العنف في القصر.

كان جمال الدين محسن لا يزال محتجزًا في القاعة، يحيط به حارسان من أنصار المعزّ. كان شديد الشحوب ويتصبّب عرقًا. رئس قُطُز المجلس. كانت أمّ عليّ وابنها حاضرَين، ويقفان بجانب الوزير الفايزي الذي بادر إلى الكلام:

– نور الدين عليّ هو الوريث الشرعيّ، والابن الوحيد للسلطان. يجب أن يجلس على العرش، فهو وحده القادر على حفظ السلام وتجنيب البلاد حربًا أهليّة.

– لا أساس قانونيّ لاعتلاء نور الدين عليّ عرش أبيه، أجاب قُطُز بخجل. أيبك كان مملوكًا مثلنا، ولم يصبح سلطانًا إلّا بزواجه من شجرة الدرّ، السلطانة وأرملة الصالح، آخر السلاطين الأيوبيّين.

في الواقع، لم يعترف الأمراء الأيوبيّون في سوريا وبلاد ما بين النهرين، بسلطة أيبك إلّا بعد ربط أمير أيوبيّ صغير السنّ بالعرش، وهو الأشرف موسى، ابن شقيقة الصالح، وكان له من العمر ستّ سنوات.

– لكنّك كنت من أوائل الذين التحقوا بالمعزّ يا قُطُز، ردّ الفايزي. وهذا ما أتاح لك أن تصبح نائبًا للسلطان.

– صحيح. فمنذ أن قبلنا بأيبك ليكون أتابك الجيش، ورضينا بزواجه من شجرة الدرّ لضمان استمراريّة سلطنة الصالح أيّوب، سيّدنا كلّنا، بات علينا دعمه ومساعدته، للمحافظة على الاستقرار في المملكة. لكنّ هذا لا يعني بأنّني أؤيّد فكرة تأسيس سلالة جديدة تطيح بحقوق أحفاد صلاح الدين العظيم.

راح كافور يراقب الوجوه حوله. بدا نور الدّين وكأنّما شلّه الخوف تمامًا، فيما كانت أمّ عليّ أشبه بقطّة برّية تريد القفز على رأس قُطُز، لكنّها آثرت ضبط النفس، وتركت الكلام للفايزي. بدا واضحًا أنّ هذا الأخير يرفض السماح لقُطُز بأن يقبض على مصير السلطنة. أمّا الأعيان الآخرون فبدوا منقسمين. كان بينهم بعض الصالحيّين المعتدلين الذين يرفضون فكرة وصول ابن المعزّ أيبك إلى العرش، غير أنّ معظم كبار الموظّفين والذين، مثل الفايزي، قد عُيّنوا في مناصبهم بأمر من أيبك، وخرجوا من صفوف الأمراء المماليك، أنصار المعزّ، كانوا يستنكرون اغتيال سيّدهم، ويظنّون ابنه قادرًا على ضمان استمراريّة نفوذهم. ففضّلوا مخالفة قوانين الأيوبيّين، على المجازفة بوقوع شغور طويل الأمد في السلطة، مع ما يستتبعه ذلك من متاعب جسيمة. وكان الفايزي في طليعة أصحاب هذا الرأي.

أمّا قُطُز فقد بدا عليه التردّد. وقد فهم كافور تردّده هذا. كان واضحًا أنّ نائب السلطان يطمع بالعرش. منذ أن أكّدت له شجرة الدرّ خبر موت أيبك، بات أمامه خياران: فإمّا أن يقبل بجلوس نور الدين عليّ على العرش وضمان الوصاية، ثمّ ينتظر تعزيز موقعه لخلع الفتى وإعلان نفسه سلطانًا، وإمّا أن يحذو حذو أيبك فيتزوّج بأرملة السلطان الميت ويصبح سلطانًا على الفور. كان كافور يرجو أن يختار قُطُز الحلّ الثاني، ولكنّه لم يبالغ بالأمل. فقُطُز كان معروفًا بحذره، ولشجرة الدرّ معارضون وأعداء كثر، كما لن يجرؤ على أن يدافع حتّى النهاية عن جريمة قتل السلطان. والأرجح أنّ معارضته للفايزي وأمّ عليّ كانت استراتيجيّة، بهدف تثبيت سلطته وإجبارهما على ترك الوصاية في عهدته.

كان الفايزي يعرف نوايا قُطُز، فقال بدهاء معارضًا حجج هذا الأخير:

– شجرة الدرّ هي التي أنهت سلالة الأيوبيّين وذلك بتشجيعها المماليك على اغتيال طوران شاه، آخر ورثتهم الشرعيّين. جلست على العرش مخالفةً الشرائع الإسلاميّة وسنّة رسول الله. الأمر الوحيد الجيّد الذي قامت به بعد موت الصالح، كان زواجها بأيبك، وهو رجل عظيم وسلطان عظيم، نال في

النهاية اعتراف خليفة بغداد به، أعلى سلطة دينيّة في الإسلام. برأيي، هذا الاعتراف يمنح ذريّته الشرعيّة، خصوصًا إذا كان ذلك ليسمح باستمراريّة السلطة في مصر وتجنّب نشوب حرب دينيّة في أرض الإسلام. ثمّ تابع بحدّة: كان المعزّ سلطانًا عظيمًا ثبّت دعائم الإمبراطوريّة المصريّة وخلّصها من أعدائها ونجح في تحقيق السلام. كما قدّم للإسلام خدمة جُلّى بإبعاد شجرة الدرّ، وهذا ما كان سبب مقتله، لأنّ تلك المرأة مهووسة بالسلطة لدرجة أنّ جنونًا قاتلًا تملكّها. حاولنا تحذير السلطان، فأصغى إلينا واختار الإقامة بعيدًا عنها. لا أصدّق أنّ تلك الساحرة تمكّنت برغم كلّ شيء من اجتذابه إليها. تلك المرأة إهانة للإسلام. مكان النساء في الحريم لا على رأس الإمبراطوريّة. أحمد الله على أنّه حال دون أن تلد تلك الكافرة ابنًا للسلطان المعزّ أيبك. وإلّا لكانت الآن لتعلن نفسها السلطانة الأمّ.

إستبدّ الخوف بكافور وهو يصغي إلى هجوم الفايزي العنيف والمفعم بالكراهية، والذي كان يطالب برأس شجرة الدرّ على حربة. نظر الفايزي في عيون الحضور وكرّر:

– نور الدين عليّ هو الوريث الشرعيّ الوحيد. علينا الاعتراف بذلك وإعطاء التعليمات برفع الأدعية له في المساجد اعتبارًا من فجر الغد. إذا لم نتّخذ هذا القرار الآن، غرقت البلاد في حرب أهليّة لا نهاية لها. إسمعوا الضجيج الآتي من المدينة. لقد بدأت أعمال الشغب. الناس والتجّار والعسكريّون بحاجة إلى أن يطمئنّوا إلى استمراريّة السلطة. لن يلبث مماليك المعزّ أن يصلوا من ثكناتهم لاحتلال القلعة. والجلبة التي أسمعها تحملني حتّى على التفكير في أنّهم قد وصلوا. لن يقبلوا أبدًا بأن ينجو قتلة المعزّ من العقاب الذي يستحقّونه، وإلّا أعملوا في القلعة حرقًا وتدميرًا.

بدأ كافور يسمع في القلعة أصواتًا جديدة، أقوى وأكثر تهديدًا، وملأت قرقعة السلاح الجوّ. شعر بأنّ الوقت حان لكي يذهب بحثًا عن جنوده. فقد راح مماليك المعزّ يتوافدون إلى قاعة العرش، بوجوه منقبضة ونظرات مهدّدة، ورجالهم يحتلّون القلعة. لم يشأ كافور انتظار قرار المجلس النهائيّ، فما سمعه كان كافيًا ليعرف ما سيحدث. تبادل نظرة مع أحد الحرّاس عند الباب، وهو ممّن اعتادوا تزويده بالمعلومات لقاء بعض الدنانير الذهبيّة. أومأ الحارس لكافور بإشارة خفيفة من الرأس، فهم الأخير منها بأنّه سيلتقيه لاحقًا ليطلعه على ما جرى.

توارى كافور وسط البلبلة التي سادت، وهرع ورجاله نحو الحريم. في طريقه لمح جنديين من مماليك المعزّ يسوقان ابن مرزوق إلى قاعة العرش. شعر بالذنب لأنّه تركه وجمال الدين محسن لمصيرهما المحزن. لكنّه لم يكن يملك الخيار، فأولويّته ضمان بقاء شجرة الدرّ على قيد الحياة.

كلّما دنا من الحريم راح قلقه يزداد. لقد اندلعت معركة حقيقيّة في محيط الحريم وسُمع صليل الأسلحة في القصر كلّه. كان جنود المعزّ في كلّ مكان، وقد خاض رجال كافور المعركة بقيادة عبّاس، وامتلأت الأروقة بجثث المحاربين. كانت أبواب جهنّم قد انفتحت داخل قلعة صلاح الدين، وأخذ ميزان القوى يميل إلى مصلحة رجال المعزّ. إستبسل رجال كافور بيأس، لكنّهم كانوا أقلّ عددًا من مماليك المعزّ المتعطّشين إلى الثأر والدم. بدون معجزة إلهيّة، لم تكن نجاتهم ممكنة.

إجتاز مماليك المعزّ مدخل الحريم. لم يعد شيء ليردع تقدّمهم نحو الجناح الملكيّ. كانوا يصيحون مطالبين بجثّة السلطان ورأس السلطانة. أمر كافور رجاله بالانكفاء إلى الرواق الذي يفضي إلى جناح شجرة الدرّ. كما ارتمى هذا المحارب الشرس في المعركة بكلّ قوّة حبّه للسلطانة. بدلًا من أن يثبط الوضع الميئوس منه عزيمته، فقد ضاعف قوّته وشحذ حواسّه. أمر رجاله بأن يُلحقوا أكبر قدر من الإصابات بين مهاجميهم ويموتوا بشرف، إن لم يستطيعوا حملهم على التراجع. راح سيفه يخترق أجساد مماليك المعزّ بدون تمييز، ويعطب كلّ مَن شاء سوء حظّه أن يعترض طريق كافور نحو جناح شجرة الدرّ.

شهد الحريم مذبحة حقيقيّة. إندفع الجنود المتمرّسين في فنون الحرب، وقد أعمتهم رغبة الثأر وأسكرتهم رائحة الدم ومتعة القتال الوحشيّة، فاختلطت صيحاتهم بولولة النساء التي مزّقت الآذان. لم يستطع كافور الذي كان مارًّا أمام غرفة بابها مفتوح على الرواق، أن يتجاهل أصوات الأنين الصادرة منها. دخلها ليغمد بسرعة وبدون تفكير، خنجره في عنق مملوك كان يغتصب أمَة، أمام عيون النساء الأخريات المذعورات اللواتي تسمّرن إلى الجدار، فيما وقف مملوك آخر يهدّدهنّ بسيفه وهو يضحك هازئًا، قائلًا إنّ دورهنّ قريب. شقّ كافور وجه المملوك الثاني بخنجره، فسقط أرضًا كحجر أصمّ وعلى شفتيه المشقوقتين ابتسامة متجمّدة.

سيف ضخم بيده اليمنى، وخنجر مقوَّس مخيف باليسرى، وبشرته السوداء تلتمع بآثار الدم المتناثرة، كان كافور مثيرًا للرعب. مرّ بدون أن يتوقّف أمام غرفة كان المماليك يحطّمون أثاثها، بحثًا عن ممتلكات ثمينة. خطا فوق جثّتي مملوكين من أنصار المعزّ كانا قد غامرا بالابتعاد عن رفاقهما والتوغّل إلى أعماق الحريم، ليصل أخيرًا إلى باب جناح شجرة الدرّ.

هناك، رأى أنّ الوضع لا يزال تحت السيطرة، فرجاله قد نجحوا في إبطاء تقدّم مماليك المعزّ، بفضل تفوّق عددهم في ذلك الموقع، وضيق الأروقة والمخارج، والتي كانوا يعرفونها أفضل ممّا يعرفها المهاجمون. لكنّ المعركة كانت تقترب من الجناح وبسرعة تنذر بالخطر.

لاقاه عبّاس إلى تلك النقطة، بعدما انكفأ ورجاله إليها، تاركًا بقيّة أنحاء الحريم لمماليك المعزّ. وقد اعتُبر الحرّاس الخصيان الذين لم ينجحوا في الانضمام إليهما، في عداد المفقودين. تبيّن كافور عندئذٍ غياب نحو أربعين من رجاله. أخبره عبّاس بأنّ عددًا منهم قد ضحّوا بأنفسهم، لإخماد حريق أشعله رجال المعزّ، بهدف إرغام سكّان الحريم على الخروج. كان الوضع في غاية السوء.

بدأت الأفكار السوداء تقرع ذهن كافور. فالموت كان يحوم فوق رأسه وامتلأ أنفه برائحته. كما أنّ ما شاهده من ارتكابات وحشيّة في الحريم، جمّد الدم في عروقه إذ فكّر في أنّ السلطانة قد لا تنجو منها. راح يتساءل إذا ما كان عليه أن يضع برفق وسادة فوق وجهها، ويخنقها في أثناء نومها. بذلك يقدّم إليها موتًا لائقًا ومختلفًا عمّا قد تلاقيه على أيدي تلك العصابات المتوحّشة التي دخلت حريمها.

في تلك اللحظة الحاسمة، شعر كافور بتغيّر في مسار المعركة، فقد تراجعت الجلبة وبات شيء من السلطة والانضباط يخيّم أكثر فأكثر على المكان. سرعان ما أدرك كافور أنّ قُطُز لم يعد بعيدًا.

في الواقع، توقّفت المعارك دفعة واحدة، وسُمع صوت قُطُز القويّ والآمر يرعد قائلًا:

– أوقفوا هذا الجنون في الحال ودعوا القرار لكبار قادة المملكة! إحراق قلعة صلاح الدين لن يعيد إلينا سلطاننا المعزّ المأسوف عليه.

– الثأر! الثأر! نريد أن نعاقب بأيدينا هؤلاء القتلة، صاح جنود المعزّ.

ولكنّهم برغم ذلك خفضوا أسلحتهم، فقد كانوا ملزمين بإطاعة نائب الملك.

– قرارات المجلس هي التي ستحقّق العدالة. والذين ستثبت عليهم تهمة قتل السلطان، سيلقون العقاب اللازم ويموتون شرّ ميتة.

تقدّم كافور إلى حيث كان رجاله قبل وقت قليل، يقاتلون جنود المعزّ. رأى قُطُز يرافقه نور الدين عليّ، وأمّه، والفايزي، وابن مرزوق، وعدد كبير من الأعيان الذين كانوا في قاعة العرش. كان نائب السلطان يجري محادثات مع أمراء مماليك المعزّ. تقدّم أحدهم، وهو من أفراد حرس أيبك الخاصّ، أي الحلقة، وتكلّم باسم رفاقه قائلًا:

– نريد أن نرى سلطاننا. نطالب بجثّة سيّدنا!

– لن نسمح بأعمال القتل والنهب والاغتصاب في الحريم. أضبطوا جنودكم وحافظوا على النظام داخل القلعة، فبعد ذلك سنكون بحاجة إليكم للسيطرة على المدينة. لقد أصدرنا قرارًا بوقف القتال، وستكونون مسؤولين عن تنفيذه.

– سنطيع الأوامر بعدما نحصل على مرادنا. فلنثأر للمعزّ وليدفع القتلة ثمن الدم الذي أراقوه.

آنذاك أبلغهم قُطُز بالخبر الكفيل بطمأنتهم وتهدئتهم:

– إتّخذ المجلس قراره، واعترف بنور الدين عليّ ابن السلطان المعزّ وريثًا للعرش. سيتمّ تنصيبه فجر الغد. كما عهد إليّ المجلس بالوصاية على العرش حتّى بلوغ السلطان الجديد السنّ القانونيّة. سنرسل المنادين لإعلان الخبر في كلّ أنحاء المدينة. وستُرفع صلاة الفجر في كلّ مساجد المدينة غدًا باسم السلطان الجديد.

– عاش نور الدين! عاش سلطاننا!

كذلك سُمعت بعض الهتافات الصريحة:

– عاش قُطُز! عاش وصيّنا!

تأكّد قُطُز من أنّ كلمته ستكون مسموعة ومطاعة لدى هؤلاء الذين فقدوا قائدهم المعزّ، والذين يبحثون عن سلطة جديدة.

غمرت السعادة أمّ عليّ، ولم تفارق البسمة وجهها. كما جمّدت نظرتها الدم في عروق كافور الذي وقف يراقبها. كان واضحًا أنّها تفكّر في شجرة الدرّ التي باتت تحت رحمتها تمامًا بعد الاعتراف بها ملكة أمًّا.

ثمّ تجرّأ أحد مماليك المعزّ على السؤال:

– وشجرة الدرّ؟ لقد قاومَنا حرّاسها، وقتلوا رفاقنا ومنعونا من استعادة جثّة السلطان لغسلها وتكفينها استعدادًا لدفنها. وهم يرفضون تسليمنا السلطانة المجرمة.

إرتفعت أصوات مماليك آخرين من أنصار المعزّ تأييدًا لأقوال رفيقهم. فأجاب قُطُز:

– مصير أرملة السلطان يقرّره المجلس. سنستجوبها هي ومَن تعاونوا معها.

– يجب أن تتعفّن في السجن، بدلًا من البقاء في الجناح الملكيّ.

– أصابتها وعكة صحيّة. في انتظار استيقاظها، سنتعامل مع رئيس الخصيان لاستعادة جثّة المعزّ، قال قُطُز وهو ينظر إلى كافور.

أجاب كافور في الحال:

– سنعيد إليكم جثّة المعزّ، حالما ينسحب جنودكم.

– لن نرحل بدون الجثّة. الإسلام يفترض دفن المسلم في أسرع وقت ممكن بعد موته.

رأى كافور ابن مرزوق يتمتم شيئًا في أذن قُطُز الذي أشار إلى الفايزي للانضمام إليهما. قبل ذلك، كان ابن مرزوق يخوض نقاشًا حاميًا مع بعض المماليك الصالحيّين الحاضرين هناك. حدّق قُطُز في عينَي كافور الذي فهم أنّه من مصلحته قبول الحلّ الذي اقتُرح عليه للتوصّل إلى وقف للقتال. رفع قُطُز

ذراعيه بحركة تهدف إلى تهدئة النفوس، وأمر قائلًا:

– مماليك المعزّ سينسحبون من الحريم. سيحرس كافور ورجاله الجناح الملكيّ حتّى تنصيب السلطان الجديد. سنشكّل في الحال مجموعة من الأمراء الصالحيّين، ترافق خصيان الحريم لاستعادة جثمان المعزّ أيبك.

– نقبل بهذه الشروط، أجاب كافور في الحال.

– وشجرة الدرّ؟ هل ستبقى في الجناح الملكيّ؟ سأل مماليك المعزّ. بات لدينا البرهان على أنّ لها دورًا في اغتيال سُلطاننا!

– لم ننتهِ من السلطانة السابقة، وسوف تحاسَب على جريمتها. لكنّنا سنتركها تتعافى من وعكتها في جناحها، حتّى تنصيب نور الدين عليّ سلطانًا. بعد ذلك، وبغضّ النظر عن حالتها الصحيّة، سنعتقلها في البرج الأحمر، بانتظار الحكم عليها من قبل السلطان الجديد ومجلسه.

تمّ تنفيذ أوامر قُطُز حرفيًّا، وعاد شيء من الهدوء إلى القلعة. أوت إماء الحريم إلى غرفهنّ، وجلّ ما يرجينه أن تعفو السلطانة الجديدة عنهنّ. تولّى كافور ورجاله حراسة الجناح الملكيّ، ووقف مماليك صالحيّون بينهم وبين ومماليك المعزّ، الذين سيطروا على القلعة بكاملها، خارج أبواب الحريم، وانهمكوا باسترجاع جثث الجنود المنتشرة في كلّ أرجاء القصر تقريبًا. كانوا ينوون دفن رجالهم وعرض جثث خصيان شجرة الدرّ على امتداد طريق القلعة حتّى باب المدينة الرئيسيّ. كانت تلك أوامر قُطُز والفايزي، فقد اعتبرا أنّ ذلك يهدّئ من هيجان مثيري الشغب في شتّى أنحاء القاهرة.

حضر ابن مرزوق مع الأمراء الصالحيّين وثلاثة من أمراء المعزّ لاسترجاع جثّة أيبك. رافقهم الحارس العامل ضمن شبكة مخبري كافور. لدى مروره بقرب هذا الأخير، دسّ سرًّا ورقة في يده.

راقب كافور الرجال يحملون جثّة أيبك. جرت الأمور بصمت وبكثير من الوقار. قبل توجّهها إلى قاعة العرش، كانت شجرة الدرّ قد أمرت إماءها بغسل جثّة أيبك وإلباسه ملابسه. رافق كافور موكب الجثمان حتّى باب الحريم، ثمّ سارع إلى قراءة رسالة مخبره الذي رمقه بنظرة لم يستبشر منها خيرًا.

كانت كلمات الرسالة قليلة، غير أنّها كانت مثقلة بالمعاني: «جمال الدين في السجن. قُبض على اثنتين من إماء الحمّام وهما الآن تخضعان للتعذيب بسبب ضلوعهما في اغتيال السلطان. والبحث عن سنجر جارٍ».

المكتوب ما منه مهروب

إستيقظت شجرة الدرّ جفلة من نومها المشوب بالقلق والاضطراب. كانت تشعر بجفاف في الفم وبأوجاع في الرأس. وراحت تتقلّب في سريرها في محاولة لتهدئة الخناجر التي كانت تمزّق معدتها. هل كان ذلك خوفًا، أم فقط الشعور بالجوع الذي يعيدها إلى الحياة؟

جلست في سريرها فجأةً: كان الخوف يزيد من خفقان قلبها. لكنّها ما لبثت أن أدركت أنّها في سريرها، داخل جناحها، فأفلتت من شفتيها تنهيدة ارتياح. تبيّنت عبر النافذة أنّ الوقت لا يزال ليلًا. المكان المألوف، ملاذها الفيروزيّ الألوان، ساعدها على استعادة هدوئها ورباطة جأشها. كان مصباحها المفضّل المصنوع من البرونز المشغول، يشتعل كالعادة بجانب سريرها. على مقربة منها، جرّة من الماء العذب وضعها شخص حسن النيّة في متناول يدها. أخذتها وحملتها إلى فمها، وعبّت منها بنهم، راجيةً أن يطفئ الماء الصافي النار المضطرمة في أحشائها. تسلّلت عبر إحدى النوافذ المفتوحة، نسمة خفيفة، رقيقة ومنعشة لتبلسم بشرتها المشتعلة.

بدأت حالتها تتحسّن، فالتفاصيل الصغيرة والمألوفة والمحبّبة التي تحيط بها هدّأت بالها وطمأنتها. فجأةً، شعرت بحركة، ليظهر بعدها وجه كافور المُطَمئن يدخل في دائرة الضوء، بالقرب من سريرها. برغم الظلام، لاحظت شجرة الدرّ قسماته المشدودة. رمقتها عيناه السوداوان الواسعتان بكثير من الحنان والقلق، وكان التوجّس والتعب واضحين تمامًا على وجهه. لا شكّ بأنّه سهر عليها مثل كلب ضارٍ، ولا شكّ بأنّ معارك وقعت، فقد خُيّل لها أنّها لمحت على ملابسه دماء، برغم أنّه بذل جهده ليزيلَ عنه أثر المواجهات، فغسل دماء أعدائه عن وجهه ويديه وذراعيه، لكنّه لم يغيّر ملابسه لأنّه لم يشأ الابتعاد عن السلطانة.

بدون مقدّمات، طرحت عليه السؤال الذي كان يُلهب شفتيها:

– هل توصّلوا إلى قرار؟

– نعم يا مولاتي، أجابها مطأطأ الرأس.

فهمت شجرة الدرّ أنّ القرار لم يكن في مصلحتها.

– هل اختاروا إجلاس نور الدين عليّ على العرش؟ فتصبح أمّ عليّ الملكة الأمّ وتقرّر بالتالي مصيري؟ هذا عمل الشيطان. لا شكّ بأنّه الآن يجلس في إحدى زوايا جهنّم مستهزئًا وضاحكًا من سخرية قدري.

بدأ الاضطراب يسيطر عليها، وتسارعت أنفاسها. رهيبة كانت فكرة أن تصبح أمّ عليّ سلطانة مكانها. راحت عيناها المذعورتان تتفحّصان الغرفة. رغم ذلك، سمعت صوتًا في داخلها، يهمس بأنّ الساعة حاسمة وعليها أن تستعيد رباطة الجأش لتستطيع مواجهة أعدائها. ارتشفت عدّة جرعات من الهواء، وراحت تزفرها ببطء وهدوء، مخفّفة من نوبة الهلع التي كانت تهدّد باجتياح كيانها. بعدما استعادت هدوءها، اتّخذت وضعيّة مريحة أكثر في سريرها، وطلبت من كافور أن يشعل مصابيح الغرفة، ثمّ يروي لها كلّ ما حدث، منذ أن غابت عن الوعي بين ذراعيه، بعدما غادرت قاعة العرش.

أخذ كافور وقتًا طويلًا في إشعال المصابيح، لاستمداد الشجاعة ليخبرها ببقيّة الأخبار السيئة في ذلك النهار الذي يكاد لا ينتهي. بدلًا من الانتظار بصبر، بادرت السلطانة إلى شنّ هجوم لاذع وطويل على أعدائها، تعبيرًا عن شعورها بالقهر والاستياء. لم تكن بحاجة إلى معرفة التفاصيل لتقيس نتائج

هزيمتها. كان عليها فقط أن تعرف كم بقي لها من الحريّة. فقالت له على عجل:

– فهمتُ. أنت لا تجد الشجاعة الكافية لتقول لي إنّني هالكة، وإنّ أعدائي انتصروا، وإنّ كبار المملكة اختاروا الاختباء خلف غلام في الخامسة عشرة من عمره وأمّه القبيحة. لقد قرّروا إجلاس ابن أيبك على العرش، أليس كذلك؟ بدون أن تنتظر جوابًا تابعت هجومها: سيبقى نور الدين عليّ سلطانًا إلى أن يتمكّن أحد أمراء المماليك من لجم طموحات رفاقه. أنا واثقة من ذلك. عهد نور الدين عليّ سلطان مصر سينتهي قبل أن يبدأ حتّى، ولن يحفظ التاريخ منه شيئًا. ومع ذلك عليّ الاعتراف بأمر: بما أنّ خبر موت السلطان قد ذاع، وحرّضت تلك الأفعى، أمّ عليّ، الشعب ضدّي، فهذا هو الحلّ الأفضل لحقن الدماء.

ثمّ رفعت رأسها في حركة تحدٍّ وتابعت:

– لا شيء من كلّ هذا يفاجئني. لم أكن أتوقّع شيئًا آخر من قبلهم. صحيح أنّ أيبك نجح في اغتيال أفضل العناصر وأشدّ المماليك جرأة، أو حملهم على الفرار. وأعني بهم أولئك الذين كان يجدر بي اختيارهم مكانه للجلوس بجانبي على العرش، لو لم أدع مشاعري تجاهه تتحكّم بي. لقد أدركتُ الآن وبعد فوات الأوان أنّ مشاعري تجاه أيبك كانت، منذ البداية وحتّى النهاية، نقطة ضعفي المميتة. فقد أفسدت قدرتي على التقدير، وشوّشت رؤيتي، ومنعتني من التصرّف بما هو في مصلحتي ومصلحة المملكة. كان للصالح أيّوب نقطة الضعف عينها تجاهي، لكنّني امرأة وفيّة. حتّى ولو لم أبادله القدر عينه من الشغف، فقد احترمته وشعرت نحوه بالصداقة والحنان. ساعدتُه على اتّخاذ القرارات الصائبة، وما كنت لأخونه أبدًا. وبعد موته، لم أطمع بالسلطة كما يُقال عنّي. بل على العكس، قمتُ بما هو ضروريّ لصون السلطنة، والحفاظ عليها من أجل ابنه البكر طوران شاه، مع علمي بأنّ هذا الأخير لم يكن أهلًا لحكم مصر. لقد وقع صديقاي الأقربان، أقتاي وبيبرس، ضحيّة شغفي بأيبك، الذي زاد جرأة وصلابة لمعرفته بأنّني أقف إلى جانبه. بلغت منه الجسارة أن أمسك بالسلطة، وساورته حتّى فكرة تأسيس سلالة خاصّة به. يا له من حديث نعمة! مَن كان يحسب نفسه؟ صلاح الدين العظيم؟

كانت شجرة الدرّ تصرخ الغضب المتّقد بداخلها، وبدت كأنّها تخاطب نفسها وكافور في الوقت عينه.

– أقتاي مات جرّاء خيانة أيبك، واضطرّ بيبرس إلى الفرار للبقاء حيًّا. ذانك الرجلان كانا الوحيدين القادرين على معارضة سلطته المتعاظمة، والوقوف في طريق طموحاته واستراتيجيّته لتهميش أنصاري وتهميشي. كان بيبرس ليجد لذّة في قطع رأس الفايزي اللعين. لكنّ الحقيقة المحزنة هي أنّ أيبك هو مَن دفع في النهاية ثمن ضعفي حياله. وها دوري قد حان. أنت تعرف يا كافور أنّ ممارسة السلطة لا تسمح بأيّ ضعف، وخصوصًا حين نفضّل جاحدًا وخائنًا ونميّزه عن سواه. قلّما يهمّني الثمن الذي سأدفعه، مهما بلغ. حتّى ولو قطعوا رأسي في الساحة العامّة، أؤكّد لك يا كافور أنّني غير نادمة على موت أيبك. ليكن ذلك آخر عمل أقوم به كسلطانة، هكذا قرّرت أن أنهي تاريخي، بالتخلّص من ضعفي ولو كان الثمن قرار موتي.

– ليس إن قلتُ كلمتي في الأمر، وإن أصغيتِ إليّ وتركتِني أتصرّف. يمكنني مساعدتك على الفرار من القلعة.

– كافور، إنسَ هذه الفكرة... ألديك أخبار عن الرسالة التي بعثتُ بها إلى بيبرس؟

– لا يا مولاتي. لا أظنّ أنّ الرسول قد وصل إلى بيبرس في الكرك بعد، ولو كان حصانه ليسابق الريح.

خُيّل لشجرة الدرّ أنّ أيَّاما عديدة قد انقضت، بينما أنّها في الواقع، لم تعهد بالرسالة إلى نايا إلّا صبيحة ذلك اليوم بالذات. لا شكّ بأنّ هذه الأخيرة مضت بسرعة إلى ثكنة المماليك الصالحيّين، ولعلّها بقيت فيها، حتّى تتأكّد من مضيّ أحد الفرسان المخلصين على حصان قويّ وجامح للبحث عن بيبرس، الأسطورة الحيّة، الذي انتصر على لويس التاسع ملك فرنسا وعلى فرسانه الصليبيّين.

كانت شجرة الدرّ تعتقد اعتقادًا راسخًا بأنّ مصيرًا عظيمًا ينتظر بيبرس، وبأنّه سيحكم الأمبراطوريّة في يوم غير بعيد. كما كانت تأمل في أن تستطيع رسالتها، ولو وصلت متأخّرة، تحريك طموحات بيبرس في حكم مصر، والمساهمة في إسقاط قُطُز. والواقع أنّها كانت مقتنعة بأنّ ابن أيبك لن يبقى طويلًا على العرش، بل سيُزاح، أو حتّى يُقتل، بوجود قُطُز وصيًّا على ذلك العرش. وسيعلن قُطُز نفسه سلطانًا على مصر، لكنّ مُلك هذا الجبان الذي ينوي تسليمها إلى أمّ عليّ بدون خجل ولا وجل، لن يدوم أبدًا.

فقط لو أنّ مزيدًا من الوقت تسنّى لها بعد اختفاء السلطان! لكنّ تلك الساحرة أمّ عليّ شعرت في أعماق نفسها بموت محبوبها. وإلّا فكيف يمكن تفسير مجيء قُطُز ونور الدين إلى القلعة في الصباح الباكر، يطلبان رؤية أيبك؟ مسحت شجرة الدرّ دمعة. ومع ذلك فقد رأت أنّها لم تعد تملك لا فرصة ولا متعة ذرف الدموع، لكنّ دمعتها تلك وقّعت قساوة قدرها. هبني اللّهم الشجاعة لأواجه هذا القدر بقوّة وكرامة.

– أخبرني يا كافور، قالت شجرة الدرّ، بالتفاصيل كاملة وبدون أن تنسى شيئًا، كلّ ما جرى منذ أن فقدت الوعي. يجب أن أعرف كلّ شيء.

إلتقت عيناها بعينَي كافور، فكان من حنان خادمها المخلص وقلقه أن غمرا قلبها بالدفء. لاحظت أنّه كان مضطربًا، فهو لم يعتَد رؤيتها في مثل تلك الحال من الانفعال والضعف، هلعة ومتوجِّسة ممّا أدركت من عمق الكراهية التي تضمرها لها أمّ عليّ. كان على السلطانة أن تعترف بأنّها تخاف تلك المرأة أكثر منها كلّ رجال المجلس مجتمعين.

بعد سنوات عديدة من ممارسة السلطة، بجانب أكثر الرجال نفوذًا في تلك الحقبة، لم تعد الأحكام السياسيّة تخيفها، بل كانت تفهمها. في أيّ حال، لو وقفت أمام الخيارات عينها التي اتّخذها المجلس، لتبنّت القرارات عينها. لكنّ غيرة النساء والضغينة التي قد تولد في ما بينهنّ، كانتا تقلقانها وتثيران اضطرابها. تلك الخصومات كانت لتجفلها دائمًا، منذ الهجوم الوحشيّ الذي تعرّضت له وهي بعد فتاة يافعة وبريئة وملأى بالحياة، عند دخولها حريم الخليفة العبّاسيّ في بغداد. تلك الحادثة طبعتها طوال حياتها، وقد عاهدت نفسها على ألّا تتعرّض مجدَّدا إلى مثل تلك الفظاعة أو ذلك الرعب. في خضمّ الحروب، وخلال أشدّ المعارك ضراوة، لم تشعر قطّ بالخوف الذي شعرت به وهي بين أيدي إماء ورد الورود، ولا حتّى في طفولتها حين واجهت خاطفها التتريّ الذي قتل أفراد عائلتها كلّهم.

لذلك، أن تقبع مجدَّدا تحت تهديد هجوم مماثل تشنّه امرأة كأمّ عليّ، كان يفقدها توازنها. واليوم لم تعد تجد غضاضة في الاعتراف بذلك، فالأمر بديهيّ: كانت تخاف من أمّ عليّ. شعرت بالدموع تملأ عينيها وتغمر وجهها وكيانها كلّه، فقد كانت واثقة بأنّ رسالتها لن تبلغ بيبرس في الوقت المناسب. حتّى ولو وصلت النجدة، فلن تكون هي على قيد الحياة. كلّ الأبواب أُغلقَت في وجهها.

أخفت شجرة الدرّ دموعها الغزيرة في عمق وسادة حريريّة. تمدّدت على سريرها، وهي تتمتم كلمات هادئة في البداية، ما لبثت أن استحالت صرخات غضب ويأس.

– لا أريد أن أموت! يا الله الرحيم، لا أريد أن أموت، ليس في ظروف كهذه، ليس على يد ألدّ عدوّاتي، تلك الحقيرة التافهة! أنا أحبّ الحياة، لا أزال شابّة، وقادرة على إنجاز أمور كثيرة...

حين رفعت شجرة الدرّ رأسها عن وسادتها، اجتاحتها ضحكة هستيريّة أمام التعبير الذي علا وجه كافور: لم ترَ قطّ عينين تجحظان على هذا النحو؛ كانتا ضخمتين، ويتعاكس بياضهما وسحنته السوداء. تأمّلتهما وكأنّها تنظر إلى مرآة الحقيقة، وفهمت بأنّ عليها استدراك نفسها بسرعة.

نهضت شجرة الدرّ وبحثت عن مرآة حقيقيّة وقطعة قماش نظيفة على طاولة سريرها. ثمّ غمست القماش بالماء ومسحت بهدوء آثار الكحل عن وجهها. بعدما تأكّدت من أنّ صوتها لن يرتجف، سألت:

– هل قرّروا ما سيفعلونه بي؟... مهما حدث، لن أنجو من براثن تلك اللعينة. ليست سوى مسألة وقت، رأيت ذلك في عينيها. إنّها تُعِدّ لي موتًا رهيبًا. كراهية النساء أشدّ أنواع الكراهية وأخطرها يا كافور.

ثمّ قصّت عليه باختصار رواية الحادثة التي طبعت صباها في حريم الخليفة. بات كافور الآن صديقها الوحيد، والمدافع الوحيد عنها. رأت أنّ من واجبها أن تشرح له أسباب نوبة القلق التي تعصف بها.

– ما ترويه عليّ يا مولاتي أمر رهيب. أفهم الآن أكثر ما تخشينه من انتصار أمّ عليّ.

– لا تقلق، نوبتي العصبيّة انتهت.

نظرت مرّة أخيرة في مرآتها وتأكّدت من أنّ وجهها عاد نظيفًا، ثمّ جلست على حافّة السرير ودعت كافور إلى الجلوس بجانبها في بادرة حميميّة غير مألوفة. لكنّ خادمها آثر الجلوس أرضًا بقرب قدميها، احترامًا لمكانتها.

نظرت إليه شجرة الدرّ بابتسامة صغيرة مطمئنة وشجّعته على التحدّث بحريّة:

– أخبرني. أشعر بأنّني أقوى الآن وأستطيع سماع كلّ شيء بدون أن أفقد السيطرة على أعصابي.

كان كافور في حال ارتباك شديد. كيف يروي للسلطانة، بدون المسّ بكرامتها، أخبار الأحداث التي حسمت أمر هلاكها، فيما كانت غائبة عن الوعي؟ لقد تلقّت في ذلك اليوم سلسلة من ضربات القدر، أتت على كلّ ما تملك من قدرة على المقاومة. كيف يخبرها كذلك بما تضمّنته رسالة مخبره، والتي هزّت كيانه هزًّا؟

احترامًا لها قرّر اختيار الصراحة بدون القسوة، وروى لها تسلسل الأحداث. ثمّ أخفض نظره واعترف لها بالكارثة الحقيقيّة: لم يتسنّ له الوقت ليخرج من القصر المدلّكتين اللتين شهدتا على اغتيال أيبك، سامية وفاطمة. والمسكينة سامية ماتت تحت التعذيب، أمام عينَي فاطمة التي باحت بكلّ شيء قبل أن تموت هي الأخرى، خنقًا.

حمل هذا الخبر الجديد إلى شجرة الدرّ موجة جديدة من القلق. حاولت أن تسيطر على نفسها واتّجهت إلى النافذة الشهيرة المطلّة على الباحة الرئيسيّة، تلك التي من خلالها قد أعلمها المملوك الصالحيّ الذي اضطهده أيبك بخبر خيانة السلطان لها مع الأميرة الأيوبيّة...

راحت تذرع الأرض جيئة وذهابًا، يشوّش ذهنها كثير من الذكريات. في النهاية، قرّرت أن تطرح السؤال الذي يعتمل في نفسها:

– إذًا هم يعرفون دور جمال الدين؟

– باتوا يعرفون التفاصيل كلّها. ففاطمة روت كلّ شيء وسمّت الأشخاص الذين كانوا حاضرين. جمال الدين في السجن الآن، ولن يلبث أن يُعدَم. يعرفون بأنّه هو مَن أجهز على المعزّ. تمكّن عبده

سنجر من الفرار مؤقّتا، فأرسلوا رجالًا في أثره.

كان لخبر اعتقال رفيق درب مثل جمال الدين محسن، وقع الصاعقة على شجرة الدرّ. تركها مذهولة ومقطوعة الأنفاس. ومع ذلك واصل كافور روايته:

– بعد اعتراف فاطمة، ارتفعت أصوات بين مماليك المعزّ تطالب بالثأر للدم. ولا أدري إلى متى يستطيع قُطُز والصالحيّون احتواءهم.

لوهلة، خالت شجرة الدرّ أنّ الخوف سيخنقها. عالمها قد انهار. ولكنّ شعورًا غريبًا بالارتياح بدأ يطغى عليها، فعذابها يشارف على النهاية، ويمكنها أخيرًا أن تعرف الراحة الأبديّة. ومع ذلك، أقسمت على أن تلعب دورًا أخيرًا حاسمًا في بقيّة الأحداث.

شرح لها كافور أنّ تأجيل سوقها إلى البرج الأحمر، أو ما هو أسوأ بكثير، أي تسليمها إلى السلطانة الجديدة، إنّما يعود الفضل فيه للمماليك الصالحيّين الذين توسّطوا لها، بدعم خجول من قُطُز، الوصيّ على العرش. لقد تذكّروا ما فعلته شجرة الدرّ للحفاظ على الإمبراطوريّة. وأولئك الصالحيّون أنفسهم هم من وقفوا بين مماليك المعزّ ورجال كافور، فحالوا دون تعرّض هؤلاء الأخيرين إلى مجزرة. لكنّ الأوهام لم تساور شجرة الدرّ. ففي أفضل الحالات، سوف تُسجن صباح الغد في البرج الأحمر. من جهة أخرى، كان الصالحيّون يعتقدون – وهم محقّون – أنّ في ذلك فرصتها الوحيدة لتنجو من إعدام علنيّ، على يد مماليك المعزّ.

أضاف كافور:

– لا شكّ بأنّنا سنشهد ما بقي من الليل، زيارات كثيرة للتفاوض معكِ. لم يكن وصول ابن مرزوق قبل قليل سوى مقدّمة لذلك.

– إذًا مُر رجالك بأن يقولوا إنّني لا أزال غائبة عن الوعي، ما لم يتلقّوا أوامر أخرى من جهتنا. سيمنحنا هذا بعض الوقت لنقرّر ما سنفعل. وفيما اتّجه كافور نحو الباب، أضافت: ليقولوا أيضًا إنّني أعاني حمّى صاعقة وشديدة.

فتح كافور الباب قليلًا، وهمس للخصيان الواقفين خلفه بأوامر سريعة، ثمّ عاد إلى السلطانة، التي قالت:

– ولكن، فيمَ يريدون مفاوضتي؟ لقد خسرتُ كلّ شيء.

– نسيتِ أنّك لا تزالين تحتفظين بورقة أساسيّة يا مولاتي. مجوهراتك الشهيرة، أي مجوهرات الصالح وثرواتك الخاصّة. هي ذات شهرة تاريخيّة. كما يُقال إنّك دفعتِ من مالك الخاصّ لسدّ عجز خزينة الدولة بعد الحرب ضدّ الفرنجة.

– إطمئنّ، سأستخدم هذا الكنز ضدّ أعدائي، ولكن بطريقتي. فأنا أعلم بأنّه لن يحميني البتّة: سأموت قتلًا، أو حتّى أسوأ، سأُترك للموت، موتًا بطيئًا في غياهب أحد السجون.

– أفضّل الموت ألف مرّة وأنا أحاول إخراجك من هنا، على سماعك تتحدّثين عن هلاكك وموتك الوشيك.

– الخروج من هنا إلى أين؟ إلى مَن؟ أفضّل الموت في قلعتي وبشروطي على أن أتحوّل إلى لاجئة ذليلة غير مرغوب فيها.

حينذاك تجرّأ كافور على بادرة لم يكن ليتصوّر أن يأتيها من قبل. مدّ ذراعه إلى الملكة المخلوعة

وأخذ يدها ورفعها إلى فمه. ثمّ وجد الشجاعة الكافية ليضمّ شجرة الدرّ بين ذراعيه، في محاولة لحمايتها. تجمّدت الملكة، لكنّها لم تدفعه بعيدًا، فدفء حنانه جعلها تشعر بكثير من الارتياح. كانت ترغب في البكاء، فتعلّقت بعنقه بصورة عفويّة.

فجأةً أدرك كافور جسامة ما قام به، فانتحى وهو يتمتم الاعتذارات. تركته السلطانة يبتعد قليلًا، ثمّ أخذت يده واحتفظت بها في يدها، بحركة مطَمْئِنة. لم تشعر بأنّ جرأته أهانتها، بل تفهّمت وقدّرت جدّية تلك الاندفاعة الصادرة من القلب.

إلتفتت نحو النافذة وأدركت أنّ ظلام الليل قد اشتدّ:

– لا تزال أمامنا ساعات قليلة لننفّذ تحت جنح الظلام الخطّة التي تخيُّلتها وأنا أكلّمك. علينا في البداية أن نتناول الطعام لنستعيد قوانا. إذهب وائتني بطبقَي البلح والفاكهة المجفّفة. يترك الخدم منها دائمًا في جناحي. ستجدها على الرفّ هناك إلى اليسار، مغطّاة بفوط من الحرير الأبيض. أشعر فجأةً بجوع شديد. لا شكّ بـأنّك جائع أيضًا. وسنتقاسم هذه الوجبة.

ذهب كافور لإحضار طبقَي البرونز المشغول، المليئين بالأطايب، ووضعهما على منصّة بالقرب من الأريكة الواطئة حيث اعتادت السلطانة أن تتناول طعامها. جلسا معًا بشكل طبيعيّ، وتقاسما بصمت آخر وجبة طعام تتناولها شجرة الدرّ بصفتها امرأة حرّة. كانت بحاجة إلى هذا الصمت. كان يلذّها ويريحها.

لطالما أحبّت السلطانة ثمرات البلح المكتنزة والشهيّة هذه، والتي كانت تشكّل وجبة حقيقيّة. أكلت منها ثمرة أخيرة، وشربت جرعة كبيرة من الماء، ونهضت موعزة إلى كافور بأنّ وقت العمل قد حان.

في البداية، طلبت منه أن يصلّي معها. إستخدما للوضوء الإبريق المليء بالماء المعطّر بقطرات ماء الورد. ثمّ استدارا ناحية القبلة ورفعا الدعاء معًا. بدآ بإعلان نيّتهما الصلاة جهارًا، ثمّ قاما بالركعات الأربع وفقًا لسنّة صلاة العشاء، آخر الصلوات الخمس التي تملأ وتوقّع يوم كلّ مؤمن. قاما بتلاوة آيات من القرآن، وانحنيا ساجدين لله ولمشيئته، بحركات متناغمة، وكأنّهما شخص واحد.

في الركعة الأخيرة ووفقًا لسنّة صلاة العشاء، أخذت السلطانة المخلوعة وقتها للصلاة على محمّد وآل محمّد والأنبياء، وبعد ذلك التفتت إلى يمينها ثمّ يسارها للصلاة على الملائكة الذين يرافقون البشر على الدوام. فعل الإيمان البسيط هذا، والذي استغرق دقائق قليلة انفصلت فيها عن الحياة المادّية لتسلّم نفسها كلّيًا لله، جعلها تشعر بالكثير من الطمأنينة، وأعاد إليها قوّتها الداخليّة.

بعد ذلك، مضت إلى صندوق صغير. أخرجت منه مفتاحًا أعطته لكافور قائلة:

– هذا مفتاح باب الغرفة حيث خُزنت أدوات المطبخ والأواني الرفيعة النوعيّة. وهو الباب الأوّل إلى اليمين في الممرّ الكائن إلى يسار جناحي. أطلب من رجالك الذهاب إلى هناك سرًّا، وسيجدون هناك أجرانًا من مختلف المعادن والأحجام. قل لهم أن يأخذوا الجرنين البرونزيّين الأثقل. شدِّد على أن يتصرّفوا بسرعة ويتجنّبوا لفت الانتباه.

أخذ كافور المفتاح ومضى إلى الباب بخطى سريعة لينقل أوامر السلطانة.

– طلبتُ منهم طرق الباب ثلاث مرّات عند عودتهم. وسأُدخل الجرنين بنفسي إلى هذه الغرفة.

– عليك أن تعطيهم تعليمات صارمة بعدم فتح هذا الباب بدون إذنك. عليهم أيضًا أن يجدوا تبريرات يقدّمونها إلى مماليك المعزّ أو مماليك الصالح، إذا بدأ هؤلاء يهتمّون بما يجري في جناحي.

مضت إلى سريرها، وجلست فيه وبدأت تحرّك في الجدار المحاذي، بلاطة فخّارية مزيّنة برسوم

أزهار. ثمّ سحبتها ووضعتها على الطاولة الواطئة، وأدخلت يدها في الفراغ الذي كانت البلاطة تسدّه وأخرجت مفتاحين. أعطت كافور أحدهما، وطلبت منه فتح الباب الكائن خلف ستائر الحرير الأزرق الفاتح المطرّزة بطيور صغيرة من الخيوط الذهبيّة. كان ذلك باب غرفة ملابس السلطانة، حيث توضّب نايا الثياب الثمينة وصندوق الحليّ الذهبيّة والحجارة الكريمة. كانت السلطانة تحبّ أن تكون تلك الحليّ بمتناول يدها لقيمتها العاطفيّة. إعتادت نايا الاحتفاظ بهذا المفتاح، لكنّها فطنت إلى إعادته إلى المخبأ قبل أن تغادر القلعة.

– خُذ مصباحًا وأخرِج الصندوق الخشبيّ المرصّع باللآلئ الموجود في الداخل. هو ما يحتوي على الحليّ.

وهي تراقب كافور يتّجه إلى تلك الغرفة، لم تستطع مقاومة رغبة اللحاق به. فتح الباب، وترك شجرة الدرّ تدخل قبله، ثمّ تبعها. أضاء المصباح الزجاجيّ الكبير الذي كان قد اختاره زوايا الغرفة الصغيرة، وانعكس نوره على الحرائر والديباج المتعدّدة الألوان، وعلى المطرّزات الذهبيّة. على الأرائك، كانت الفساتين والأثواب الثمينة، والتي لم يتسنّ لنايا الوقت الكافي لترتيبها قبل رحيلها، معروضة بكلّ بهائها ورونقها.

شعرت شجرة الدرّ بكافور وقد تجمّد في مكانه خلفها لبرهة، فكتمت ابتسامة. هو لم يسبق له قطّ أن توغّل إلى هذا الحدّ، في حميميّة جناح السلطانة. لا شكّ بأنّ الغرفة ذكّرته بمغارة علي بابا، فعلى إحدى الطاولات، كانت حليّ الذهب والحجارة الكريمة تتألّق ملتمعة بأبهى الألوان. قد وضعتها نايا هناك لتختار منها ما يناسب الفساتين ولم تُعدها إلى الصندوق. كانت لا تقلّ جمالًا عن الحلل المطرّزة والمزخرفة باللآلئ، وبعضها يوازي تلك المجوهرات الثمينة قيمة.

أخذت السلطانة الفستان الأقرب، فستان من الأحمر القاني الجميل، ومطرّز بالخيوط الذهبيّة، فستان شفّاف وفاتن، صُمّم بهدف الإغراء. لم تعد شجرة الدرّ تذكر متى ارتدته. ففي السنوات الأخيرة، ومنذ القطيعة مع أيبك، لم تُتح لها الفرصة لارتدائه. مكّنت يديها عند فتحة الصدر وشدّت بكلّ قوّتها، فانشقّ القماش المرهف والدقيق بسهولة تامّة.

سرت على امتداد ظهرها قشعريرة اللذّة حين سمعت صوت القماش يتمزّق. رأت الفستان الجميل الذي تطلّب ساعات عمل طوال من عدّة خيّاطات ومطرّزات متفانيات، يتحوّل بحركة واحدة من يديها، إلى خرقة لا قيمة لها.

لم يكن ذلك الشعور جديدًا بالنسبة إلى السلطانة، فقد سبق لها أن حطّمت عددًا لا يُحصى من الأشياء الثمينة، الزجاجيّة منها والخزفيّة، لتنفيس نوبات غضبها. ولكنّها أدركت في تلك اللحظة، وفيما لم يبارح الفستان الأحمر يديها، أنّها على وشك استهلال جولة ماجنة من التحطيم والتكسير، لا سابق لها.

– كافور، خذ هذا الصندوق إلى الغرفة الرئيسيّة. سنهتمّ لاحقًا بمحتواه، ثمّ عد لمساعدتي في تحطيم كلّ ما في هذه الغرفة.

حمل كافور الصندوق. لكنّها استوقفته وفتحت الصندوق بالمفتاح الثاني، لتأخذ منه خنجرًا مرصّعا بالياقوت والزمرّد، تستطيع به أن تجهز بسرعة أكبر، على تلك الكمّية من الأقمشة.

حين عاد كافور، كانت قد أنهت مصير معظم حللها الثمينة وفساتينها وسراويلها وصديريّاتها، وقمصانها الطويلة أو القصيرة، وغيرها من الملابس النسائيّة. لم ينجُ شيء من نصل خنجرها المخيف، فيما علت وجهها ابتسامة عريضة. لم يهدر كافور وقتًا في استهلال العمل إلى جانبها. معًا، أنجز خنجر السلطانة ويدا الحارس الضخمتان المهمّة بسرعة فائقة. ثمّ أخذا الحليّ التي بقيت في الغرفة، وأغلقت

شجرة الدرّ الباب بدون ندم.

***

قبل عودة كافور، كانت قد فتحت صندوقًا كبيرًا من خشب الأرز يحتوي مستحضرات ومراهم وأدوية، فأخذت منه قارورة لتعهد بها إليه. منذ موت زوجها الأوّل، السلطان الصالح أيّوب، كانت تحتفظ دائمًا بهذه القارورة في مكان قريب منها. وقد أكّد لها خبير الأعشاب الذي أعدّ تركيبتها، بأنّها تؤدّي إلى موت هادىء لا ألم فيه، حيث يغرق المرء في نوم هانئ مليء بالأحلام الرائعة، وبعد ذلك ينتهي الأمر ولا يعود يشعر بشيء، بل يعبر الطريق إلى الآخرة بدون ألم ولا عذاب. إذا كان ذلك الموت متوفّرا فعلًا، فهو ما ستختاره في الوضع الراهن.

أرادت أن تقفل الصندوق، لكنّ يدها تردّدت. ماذا لو فشل كافور في إيصال تلك القارورة إليها؟ وماذا لو سُلّمت مقيّدة القدمين والمعصمين إلى أمّ عليّ، وكان عليها أن تعاني كلّ ما حلم عقل غريمتها المريض بأن يجعلها تعاني؟ فقرّرت أنّها لا تستطيع المجازفة بذلك.

فكّرت آنذاك في حلّ ثان، أقلّ لذّة، لكنّه يبقى أفضل بكثير ممّا تعدّه لها أم عليّ. أخذت دبّوسا من شعرها وغرزته في قارورة أخرى كانت تحتفظ بها في ذلك الصندوق. كانت تلك القارورة تحتوي سمًّا لا يقلّ خطورة، غير أنّه يعمل بطريقة مختلفة. قطرة واحدة منه تكفي للتسبّب بموت سريع، ولكن مؤلم جدًّا. أعادت الدبّوس إلى شعرها، محاذرة ألّا تخز به بشرتها. باتت خطّتها البديلة جاهزة.

حين عادت إلى الغرفة الرئيسيّة وجدت فيها جرنين كبيرين يحتلّان معظم المساحة. كان رجال كافور قد أنجزوا مهمّتهم بفائق السرعة والكتمان. وكان الجرنان البرونزيان الثقيلان مثاليّين لإتمام الخطّة الغريبة التي أعدّتها الملكة المخلوعة.

لم يعُد أمامها سوى ساعات قليلة قبل أن يُرمى بها في السجن، وكان عليها أن تتصرّف بسرعة. كان الهدوء السائد في القصر يعني على الأرجح، بأنّ الاتّفاق الذي تمّ التفاوض عليه مع الصالحيّين، لا يزال قائمًا. لكن وبعد صلاة الفجر التي ستُرفع باسم السلطان الجديد، ستصبح أمّ عليّ الملكة الأمّ رسميًّا، ويكون لها الحقّ في المطالبة بالجناح الملكيّ.

وضعت شجرة الدرّ القارورة برفق فوق سريرها، وبلا تردّد رمت الحليّ التي حملتها معها، في أحد الجرنين. ثمّ التفتت إلى كافور وأمرته بسحقها وتحويلها إلى غبار. تردّد كافور. كانت شجرة الدرّ تتفهّم أن يأنف رجل، مهما كان مخلصًا، من إبادة ثروة بهذا الحجم. فقرّرت أن تعطي المثال بنفسها وأخذت مدقّة الجرن.

كانت المدقّة ثقيلة جدًّا فاحتاجت إلى كلّ قوّتها لرفعها. ثمّ تركتها تهوي، بأقصى درجات التصميم، على كتلة الحليّ الرائعة التي كانت تلتمع في قعر الجرن. من جديد رفعتها وعاودت الكرّة مرّة بعد مرّة حتّى نال منها الإنهاك. وقف الاثنان قبالة هشيم من الذهب والحليّ. كان قلبها يخفق بوتيرة جنونيّة، فيما فضحت عيناها المتألّقتان والابتسامة المشعّة التي أنارت وجهها المتورّد بفعل ما بذلته من جهد، لذّتها العارمة.

نظر إليها كافور مفتونًا، وعيناه تروحان وتجيئان حيرةً بين عينَي السلطانة والمحتوى الذهبيّ المذهل في داخل الجرن. سرعان ما قضى الفرح والحماس المنبعثان من شجرة الدرّ، على ما يخامره من تردّد. أخذ المدقّة وراح يسحق بها محتوى الجرن حتّى تحوّل الهشيم الذهبيّ إلى ذرّات غبار.

تركَته يقوم بذلك، ثمّ فتحت الصندوق لتخرج منه قطعًا أخرى، ونشرتها حولهما، حتّى أحاطت بهما

حلقة من أجمل روائع أبدعها أعظم صاغة العالم الإسلاميّ. ولو تسنّى لأحد أن يفاجئهما على هذا النحو، لظنّ أنّ الجنّ رمى به في صفحات رواية ألف ليلة وليلة. تحت أنوار المصابيح، كانت جواهر السلطانة المخلوعة تتألّق كالنجوم. راحت هذه الأخيرة تنظر بعينين ملؤهما الحنان، إلى قطعها المفضّلة. لعلّها لم تكن الأثمن، لكنّها أعادتها إلى ذكرياتها، واللحظات المميّزة في حياتها.

الصالح أيّوب

كانت شجرة الدرّ تعي أنّها نعمت بكثير من الحظّ في حياتها، وأفضله كان دخولها إلى حريم الصالح أيّوب.

على رغم شخصيّته الصموتة والكئيبة وبخله الظاهريّ، كان الصالح في غاية السخاء مع زوجته. أحبّها بصدق وأعطاها كلّ شيء. كانت بالنسبة إليه الكائن الوحيد الذي يفهمه، ويتفانى من أجله، بدون أيّ تهديد بالخيانة أو الهجران. أمام زوجته، تمكّن الصالح من إسقاط كلّ الأقنعة: قناع الصيّاد، وقناع المحارب، وقناع المفاوض، وقناع المخطّط الاستراتيجيّ، وقناع قائد جيش استثنائيّ من المماليك... أي بإيجاز قناع الملك، ليعود رجلًا بسيطًا بحاجة إلى الحبّ والمؤاساة، وإلى استمداد طاقة جديدة لمواصلة نضاله.

أدّت شجرة الدرّ ذلك الدور بكثير من الحنان والصدق. لم يلهب الصالح أيّوب كيانها بنار الشغف التي نجح أيبك بإشعالها، لكنّ حبًّا كبيرًا كان يجمعها به، هادئًا، وأكيدًا، ودائمًا. وإن وُصف الصالح بالشخص الصموت والقاسي والعنيف والمتغطرس وغير المتسامح، فقد كان بالنسبة إلى زوجته، رجلًا استثنائيًّا وكائنًا شجاعًا وحازمًا وصاحب رؤية عظيمة.

الواقع أنّ دنوّ ساعتها الأخيرة قد ساعد شجرة الدرّ على سبر غور قلبها بوضوح أكبر. كان أيبك قد طواه النسيان، وشُطب من ذاكرتها بطعنة خنجر إنّما استحقّها عن جدارة، وقد تلاشى شغفها نحوه مع آخر أنفاسه. الرجل الحقيقيّ في حياتها كان الصالح، الرجل الوحيد الذي أحبّها وقدّرها لما هي عليه، لا لما تستطيع أن تقدّمه. أعطاها الصالح كلّ شيء لكنّه مات وهو لا يزال في ريعان الشباب، وقد آن الأوان لتنضمّ إليه إلى الأبد.

حبّ الصالح أيّوب وسخاؤه الفريد سمحا لشجرة الدرّ ليس فقط بأن تكون سلطانة، بل بأن تجمع ثروة مذهلة أيضًا. غالبًا ما لجأت إلى تلك الثروة لتحقيق غايات سياسيّة أو فعل الخير من حولها. هذا الكنز سيفيدها من جديد، ولكن هذه المرّة في سبيل ثأر شخصيّ وسياسيّ. إضافة إلى المتعة التي كانت تشعر بها بحرمان أعدائها من كنزها الأسطوريّ، كان إتلاف ذلك الكنز يعني كذلك الأمر، حرمانهم موردًا ماليًّا هائلًا، كان ليساعدهم في محاربة الطامعين بعرش مصر، من الأيوبيّين أو الطامحين الآخرين. وهكذا تساهم، حتّى في مماتها، في القضاء على أعدائها.

وضعت في الجرن حليًّا أخرى، وكان كافور يرفع المدقّة ليدعها تهوي بقوّة، فيسحق تلك المجوهرات الرائعة التي لطالما رافقت السلطانة المخلوعة. كانت تنظر إليها تزول بلا مبالاة، هي التي لم تخجل قطّ بحبّها للحليّ الجميلة، وذلك الرقيّ الذي يجعل الحياة أجمل وألطف. والصالح نفسه هو الذي أطلق عليها اسمها، «شجرة الدرّ»، أي شجرة الدرر الكريمة، ليكرّس إلى الأبد الصفات التي يقدّرها فيها، وإنّما أيضًا لأنّه كان يحبّ رؤيتها في أبهى الملابس والحليّ، هو الذي غالبًا ما اشتُهر، بملابسه السوداء والرزينة والتي لا تليق به كسلطان.

في خضمّ عملهما التدميريّ، وظّف كلّ من كافور وشجرة الدرّ ما يملك من قوّة لإنجاز المهمّة، بتناغم تامّ، وبصمت مطبق متبادل، يقطعه فقط إيقاع هبوط المدقّة في الجرن. كانت شجرة الدرّ تضع القطع واحدة بعد الأخرى في الجرن، ليسحقها كافور بكلّ ما في ذراعيه الجبّارتين من قوّة. وحالما ينتهي من أحد الجرنين، ينتقل إلى الآخر تاركًا لشجرة الدرّ استكمال سحق البقايا التي أصبحت أقلّ مقاومة. وحين ترضيها النتيجة، كان كافور يسكب المحتوى الثمين في إحدى الجرار الصغيرة التي

كانت سلطانته قد رصفتها بالقرب منهما.

بتحطيمها تلك الروائع، كانت شجرة الدرّ تحّرر ذكرياتها الدفينة التي بقيت كاملة وغنيّة، وراحت تجتاح كيانها هبّة بعد هبّة مع كلّ حجرة تتفتّت.

الخليل

داعبت يد شجرة الدرّ قلادة ذهبيّة كانت لابنها الراحل، نُقشت على أحد وجهيها عبارة: «الله خير حافظ وهو أرحم الراحمين». وعلى الوجه الآخر آية من القرآن الكريم تدعو إلى العياذ بالله من الشرّ والحسد اللذين يسكنان كلّ مخلوقاته. لقد حمل الخليل تلك التعويذة ليل نهار، غير أنّها لم تكفِ لحمايته.

منذ دخول والديه المظفّر إلى القاهرة في العام 1240، أعلن الصالح أيّوب ابنه وليًّا للعهد. لفت هذا العمل كلّ الأنظار إليه وإلى أمّه، التي أصبحت تكنّى بأمّ الخليل. لكنّ الشرّ أودى بطفل أمّ الخليل، فحصدته حمّى صاعقة بعد ستّ سنوات من السعادة، بوحشيّة وسرعة لا تزال تثير ذهول أمّه حتّى بعد انقضاء سنوات طويلة.

برغم الألم الذي كان يعتصرها كلّما فكّرت في ابنها الوحيد، وبرغم بحر الحزن الذي كانت تغوص فيه كلّما فكّرت في ما كان ممكنًا لقدره أن يكون، لم تفارق هذه القلادة شجرة الدرّ يومًا. أولم تكن معلّقة حول عنق ابنها، ولامست بشرته الرقيقة، وانعكست في عينيه الخضراوين الجميلتين خلال سنوات وجوده الستّ؟ بالنسبة إلى الأمّ، كانت تلك القلادة لا تزال تحتفظ برائحة ابنها ودفء بشرته. حين تداعبها شجرة الدرّ بأصابعها وترفعها إلى شفتيها، كانت تستعيد معها آثار المتعة الرقيقة والفريدة التي تشعر بها الأمّ حين تقبّل ابنها بحنان.

وهكذا كانت في كلّ مرة تستسلم للخيال، فيرتسم أمامها شابًّا مميَّزا، فارسًا شجاعًا، وسلطانًا حكيمًا وعادلًا، كانت ستربّيه بحبّ وصرامة وذكاء. كانت تتخيّل نفسها ملكة أمًّا – بعد سنين طويلة من تولّي زمام الحكم بصفتها وصيّة وبدون أيّ منازع – تتنازل لابنها عن عرش بلد مستقرّ ومزدهر. كانت لتفضّل واجبها نحو ابنها على شغفها بأيبك، الذي ما كان ليصبح سلطانًا على الإطلاق. والحالة هذه، ما كانت لتحتاج أيّ رجل آخر، غير الخليل لمساعدتها في الحفاظ على السلطة. تلك السلطة التي أوصى الصالح علنًا بتركها لابنه، قبيل موته.

أخذت القلادة ووضعتها في عنقها. ما كانت لتستطيع البتّة أن تتّخذ قرار تحطيم هذه الذكرى الباقية من ابنها. أمّا كافور الذي عرف القلادة، فقد نظر إليها بعينين مضطربتين.

– ستدفنها مع جثّتي، قالت شجرة الدرّ.

أومأ برأسه في إشارة إلى أنّه فهم ما تأمره به، ثمّ تابع طحن الحجارة الكريمة كما تُطحن حبوب البهار أو البنّ.

راحت شجرة الدرّ تشعر بمزيد من السلام مع دنوّ نهايتها، والتي ستعيد جمعها بعائلتها أي بالصالح أيّوب والخليل. لذلك، قد اختارت الطريقة التي تناسبها. كانت تولي كافور ثقتها التامّة. إذا كان من أحد يستطيع تطبيق تعليماتها حرفيًّا، فهو كافور بلا أدنى شكّ. بادرته بابتسامة تشجيع خفيفة، وواصلا عملهما.

بعد وفاة ابنهما المبكرة، أغرق الصالح أيّوب زوجته بأفخم الهدايا، ومن بينها هذه الجواهر. كان يتمنّى أن يراها تبتسم من جديد، لكنّ طبيعته الخجولة تعثّرت بالكلمات المناسبة ليسرّ لها بذلك. فاستبدل الكلمات الرقيقة بالذهب والماسّ، راجيًا أن يملآ الفراغ الذي اجتاح روح محبوبته. لكن عبثًا. لعلّ الدواء كان في إنجاب طفل آخر، ولكنّ الله، بحكمته الواسعة لم يشأ وللأسف حدوث ذلك. لم تتكرّر معجزة الإنجاب قطّ.

كان سهلًا على شجرة الدرّ أن تدمّر كلّ الجواهر الرائعة والثمينة التي ما انفكّت تذكّرها بأتعس أوقات حياتها، لكنّ الفراغ في روحها سيرافقها حتّى الرمق الأخير. وحده ملاك الموت يستطيع سدّ فراغ كهذا. هذا ما شاءه الله، ولا يسعها سوى الامتثال لمشيئته العليا. بصفتها مسلمة ورعة، لطالما وثقت شجرة الدرّ بحكم الخالق، حتّى حين ولو جعلها ذلك تعاني الأمرّين، فوحده الخالق مَن يعرف السبل وخواتيمها التي يقودها عبرها.

حديقتنا الخاصّة هي الأَولى بالاهتمام

إمتلأت أربع جرار متوسّطة الحجم بغبار الذهب والحجارة الكريمة، فقد كان العمل يسير على قدم وساق. وفيما كانت شجرة الدرّ تفكّر في أن تُخرج الصندوق الكبير الذي يحتوي النقود الذهبيّة وبقيّة الحليّ، قُرع الباب. توقّف كافور على الفور وذهب ليستطلع الأمر.

حين عاد، أخبر شجرة الدرّ بأنّ ابن مرزوق عند الباب ويطلب مقابلتها، لأنّ بعض إماء الحريم يزعمنَ أنّهنّ سمعنَ ضجيجًا صادرًا من الجناح الملكيّ. وهكذا، قد لاحظ مماليك المعزّ أنّ الأنوار مضاءة، وعلموا بأنّ السلطانة المخلوعة استيقظت، وباتوا يشكّون في أنّ أمرًا غريبًا يجري في جناحها.

– إنّها المرّة الثالثة التي يأتي فيها ابن مرزوق. سبق أن ردّه رجالي خائبًا بعدما قالوا له إنّك غائبة عن الوعي، وتعانين حمّى شديدة.

كانت شجرة الدرّ قد تحسّبت لهذا الاحتمال وفكّرت في حيلة تُكسبهما الوقت حتّى الفجر.

– رجالك أحسنوا صنيعًا يا كافور. لا يفاجئنّك ما سأفعل: قبل أن يبتعد ابن مرزوق، سأصرخ كالمجنونة لإقناعه بالحقيقة التي ستخبره أنتَ إيّاها. أخبره بأنّ شجرة الدرّ استيقظت، وبأنّها، إلى جانب الحمّى الشديدة التي انتابتها، فريسة نوبات جنون وغضب شديد، لأنّها ترفض قدرها المحتوم: هي تصرخ وتبكي وتفجّر غضبها بكلّ ما تقع يدها عليه. قل له إنّك تبذل قصارى جهدك لتهدّئها وتعيدها إلى رشدها.

بعدما خرج كافور من الغرفة، انتظرت لبرهة ثمّ أكّدت أقوالها بأن رمت قصعة خزفيّة إلى الجدار، وأطلقت، بشكل طبيعيّ وعفويّ، صراخًا شديدًا ملؤه الإحباط واليأس.

عاد كافور بسرعة وأغلق الباب خلفه، بعدما ساعدته صرخات شجرة الدرّ على التخلّص من ابن مرزوق. إنصرف هذا الأخير، مقتنعًا بما سمعه، وأسرع لإبلاغ قُطُز وأمّ عليّ. أكّد كافور للسلطانة أنّ ابن مرزوق المسكين بدا مرتبكًا، بل حزينًا جدًّا حين علم بحالتها. كانت تلك إشارة إلى أنّه ما زال يكنّ لها المودّة والاحترام، فكّرت في سرّها، وهو ما قد يكون مفيدًا لاحقًا.

– علينا الآن الاهتمام بالصندوق الكبير. تعرف أين تجده. إذهب لإحضاره فيما أنثر محتويات هذه الجرار في حديقتي. هل أرسل إليها مماليك المعزّ حرسًا؟

– لا، فقط عند المخارج.

– جيّد جدًّا. سيختلط غبار الذهب واللآلى والحجارة الكريمة بنسغ شجيرات الورد والفاكهة في حديقتي. ومَن يدري؟ قد تنبت فيها بعد وفاتي، شجرة درّ حقيقيّة، لتستهزئ بأمّ عليّ الغادرة، فيكون ذلك ثأرًا رائعًا.

إرتسمت على شفتيها ابتسامة خبث طفيفة، فيما لاحت الكآبة في عينيها الخضراوين الجميلتين. لا شكّ بأنّها كانت تتلذّذ في إتمام خطّتها، لكنّها لذّة مشوبة باليأس.

حملت جرّتين وشدّتهما إلى صدرها، وخرجت في نسيم الليل البارد. تقدّمت في الحديقة الغارقة في الظلام، تستنير ببعض الأنوار الخافتة خلفها. لم تأخذ مصباحًا لأنّها كانت تعرف الحديقة عن ظهر قلب. توجّهت نحو شجيرات ورودها المفضّلة وصبّت بينها محتوى الجرّتين بشكل يستحيل معه على

أعدائها استرجاعه. عادت لإحضار الجرّتين الأخريين وكرّرت الأمر عينه تحت أشجار الفاكهة. ثمّ بيديها وقدميها خلطت الذهب بالتراب. تريّثت قليلًا قبل أن تعود، لتمتّع أنظارها وللمرّة الأخيرة بالحديقة التي أنمتها بكلّ عناية.

طوران شاه

وجدت شجرة الدرّ كافور جالسًا القرفصاء، جاحظ العينين أمام محتوى الصندوق الضخم، بعدما أخرجه من مخبئه في الجدار، والذي كان محجوبًا بنسيج مزدان برسوم مشهد صيد. أمام النسيج، كانت وسائد كبيرة موزّعة على سجّادة صوفيّة جميلة، حيث اعتادت السلطانة الجلوس لتشنّف آذانها بألحان العازفات الشجيّة، في ليالي الشتاء الطويلة. كان النسيج المزدان والسجّادة يساهمان في تدفئة هذا الجزء من الجناح، ولم يشكّ أحد بما أخفِي خلفهما. في الصيف، كانت السلطانة تأمر باستبدال السجّادة الصوفيّة، بأخرى حريريّة. لكنّ أحدًا لم يكن له الحقّ بإزالة النسيج المزدان، تلك الهديّة الثمينة التي قدّمها إليها الصالح، بعدما امتلكتها عائلته منذ معركة حطّين التي حقّق فيها صلاح الدين نصره الشهير على الصليبيّين. وقد غنم جنود السلطان الأيوبيّ الكبير ذلك النسيج الفخم من خيمة أحد كبار أسياد الفرنجة بعدما قتلوه.

بناءً على أوامر السلطانة، قد قام أحد المهندسين المعماريين باستحداث مكان خاصّ خلف ذلك النسيج، وبمهارة فائقة لدرجة لا يمكن التمييز بين هذا الجزء والأجزاء الأخرى من الجدار. كان أسفل الجدار بكامله مكسوًّا ببلاط ذي رسوم هندسيّة زرقاء وبيضاء، سوى أنّ جزءًا مستطيلًا منه وهو عبارة عن لوح خشبيّ، مكسوّ أيضًا بالبلاط عينه، كان قابلًا للرفع جرّاء الضغط على أماكن معيّنة. عند إزالة هذا الجزء، يظهر الصندوق الثمين. كذلك قد أقام المهندس جهازًا ينمّ عن عبقريّة شديدة، يسمح بإخراج الصندوق من مخبئه بانزلاقه على سكّتين، وبدون بذل أيّ جهد.

حين كان الصالح على قيد الحياة، لم يكونا بحاجة إلى مخابئ معقّدة على هذا النحو لإخفاء كنزهما الخاصّ، بل فقط إلى غرفة تحت حراسة مشدّدة. لكنّ الأمور قد تغيّرت بعد وفاة الصالح. كانت السلطانة تعي أنّ كنزها هو أحد أوراقها الرابحة الرئيسيّة، والتي من الواجب الحفاظ عليها. مع ابتعاد أيبك عنها وتجريدها من كلّ سلطة، قد راح قلقها يزداد أكثر فأكثر. وهكذا، لحماية كنزها من طمع أيبك، استدعت مهندسها المعماريّ بسريّة تامّة ليصمّم ذلك المخبأ، وقد قام الأخير بعمل جدّ مميّز. كما أنّ أيبك لم يجرؤ على مطالبتها بثروتها قطّ، مفضّلًا نهب زعماء المماليك. لكنّها كانت تعلم بأنّ خلفاء أيبك لن يتحفّظوا مثله حيال أموالها.

شعرت شجرة الدرّ بوخز في القلب حين رأت الصندوق الشهير، لأنّه ذكّرها بمرحلة حزينة من رحلتها لارتقاء عرش مصر، أي يوم اغتيل طوران شاه، الوريث الوحيد للصالح أيّوب. كان طمعه بهذا الكنز السبب المباشر لمقتله، لكنّ سيلًا من الارتكابات المتتالية من حماقات وجحود وعدم كفاءة، هو ما ألّب ضدّه المماليك الصالحيّين.

كان طوران شاه في الخامسة وعشرين من عمره فقط حين مات الصالح أيّوب على أثر مرض عضال، أثناء احتلال الصليبيّين الفرنجة بقيادة الملك لويس التاسع، للسواحل المصريّة. وُيروى أنّ ذلك المسيحيّ الورع جدًّا قد نذر المشاركة في الحملات الصليبيّة إذا ما شُفي من مرض خطير. ولمّا استجاب إلهه طلبه، نزل في بداية شهر يونيو من العام 1249 إلى السواحل الغربيّة، في مكان لا يبعد كثيرًا عن مدينة دمياط، على رأس جيش من المتعصبّين الدينيّين وصائدي الثروات. كان يخطّط للوصول إلى القدس عبر مصر، بعد إخضاعها، بهدف حماية خطوطه الخلفيّة. وحين يشلّ قدرة الإمبراطوريّة المصريّة العظمى، يضمن لنفسه طريقًا مفتوحًا إلى القدس بدون مقاومة تُذكر.

برغم مرضه، سار السلطان الصالح أيّوب على رأس الجيش مع مماليكه للدفاع عن العالم الإسلاميّ. مع ذلك الإنجاز البطوليّ الأخير، برهن عن بسالة وقدرة على التحمّل نادرتين. لكنّه أسلم

الروح في 23 نوفمبر 1249، فيما كان طوران شاه في طريقه لموافاته إلى مصر. لم يكن هذا الأخير قد وصل حين أعلنت شجرة الدرّ في فبراير 1950، وعلى أثر معركة المنصورة، النصر بمشيئة الله على الغزاة الفرنجة.

أمّا السبب في تأخّر طوران شاه فكان مكوثه الطويل في دمشق، حيث بايعه أمراء سوريّون كان قد أغدق عليهم الهدايا والألقاب، سلطانًا على مصر وسوريا. بعكس أبيه الصالح المعروف بتقشّفه ورزانته، استسلم السلطان الشابّ لحياة البذخ والرخاء، وسرعان ما بدّد كلّ ذهب قلعة دمشق، وحصنَي الكرك ومؤاب، عند الضفّة الشرقيّة لنهر الأردن.

بعد إقامة قصيرة في قصر الروضة بالقاهرة، حيث رُفع الدعاء باسمه رسميًّا في صلوات المساجد، تولّى مهامّه الرسميّة، ومضى مع رفاق السوء إلى المنصورة، حيث لا تزال المعارك ضدّ الفرنجة متواصلة.

نفح وصول السلطان الجديد الهمّة في صفوف الجنود الذين كانوا يجهلون طبيعته الحقيقيّة، فضاعفوا شجاعتهم واندفاعهم للتخلّص من جيش الغزاة. إنتهت المعركة الأخيرة بهزيمة ساحقة للفرنجة وبأسر ملكهم. وبعد الوقوع في حصار القوّات المصريّة المحكم، استسلم لويس التاسع وشقيقاه وعدد من كبار أسياد الفرنجة، طالبين العفو عن حياتهم.

لكنّ طوران شاه ناقض تمامًا قيم الفروسيّة والدبلوماسيّة التي لطالما اشتهر بها الأيوبيّون، ولم يعر أحد كبار ملوك العالم المسيحيّ أيّ اهتمام. فذلك الغبيّ، الغارق ورفاقه في عالم السكر والفسق، لم يكن لديه الوقت ولا الاستعداد الذهنيّ لمفاوضة الفرنجة، فتولّت آنذاك شجرة الدرّ ومستشاروها تلك المهمّة.

كان السلطان الجديد الواقع باستمرار تحت سطوة الخمر، يتسلّى بإهانة المماليك الذين أنقذوا مصر، ويهدّدهم بالقتل أو بمصادرة ممتلكاتهم. وقد قام فعلًا، وبدون استشارة أرملة أبيه، السلطانة شجرة الدرّ، بالاستيلاء على أملاك الأمير فخر الدين وغيره من الأمراء المماليك الذين قُتلوا وهم يستبسلون في الدفاع عن أراضي الإسلام، ليوزّعها على أصدقائه المفضّلين، والذين بطبيعة الحال، لم يشاركوا في القتال.

إزاء هذا القدر من الجحود والوقاحة، تعاظم الشعور بالخيبة وعدم الرضا بين زعماء المماليك، بيبرس، وأقتاي، وأيبك، وقلاوون، فسعوا إلى حلّ لدى السلطانة التي هدّأت من ثورتهم لبعض الوقت. غير أنّ شائعات كثيرة راجت حول رغبة طوران شاه، والذي عبّر عنها علانية، في التخلّص من أقتاي، نفيًا أم قتلًا. لم يكن من شكّ في أنّ أمراء المماليك الآخرين سيلقون المصير نفسه. فقرّر هؤلاء التخلّص من ذاك السلطان المشؤوم.

وفي أحد الأيّام، قصد طوران شاه شجرة الدرّ ليطّلع على تفاصيل إدارة ماليّة الدولة، وتجرّأ على أن يطلب منها تسليمه الكنز ومجوهرات أبيه كما ومجوهراتها. لوهلة، ولدى سماعها تلك المطالب الغبيّة والمهينة، ظنّت شجرة الدرّ بأنّ أذنيها تخونانها. نظرة واحدة منها كانت كافية لإثارة رعب الأمير الذي لم يجرؤ على معاندتها أكثر، وبل عاجل بمغادرة المكان.

غير أنّ حقارته وفساده جعلاه يقع من جديد تحت سطوة رفاقه، فأرسل مبعوثين إلى السلطانة يكرّرون مطالبه. عندئذٍ، أذعنت لرغبة الأمراء المماليك، واستدعت بيبرس وأقتاي وأيبك ومنحتهم الإذن بالتخلّص من ذلك الجاحد الفاسد والغبيّ.

كان المصريّون قد أقاموا مخيّمهم على ضفّة النيل، في مكان غير بعيد عن دمياط، حيث جرّ طوران شاه كبار أسراه، ومن بينهم ملك فرنسا، لإبرام معاهدة. في موقع ناءٍ عن نقطة تمركز القسم

الأكبر من الجيش، كان طوران قد أمر بنصب فسطاط وبرج خشبيّ حوّلهما ورفاقه إلى وكر ماجن. في الثاني من مايو 1250، وفي ختام إحدى الولائم الكبيرة التي اعتاد طوران شاه إقامتها، قرّر أمراء المماليك أن ينجزوا المهمّة. تولّى بيبرس، قائد حرس السلطانة الجسور، تسديد الطعنة الأولى. لجأ طوران شاه الذي أصيب كتفه، إلى البرج الخشبيّ، فأضرم فيه المتآمرون النار. راح الفتى المسكين يستغيث، وتردّدت توسّلاته طويلًا في أذنَي شجرة الدرّ: «لا أريد هذا المُلك بعد اليوم. دعوني أعود إلى حصن كيفا! أيّها المسلمون، أليس بينكم من مغيث؟».

كانت شجرة الدرّ لا تزال تذكر بعض أصحاب النفوس الطيّبة، الذين قاموا بمحاولات خجولة لإغاثة السلطان المنكوب. تمكّن من الخروج من البرج، ومضى راكضًا نحو النيل محاولًا النجاة في زروق. لكنّ وابلًا من النبال تساقط عليه، فقفز في النهر، ولم يعتّم أقتاي أن أدركه وأجهز عليه بسيفه.

وهكذا، تطلّب التخلّص من طوران شاه، آخر أيّوبيّي مصر، تضافر قوى الحديد والنار والماء.

***

جرف تيّار الذكريات شجرة الدرّ، لكنّ منظر الصندوق أمامها أعادها إلى الواقع. كان يأوي مجوهرات الصالح أيّوب الشخصيّة، ولكنّ أيبك لم يجرؤ على المطالبة بها قطّ. إلتمعت عينا شجرة الدرّ الخضراوان إذ لمحت إحدى تلك الجواهر وسط الكومة التي وضعها كافور على وسادة. كانت عبارة من مشبك جميل، ولكن جدّ بسيط، تتوسّطه زمرّدة ذات حجم ونوعيّة نادرتين. غالبًا ما كان الصالح أيّوب يضعه على عمامة سوداء. كان يقول إنّ لونه يذكّره بعينَي محبوبته، وإنّه فخور بحمله كما يحمل قلبه حبّه لزوجته. في مناسبات جدّ نادرة، كان الصالح أيّوب قادرًا على الإدلاء بشهادات حبّ وغرام، تدهش محيطه.

جلست شجرة الدرّ أرضًا وأخذت المشبك بيدها. حالمةً، كانت تداعبه بحنان بين أصابعها، حين سألت كافور بابتسامة صغيرة:

– أتعلم في ما كنت أفكّر؟ وفي أيّ حلم يقظة انجرفت؟

– سأحاول أن أحزر. هذا الصندوق يذكّرنا كلّنا بطوران شاه وحماقاته واغتياله. وفي هذه الأوقات العصيبة التي نمرّ بها، أتخيّل أنّ العديد من الرجال والنساء الذين صادفتِهم في حياتك، يمرّون قاطبةً هذا المساء في ذهنك.

– نعم، أنت على حقّ. كلّهم يمرّون ببالي: الصالح أيّوب، الخليل، بيبرس، أقتاي، وحتّى العادل وقلاوون، إضافة إلى طوران شاه. الغريب أنّني لم أفكّر في أيبك البتّة، وكأنّه لم يوجَد قطّ. دنوّ أجلي قد أيقظ ذهني ونقّى أفكاري. الرجل الوحيد الذي يهمّني، والذي أستعجل موافاته، هو زوجي ومولاي العزيز، الصالح أيّوب.

وضع كافور جانبًا القطع الاستثنائيّة التي لم يجرؤ على إتلافها، ولفت السلطانة إلى المجوهرات النادرة النوعيّة التي كان قد كوّمها على وسادة. كانت الماسّات تلتمع، وأحجار الزمرّد والياقوت، بألوانها ذات السحر العميق، تتألّق بألف بريق. كانت القطع الذهبيّة قد شُغلت وصُقلت بحبّ ومهارة استثنائيّة، على أيدي معلّمين صاغة، مخصوصًا للسلطان. حتّى أثرى الأمراء ما كان بوسعهم الادّعاء باقتنائها.

– أفهم تردُّدك يا كافور.

أخذت قرطَي أذنيها المتدليين ووضعتهما بين القطع التي اختارها كافور. كان واضحًا أنّهما من

النوعيّة الرفيعة عينها. ثمّ أعادتهما إلى جانبَي وجهها، وسألته:

– هذان القرطان استثنائيّان، ويناسبانني بشكل رائع، أليس كذلك؟

– يناسبانك تمامًا يا مولاتي. إطار رائع لرسم وجه ملائكيّ، أجابها بغصّة.

– كنتَ خلفي حين داعبتهما أمّ عليّ بأصابعها الوسخة، أليس كذلك؟ أرأيت الحسد في نظرتها السامّة كالأفعى؟ والآن، أغمض عينيك وتخيّل هذين القرطين يتدلّيان من أذنَي تلك اللعينة. تخيّلهما يداعبان وجنتيها كما يداعبان وجنتيّ الآن.

أغمض كافور عينيه، لمقاومة تلك الصورة البشعة أكثر منه لتخيّلها. رمت شجرة الدرّ القرطين وبدون ندم، في الجرن أمامه، تلتها كلّ الجواهر التي كانت لا تزال تزيّنها. بعد ذلك أخذت مشبك الصالح الثمين والقطع الفريدة الأخرى، ووضعتها برقّة في الجرن، الواحدة تلو الأخرى، وكأنّما لتودّعها. كانت ترسلها إلى العدم، حيث لن تلبث أن تلحق بها.

– هيّا يا كافور، بكلّ قواك وبدون ندم. أنا غير نادمة أبدًا.

هوت المدقّة كالصاعقة على تلك الروائع. وبقيت شجرة الدرّ جامدةً كالصخر غير آبهة بمصير هذه الأخيرة. ثمّ أخرجت الجرّة الأخيرة إلى الحديقة لتنثر الغبار الثمين وتتنفّس بعض الهواء المنعش.

أطيب الماء ما سقاه الغمام

بقيت لديهما قطع النقود الذهبيّة والتي كان من المستحيل إتلافها في غضون ذلك الوقت القصير. والواقع أنّها لم تنوِ إتلافها قطّ بل إخراجها من القلعة مع كافور، ليؤول جزء مهمّ من ثروتها إلى فقراء القاهرة، فتكون تلك زكاة كبرى تؤتيها كما تنصّ عليه فرائض الإسلام. كانت تفضّل ألف مرّة أن تترك مالها للفقراء، الذين سيترحّمون عليها حتمًا، من أن تدعه لثعالب السلطة.

– ماذا سنفعل بكلّ هذه النقود يا مولاتي؟ لا يمكن لجرني وذراعيّ أن تنتهي منها قبل الفجر.

– أعرف يا كافور. النقود الموزّعة على الصُرَر يسهل نقلها. سنُخرجها من القلعة. كم بقي لديكَ من الرجال المخلصين؟

– لديّ مئة وعشرون رجلًا مسلَّحا، أقسموا كلّهم على طاعتي العمياء حتّى الموت. كما لديّ مخبرون ومتعاونون في شتّى أنحاء الحريم والقلعة. أستطيع الاتّكال على حوالى عشرين منهم.

– سنستدعي سرًّا نصف رجالك، ونعطي كلًّا منهم عدّة صُرَر من المال. واحدة منها ستصبح ملكًا للرجل الذي يحملها. وسوف تُعطى أخرى لعائلة أحد الذين سيبقون هنا: لا يمكنني إخراج كلّ هؤلاء الرجال، وإلّا فطن رجال المعزّ إلى خطّتنا بسرعة. بعد ذلك، يعيد إليك رجالك الصُرَر الأخرى التي نقلوها. فتخفي أنت الذهب في مكان آمن، وسيساعدك على إتمام مهمّاتك، بدون أن تنسى أخذ حصّة وتوزيعها باسمي على فقراء المدينة.

– أنا خادمك يا شجرة الدرّ. سأنفّذ أوامرك ولو كان في ذلك هلاكي وهلاك رجالي. ولكن كيف أستطيع ورجالي إخراج الذهب من القلعة؟

– ثق بي يا كافور. أعرف تمامًا ما أفعل وما أقول. في هذه القلعة أسرار لا يعرفها أحد سواي. سأخرجك من هنا بكلّ سهولة.

– ألا تزال في القلعة أسرار لا أعرفها؟

– سأقصّ عليك سريعًا حكاية لقاء عجيب، سمح لي باكتشاف الممرّ الأكثر سرّية في قلعة صلاح الدين. ثمّة ممرّات أخرى تقود إلى خارج الحصون، لكنّ أمراء المماليك على علم بها. إلّا هذا الممرّ الذي لم أخبر به أحدًا، ولا حتّى أبيك. إسمع حكايتي، تفهم. إنّ مَن أرشدني إلى هذا الممرّ هو أحد حرّاس القلعة، عجوز، طاعن في السنّ. كنت قد وضعته في حمايتي حين آلت السلطة إليّ وإلى الصالح أيّوب. كان عجوزًا لدرجة يناهز عمره المئة عام، حتّى أنّه عرف صلاح الدين الكبير شخصيًّا. كان له من العمر خمسة عشر عامًا حين وضع صلاح الدين حجر أساس هذه القلعة، في العام 1177. حين التقيت ذلك العجوز، كان قد خسر كلّ أفراد عائلته، ولم يعد لديه مَن يهتمّ به، فراح يعيش من التسوّل في باحة القلعة. حين صادفته جالسًا أرضًا في الباحة الرئيسيّة، لم يسعني سوى أن أتوقّف وكأنّ قوّة إلهيّة دفعتني نحوه. كان فيه شيء مميّز، صفة خارجة عن الزمن. بدا لي وكأنّه مجلّل بهالة من النور الإلهيّ. كنت أستمتع بقضاء الوقت معه، والإصغاء إليه يروي حكاياته عن حقبة الأيوبيّين العظيمة. نشأت بيننا علاقة حنان متبادل، كما بين الجدّ وحفيدته. كذلك تعلّق به ابني العزيز، الخليل. لم يدُم ذلك سوى سنة، لكنّه ساهم في تلطيف قسوة وصولي إلى هذه البلاد الجديدة وفي ولوجي قلوب شعبها. ذلك الرجل هو الذي أرشدني إلى الممرّ السريّ، بما يشبه هديّة وداع قبل موته. حين باشر الصالح في تجديد قصر القلعة، عملت على أن يقام جناح الحريم وجناحي الخاصّ في موقع يسهّل ولوج ذلك الممرّ. كان الصالح أيّوب على علم بالأمر ووافقني الرأي. وكلّ العمّال الذين عملوا في وصل الممرّ

بهذه الغرفة، كان مصيرهم الإعدام أو النفي. للأسف، كان ذلك ضروريًّا.

– إنّها قصّة عجيبة ومؤثّرة جدًّا يا مولاتي.

– لم أحتج إلى هذا الممرّ قبل اليوم قطّ. إستخدمته بضع مرّات للّهو، وللتنزّه متنكّرة مع عزيزتي نايا في المدينة، وهي ما خلاي أنا، الوحيدة التي تعلم بوجود الممرّ. هكذا، كنت أتأكّد من حين إلى آخر بأنّه لا يزال صالحًا. ستُخرجون أنت ورجالك الكنز عبر هذا الممرّ.

– أعظم كنز بالنسبة إليّ يا مولاتي، هو أنتِ. إسمحي لي مرّة أخيرة بأن أقنعك بالنجاة بحياتك والمجيء معي.

لكنّها سارعت إلى وضع إصبعها على شفتَيه لمنعه من المتابعة. فتجرّأ على الإمساك بمعصمها لإبعاد يدها عن فمه. ركع أرضًا وقبّل يدها التي قبض عليها بأصابعه الضخمة والقويّة.

– لا أصدّق أنّك قرّرت تسليم نفسك لأعدائك، وأنت تدركين أنّ طريق حرّيتك مفتوح، تابع يقول.

– يجب أن تعلم بأنّ قراري نهائيّ ولا عودة عنه. إتّخذته وأنا على علم بكلّ الظروف، وبعدما قيّمت كلّ الخيارات. فانهض وكفّ عن محاولاتك غير المجدية. خذ هذا المفتاح واذهب لفتح الصندوق الموجود بجانب سريري. ستجد فيه المخطوطات، حيث أدوّن كلّ أعمالي الماليّة ونتائج استثماراتي. هاتها، سنهتمّ الآن بحيّز ثروتي الموجود خارج هذه الأسوار.

أعطت كافور أحد المفاتيح التي كانت قد أخذتها من المخبأ بجانب سريرها. حين عاد ومعه المخطوطات، شرحت له:

– بين هذه المخطوطات، نجد لائحة بأراضيّ وقصوري، ولائحة باستثماراتي، وفيها أسماء التجار والحرفيّين الذين استودعتهم مالًا. وبينها أيضًا آخر كشف بهذه الاستثمارات. في ما خصّ الأراضي والقصور، لا يسعنا عمل شيء. فالسلطان الجديد والوصيّ على العرش سيصادرانها. وأن نسلب هذه اللائحة، لن يفيد إلّا بتأخيرهما بعض الشيء، لأنّهما يستطيعان وبكلّ سهولة إعادة تشكيلها. أمّا بشأن استثماراتي فيتابعها رجال موثوقون، وسيصغون إلى تعليماتك حين تمضي لمقابلتهم من قبلي. معظمهم يعرفونك، ولكن إليك الخاتم الذي أوقّع به رسائلي. سيفتح لك كلّ الأبواب ويضمن لك إصغاءهم.

أخذ كافور الخاتم وحمله إلى شفتيه تعبيرًا عن الاحترام، ثمّ دسّه في الصُرّة الجلديّة التي يحملها دائمًا في حزامه، على مقربة من خنجره.

– سأحرص على تنفيذ تعليماتك يا مولاتي، أيًّا تكُن. كلّ مَن يخالفها أو يجرؤ على خيانتك بعد غيابك سيلقاني أمامه ويذوق طعم خنجري.

– إذا كنت قد أحسنتُ اختيار هؤلاء الرجال، فلن تحتاج إلى خنجرك. ولكن مَن يدري؟ فسقوطي وغيابي قد يحفّزان شهيّة البعض. لكنّهم سيدركون أنّ في العالم رجالًا يحرصون على احترام إرادتي وتنفيذها حتّى بعد موتي. هذه المسؤوليّة تقع على عاتقك يا عزيزي كافور، وهي جسيمة. خصوصًا وأنّك ستكون محلّ ملاحقة وستضطرّ إلى العمل سرًّا. أعرف أنّك ونايا الشخصان الوحيدان اللذان أستطيع الاعتماد عليهما. من جهة أخرى، عليك الاتّصال بها حال خروجك من هذه الأسوار. أن أعرف أنّكما هنا، حاضران، هو بمثابة بلسم لقلبي، يريحني، ويطمئنني. هكذا أستطيع أن أواجه أمّ عليّ وثأرها هادئة البال، بعدما نكون قد تدبّرنا كلّ شيء وفقًا لمشيئتي... والآن اجلس أمام لوحة الكتابة هذه. ستجد فوقها ريشة ومحبرة لتدوين تعليماتي.

بدأت شجرة الدرّ بالتحقّق من اللوائح، ومرّت بسرعة على لائحة القصور والأراضي، ووضعتها

جانبًا بعدما قرّرت أن تحرقها. ثمّ عاينت لائحة التجّار والحرفيّين الذين استثمرت لديهم مبالغ مختلفة.

كانت تستعجل أن تنتهي لأنّها أرادت أن يرحل كافور ورجاله بأسرع وقت ممكن. يجب أن يتسنّى لهم الوقت للابتعاد عن القلعة وإيجاد مخبأ لهم قبل طلوع الفجر. رغباتها الأخيرة كلّها كانت رهنًا ببقاء كافور على قيد الحياة.

كانت تُدرك تمامًا كيف تريد أن تهب ثروتها. لقد فكّرت في الأمر خلال سنوات وحدتها، لكنّها لم تكتب شيئًا بعد وكأنّما خوفًا من الفأل. أعطت تعليماتها وبطريقة واضحة ودقيقة لكافور، الجالس أرضًا أمام لوحة الكتابة الموضوعة على طاولة صغيرة واطئة، يغمس ريشته في الحبر الأسود، مدوِّنا تعليمات السلطانة.

– الحرفيّون الذين أئتمنهم على مبالغ من المال هم عمومًا الأفضل في أوساطهم وجمعيّتهم، إن لم يكونوا نخبتها. وغالبًا ما يشكّلون أفضل استثماراتي. كان هدفي أيضًا أن أسمح لهم بممارسة حرفهم بدون الاهتمام بكلفة الموادّ الأوليّة، أو وجوب البحث عن متدرّبين ينقلون إليهم خبرتهم. أبلِغهم رغبتي في استعمال الذهب الذي عهدت به إليهم، لإنشاء وقف يكون ملكًا دائمًا للجمعيّة التي ينتسبون إليها.

ذكرت اسمًا من لائحة التجّار، فسجّله كافور. كان يعرفه جيِّدا.

– هذا التاجر الكبير تقيّ جدًّا، وهو أهل للثقة. لن تجد صعوبة في حمله على تنفيذ تعليماتي. عليه استخدام أموالي ليواصل إرسال المحمل [1] إلى مكّة في زمن الحجّ من كلّ عام. رحلة المحمل إلى مكّة عزيزة على قلبي. وستستمرّ الكسوة المطرّزة بخيوط الذهب في تزيين الكعبة المشرّفة باسمي، شأنها دائمًا. والمحمل، وهو رمز الهودج الفخم الأوّل الذي ركبته في رحلة حجيّ الأولى، سيستمرّ في السير من القاهرة إلى مكّة، بالكسوة المطرّزة ونسختين من القرآن الكريم، مزخرفتين بأبهى ما ابتدعته أيدي أفضل حرفيّي القاهرة.

ثمّ انتقلت إلى اسم آخر من اللائحة:

– هذا صديق، ويحافظ على ولائه للصالحيّين. إستثمرتُ في قوافله التجاريّة مبلغًا كبيرًا. أنقل إليه رغبتي في أن أهب تلك الثروة إلى بيبرس. وهو ملزَم بأن يجد الوسائل ليصل هذا المبلغ إلى وجهته في الكرك، حيث يقطن بيبرس. سيساعد الذهب هذا الأخير في مشروعه لاستعادة درب القاهرة. عامان أو ثلاثة أكثر من كافية ليستولي بطل معركة المنصورة على السلطة. بنعمة الله، ستكون حيًّا لتراه يثأر لي. هذا قدره، أنا واثقة. أعلنت لنا ذلك قارئة كفّ لطالما صدقت: بيبرس سيُعلَن سلطانًا، وبفضله يشعّ نور الإسلام.

ثمّ عادت إلى مراجعة اللائحة وقالت:

– لديك هنا أسماء أربعة تجّار. دوِّنها، وستحرص ونايا على أن يوزّع هؤلاء التجّار لأرامل المدينة وأيتامها، ما يتوجّب عليّ... آه، هذا اسم أخير مهمّ. إنّه متصوّف كبير وسخيّ القلب. أرغب في استخدام الأموال المودعة لديه، في تعزيز التصوّف في مصر. كما أنّ هذا التاجر العجوز هو من أفراد إحدى كبريات الجمعيّات الصوفيّة، الشاذليّة. فليوهَب المال المستثمر لديه إلى الأوقاف التي يستفيد منها متصوّفو الطريقة الشاذليّة!

– لقد دوُّنت ذلك.

– هل تؤمن يا كافور بما يقوله محيي الدين بن عربيّ، أب التصوّف الروحيّ، حول وحدة الوجود؟ وبأنّنا نحن البشر متوحّدون عميقًا بطبيعة الله الألوهيّة من خلال حقيقة الوجود التي تخصّ الله وحده؟

وبأنّنا لسنا سوى انعكاس لنوره على الأرض؟ هذا المساء، أجد الفكرة القائلة إنّ الله وخلقه واحد، جذّابة ومطمئنة. هي تعزّيني في هاجسي الوحيد، وهو أن أنضمّ بعد وقت قصير إلى الصالح أيّوب والخليل، وأتّحد بهما إلى الأبد.

– أنا رجل سلاح يا مولاتي. وهذه الفكرة تعزّيني أيضًا، فالموت لا يخيف لأنّه ليس سوى عبور.

وافقته شجرة الدرّ، ثمّ تابعت إملاء تعليماتها:

– لا أريد أن أترك شيئًا لمعاهد المماليك العسكريّة – ولو كنت أعتبرهم أشدّ محاربي الإسلام بأسًا، والحصن الأقوى ضدّ الأخطار الآتية من الشرق ومن الغرب – ولا حتّى للصالحيّين، فهم باتوا واسعي الثراء، ولم يساندوني حتّى النهاية.

– أفهم ذلك.

– أظنّنا انتهينا من جرد أملاكي الماليّة على هذه الأرض. هل دوّنت بعناية كلّ ما عليك فعله؟

– بالطبع يا مولاتي.

– متى سُجِنتُ في البرج الأحمر، لا تنسَ الجزء الأهمّ من مهمّتك، وهو أن توصل إليّ القارورة التي أتركها في عهدتك. فحين يكتشف قُطُز وأمّ عليّ ما فعلناه، سيريدان تصفيتي، وبأبشع الطرق. لن أعود ذات نفع لهما، ما خلا إرواء ظمأ انتقام أمّ عليّ اللعينة وجنونها.

– لا تقلقي يا مولاتي، سأجد وسيلة لذلك. بحوزتي ما يكفي من الذهب لشراء ضمائر كلّ سكّان هذا الحريم.

– عليك الآن أن تساعدني على فتح باب الممرّ السريّ. بعد ذلك، تنادي الرجال الذين اخترتَهُم للخروج معك، محمّلين بصُرَر الذهب. إتبعني، سأريك باب الممرّ المخفيّ!

– عذرًا يا مولاتي، ولكن قبل فتح باب الممرّ، أريد التقصّي حول آخر الأحداث، وتوجيه التعليمات لرجالي حول مهامّهم المختلفة.

– عليك أيضًا أن تسمّي قائدًا على بقيّة الرجال. ألحّ عليهم: يجب أن يسلموني بدون قتال إلى مماليك المعزّ الذين سيأتون لسوقي إلى السجن. إذا حدث ما ليس في الحسبان، على القائد الذي تعيّنه أن يطيع أوامري طاعة عمياء.

– حسنًا، يا مولاتي.

– كلّما أسرعوا في إعادة ترتيب جناحي وإقفال باب الممرّ، كان ذلك أفضل. أريد أيضًا أن أغتسل وأستريح قليلًا قبل شِدّتي الأخيرة، لأنّ التعب بدأ ينال منّي.

رمقها كافور بنظرة مثقلة بالقهر والحزن. لكنّه مضى إلى الباب بخطوات سريعة وحازمة. وقبل أن يخرج، ذكّرته شجرة الدرّ:

– لا تنسَ تنظيف الجرنين وإعادتهما إلى مكانهما. لن نسهّل على أعدائنا فهم ما جرى في هذا المكان.

أومأ كافور برأسه موافقًا، ثمّ خرج وأوصد الباب خلفه.

سارت شجرة الدرّ نحو الحديقة غير عابئة. راحت تتأمّل السماء السوداء، وتتنشّق الهواء المنعش للمرّة الأخيرة قبل أن تحجب قضبان السجن ناظريها.

كانت تشعر بالارتياح، ولم تكن لا مضطربة ولا مكتئبة لسير الأحداث. ها قد انتهت من تنظيم شؤونها وإنقاذ أكبر عدد ممكن من معاونيها المخلصين. رفعت رأسها نحو النجوم القليلة البرّاقة المتبقّية. فارتسمت ابتسامة على وجهها لأنّها ذكّرتها بالحجارة الكريمة التي سحقتها قبل قليل. لا شيء خالدًا إلّا الله، وكانت تستعجل الاتّحاد به.

عادت إلى جناحها بحثًا عن كافور الذي مكث ينتظرها بفارغ الصبر. لم ترَ أثرًا للجرنين أو ما يدلّ على عمليّة الإتلاف.

– رجالي جاهزون يا مولاتي. عاد ابن مرزوق للاستعلام عن أخبارك، فقال له رجالي إنّك لست أفضل حالًا، وإنّ من مصلحة رجال المعزّ انتظار بزوغ الفجر، والتنصيب الرسميّ للسلطان الجديد، قبل القدوم لسوقك. وإلّا فعليهم المرور فوق جثث رجالي قبل أن يستطيعوا خلع بابك. أظهر ابن مرزوق تعاطفًا. وعد بأن يبذل قصارى جهده لإبعاد رجال المعزّ عن جناحك ولأطول فترة ممكنة.

– حسنًا، لدينا الوقت إذًا. تعال معي، سأطلعك على السرّ الذي لا يعرفه أحد في قلعة صلاح الدين.

سارت شجرة الدرّ إلى غرفة ملابسها، وتبعها كافور حاملًا مصباحين. مضت توًّا إلى خزانة خلف الباب. وضع كافور مصباحًا على طاولة صغيرة في وسط الغرفة بعدما رمى أرضًا قطع القماش الممزّقة التي كانت فوقها. ثمّ وضع المصباح الآخر أرضًا بقرب الخزانة. فتحت شجرة الدرّ باب الخزانة، مديرة ظهرها إلى مشهد التحطيم الذي خلّفاه في الغرفة. سألت كافور أن يسحب رفوفها. ثمّ ابتعدت لتدعه يعمل.

إستغلّت تلك الدقائق القليلة لتمزّق أكثر وأكثر تلك الأقمشة الثمينة بواسطة خنجرها الذهبيّ الذي لازم خصرها. يجب ألّا تنسى إعطاء كافور ذلك الخنجر، ليحمله إلى نايا بمثابة تذكار. واصلت هجومها العنيف على الأقمشة الرقيقة، لكنّها كانت قد فقدت الشعور باللذّة الذي خامرها قبل قليل.

كانت تستعجل إتمام المراحل الأخيرة من خطّتها لتستريح قليلًا. كانت أعصابها مشدودة، وقلبها يخفق بسرعة. بعدما أنهت مهمّتها، لم تعد الأقمشة لتصلح سوى أقمطة للأطفال.

– تمّ الأمر يا مولاتي.

– إبتعد ودعني أمرّ!

دخلت الخزانة، وهي في الواقع كناية عن تجويف في الجدار. بدأت تفتّش برؤوس أصابعها عن مفاصل اللوح الخشبيّ في مؤخرة الخزانة. لم تكن بحاجة إلى ضوء. بل أغمضت عينيها وتركت أصابعها تسرح على اللوح لفتح مدخل الممرّ. كان نجّار عبقريّ قد ابتكر نظامًا يسمح بتثبيت اللوح في مكانه بإحكام، وبرفعه عند الضغط برفق على الموقع المناسب.

– تعال معي يا كافور. يجب أن نكون اثنين لنستطيع حمل اللوح حين أخرجه.

إنحنى كافور ومدّ ذراعيه ليمنع اللوح من السقوط. حين انزاح أخيرًا، أخرجه من التجويف، وأسنده جانبًا إلى الجدار. آنذاك ظهر أمامهما باب موصد. كانت شجرة الدرّ تحمل مفتاحه. أغمدته في القفل وأدارته، لينفتح الباب بسهولة وكأنّما بفعل السحر، على ظلام دامس. ثمّ اندسّ الهواء الرطب والمشحون بالغبار في منخريهما، فشعرا بحاجة شديدة إلى العطاس.

رفع كافور المصباح الذي كان بقربه، لتظهر في ضوئه أولى درجات سلّم يتعرّج نزولًا. لم يكن ممكنًا تقدير عدد تلك الدرجات التي تفضي إلى ممرّ جوفيّ طويل جدًا، يقود بعيدًا عن القلعة.

علا وجه كافور تعبير مضحك. راحت عيناه المشدوهتان تتنقّلان بين وجه السلطانة والممرّ السريّ.

إستطاعت شجرة الدرّ أن تقرأ فيه ألف سؤال وألف فكرة وألف أمل. إختارت عدم الردّ، فقد انقضى وقت الشكوك والشروح. لم تكن لديها أيّة رغبة في دخول الفجوة السوداء المفتوحة أمامها، برغم علمها بأنّها الطريق الأضمن إلى الحرّية. ما كانت لتدع تلك الهوّة تبتلعها وترمي بها على طريق مزروع بالخيانات والذلّ. لقد توقّفت دربها هنا، في هذه القلعة، حيث عرفت الحبّ والمجد.

برغم ضعف الضوء، استطاع كافور أن يميّز ملامح الحزم لدى الملكة، فظهرت في عينيه نظرة استسلام وخضوع.

– كم صُرّة من الذهب نعطي كلّ خصيّ؟

– أمر بسيط، بقدر ما يستطيع حمله. الطريق طويل والصندوق ثقيل. سيحمل أربعة منهم الصندوق مع ما يبقى بداخله. وبعدما تخرجون، تسترجع صُرر الذهب وتعيدها إلى الصندوق. كما قلت لك، اترك لكلّ من رجالك صرّتين، واحدة له، والأخرى لأحد رفاقه الباقين بهدف حراستي. يمكنك إخفاء الصندوق الكبير في النفق، فهو المكان الأكثر أمانًا. باب المخرج يُفتح ويُغلق بمفتاح سأعطيك إيّاه. الباب مخفيّ جيّدًا خلف شجيرات كثيفة، ومن الصعب العثور عليه حتّى لمن يعلم بوجوده. لطالما أحببت التفكير في أنّ جنًّا عطوفين يحرسونه، ولا يكشفونه إلّا لبعض المختارين الذين يستحقّون ذلك... والآن، علينا العودة إلى الغرفة، ولكن قبل ذلك، سأعطيك مفتاح المخرج. هو هنا حتّى.

دخلت شجرة الدرّ الممرّ ونزلت ثلاث درجات. ثمّ استدارت وانحنت باحثة عن المفتاح الذي كانت قد تركته في الماضي في فتحة بمحاذاة الدرجة الأولى، وذلك تحسُّبا لاحتمال هروبها من القلعة. أخذت المفتاح البارد والمغطّى بالغبار، ومسحته بملابسها، ثمّ صعدت وأعطته لكافور الذي وضعه في صُرّته.

قبل الخروج من الغرفة، لمّت شجرة الدرّ إحدى قطع الأقمشة التي مزّقتها. لدى عودتها إلى جناحها اتّجهت توًّا إلى السرير، وأخذت القارورة الثمينة ولفّتها بالقماش بعناية. وبعدما تأكّدت من أنّ القارورة باتت بمنأى عن الصدمات المحتملة، ناولتها لكافور، الذي وضعها تحت صديريّته المصنوعة من الجلد القاسي، بملاصقة قلبه.

– إحمِها جيّدًا يا كافور. لقد ائتمنتك حتّى الآن على حياتي. والآن أئتمنك على مماتي، وهو لا يقلّ أهمية بالنسبة إليّ. يجب أن أبقى سيّدة نهايتي، مثلما كنت سيّدة حياتي. كان بوسعي استخدام هذه القارورة الآن لأنتهي بهدوء في سريري. لكنّني أريد أن أمنحك الوقت لتخرج من هنا وتجد نايا وتتمّ المهامّ التي أوكلتك بها.

– لا تقلقي يا شجرة الدرّ. ستصلك قارورتك حالما تصبحين في البرج الأحمر، ولو كان عليّ أن أتسلّق بنفسي أسوار القلعة لأحملها إليك. سأطيع أوامرك حرفيًّا، وأحرص على أن يطيع تعليماتك كلّ الذين سمّيتهم لي، ولو كان عليّ استخدام القوّة.

سجد كافور عند قدمَي ملكته، وغطّاهما بالقبلات والدموع. إنحنت شجرة الدرّ لترجو منه النهوض قبل أن تفقد شجاعتها وتنهار باكية بدورها أمام وداع خادمها المخلص. لم يكن بوسعها أن تقول له شيئًا، فالغصّة خنقتها، وكادت الدموع تسيل من عينيها.

فهم كافور حالة شجرة الدرّ. نهض، لكنّه لبث جامدًا في مكانه وهو ينظر أرضًا محاولًا استعادة رباطة جأشه. بعد ثوانٍ معدودة خالها دهرًا، اتّجه إلى الباب لينادي رجاله.

---

[1] هودج السلطانة.

عبّاس

عاد كافور وأبلغ شجرة الدرّ بأنّه عيّن، وكما أوصته، أحد رجاله قائدًا للحرّاس الذين سيبقون حول جناحها. واستأذنها بإدخاله لتقديمه إليها.

كان عبّاس. وقد صادفته السلطانة عدّة مرّات عند بابها. نحيل الوجه وودوده، مرهف الملامح، كان يشي بالولاء. كان يوحي أيضًا بالصلابة والشجاعة. لكنّ شجرة الدرّ استشعرت حزنًا يغمر كيانه ويرافق كلًّا من حركاته.

عاجل عبّاس بالركوع أمام السلطانة، خافض العينين، ويده على قلبه. وافقت شجرة الدرّ على اختيار كافور.

– إنهض يا عبّاس الشجاع. هل فهمت كلّ ما شرحه لك كافور؟

– نعم يا مولاتي. أنا طوع أوامرك، ومستعدّ للموت في سبيل خدمتك.

– فلتعلم بأنّني لم أعد أريد سفك أيّ دماء عند بابي. ستبقى مع بعض رجالك لتضليل مماليك المعزّ، وتأخيرهم ما أمكن قبل أن يفهموا أنّ كافور رحل مع نصف رجاله. عليك عدم الاشتباك معهم حين يأتون لسوقي. إفعل كلّ ما تستطيع للحفاظ على حياة رجالك، تلك هي رغبتي. سأطلب من الصالحيّين حقن دمائكم.

– أنتِ في غاية الطيبة يا مولاتي.

– ستكافَأون كلّكم على خدمتكم إيّاي. وسيهتمّ كافور بأن يوصل إلى كلّ من عائلاتكم صرّة من الذهب.

سجد عبّاس وقبّل قدمَي الملكة. فما كان من كافور، الذي أدرك أنّه يجب إعفاؤها من أيّ انفعال عاطفيّ غير مُجدٍ في تلك الليلة الطويلة، إلّا أن أمره حالًا بالنهوض. إمتثل عبّاس للأمر وخرج من الغرفة وهو يخفي دموعه.

– سأبدأ بإدخال الرجال الذين اخترتهم لمرافقتي.

– أنا جاهزة. أدخِل أوّلًا أربعة من رجالك ليساعدونا على نقل الصندوق إلى جانب باب الممرّ. بعد ذلك، سأوزّع الصُرَر على الرجال، فيدخلون في الممرّ واحدًا تلو الآخر، وكلّ منهم يحمل مشعلًا. ثمّ يتجمّعون في أسفل الدرج بانتظار وصولكَ. سيساعدك آخر الباقين على حمل الصندوق. سأغلق الباب خلفكم وأعيد اللوح والرفوف إلى مكانها.

– دعي عبّاس يساعدك. لن تستطيعي أن تعيدي اللوح وحدكِ، فهو ثقيل جدًّا.

– سبق أن فعلت ذلك بمساعدة نايا، وأظنني أستطيع القيام بذلك وحدي. لا أريد أن يعرف عبّاس المزيد حول مدخل الممرّ السرّي. فهو بات يعلم بوجوده، وقد يستجوبه قُطُز.

– لا تقلقي لأمر عبّاس. لن يتكلّم ولو أحرقوا يديه وقدميه وفقأوا عينيه. إنّه يحظى بثقتي. لم أختره ليكون نائبي في القيادة من باب الصدفة. لقد تسنّت لي فرصة اختباره مرّات كثيرة، ولم يخذلني قطّ. كما أنّه مدين لي بحياته، فقد عثرتُ عليه وهو لا يزال عبدًا صغيرًا، يتعرّض لإساءات سيّده الكريه. أنقذتُه في ظروف لم يعد لديّ الوقت لأخبرك بها. واعرفي أنّ صدمته كانت كبيرة لدرجة أنّه قرّر بمبادرته الخاصّة أن يصبح خصيًّا. أراد الانضمام إلى فرقة الخصيان ليكون معي، مع منقذه. إنّه مدين

لي بكرامته وبحياته. وقد أقسم لي أنّ حياته ستبقى مُلكًا لي إلى الأبد. ولم أنسَ تذكيره منذ قليل أنّ هذا اليوم قد حان، وهو مستعدّ لسداد دينه. لم يرمش له جفن حين أقسم لي بأنّ حياته لم تعد ملكًا بعد الآن لسواكِ، يا مولاتنا. فاطمئنّي ودعيه يساعدك على إغلاق مدخل الممرّ ويعيد كلّ شيء إلى مكانه. وسيبقى هذا الممرّ سريًّا.

– إذا كنت تثق بعبّاس بهذا القدر، فأنا موافقة. والآن، استدعِ رجالك. لم يبقَ لنا سوى ساعتين حتّى يصدح أذان صلاة الفجر.

***

برغم عضلاتهم المفتولة، وجد الخصيان الأربعة صعوبة في نقل الصندوق المثقل بصُرَر الذهب، حتّى مدخل الممرّ. واضطرّ كافور إلى أن ينادي رجلًا خامسًا، ومع ذلك لم يصلوا إلّا بمشقّة. فقرّرت شجرة الدرّ أن تعطي كلّ خصيّ أقصى ما يستطيع وضعه في جيوبه، لئلّا يعيق الصندوق سرعتهم أثناء هروبهم.

رأت نظرات الدهشة على وجوه الرجال أمام باب الحريّة الذي فُتح أمامهم. لكنّ أحدًا لم يعلّق بكلمة واحدة، بل وضعوا الصندوق الثقيل أرضًا ومكثوا ينتظرون. وزّعت عليهم شجرة الدرّ الصُرَر، فيما أعطاهم كافور مصابيح صغيرة، طالبًا منهم استخدامها لإضاءة المشاعل الموجودة في الممرّ.

بدأ الجنود الخمسة الأوائل بنزول الدرجات، وذهب كافور لينادي مجموعة صغيرة أخرى من الرجال. راح أولئك الرجال ببشراتهم البيضاء أو السوداء، يسيرون بمهابة واحترام أمام سلطانتهم، التي كانت تحمّلهم صُرَر الذهب، ثمّ يدخلون الممرّ السريّ ليتواروا بسرعة على درب الحريّة.

كان محتوى الصندوق يتضاءل بسرعة. باتت ثروة السلطانة بمنأى نوعًا ما عن متناول أعدائها. هذا الأمر جعلها تشعر بالارتياح، فقد تمكّنت من تنفيذ خطّتها برغم الظروف اليئسة.

– هؤلاء هم آخر الرجال يا مولاتي. أتى عبّاس أيضًا ليساعدك على إعادة كلّ شيء إلى مكانه.

– قل لهم أن يحملوا الصندوق معهم في الممرّ. أظنّهم يستطيعون حمله بسهولة الآن.

أمر كافور رجاله بحمل الصندوق الذي أُفرغ من أكثر من نصف محتواه من الذهب. رفعه أربعة خصيان بدون مشقّة، واستطاعوا نزول الدرجات بسهولة.

***

وجدت شجرة الدرّ بعض العزاء بوجود عبّاس، في تلك اللحظات المؤلمة حيث كان كافور على وشك أن يتركها. كانت لحظات مؤلمة على الاثنين، وخصوصًا بعد هذه الليلة الاستثنائيّة. حتّى اغتيال أيبك لم يقرّب واحدهما من الآخر مثلما فعلت أحاديثهما الصريحة في خلال الساعات الطويلة التي انقضت. بمساعدتها في القضاء على أيبك، تصرّف كافور كخادم مخلص. مَن يستعدّ لاجتياز باب الممرّ السريّ كان صديقًا ورجل ثقة.

خامرها شعور مألوف، شبيه بالذي غمرها عند موت الصالح أيّوب وبعد فرار بيبرس. لكن، لم يسبق لها أن شعرت به شديدًا ومباغتًا لهذه الدرجة. لم يسبق قطّ لرحيل رجل كانت تعتمد عليه أن جرى بمثل هذه الظروف الصعبة.

حبست شجرة الدرّ دموعها لئلّا تؤثّر في معنويات عبّاس. تمكّنت وبكثير من الألم من النظر في

عينَي كافور، اللتين راحتا ترمقانها بكثير من الحنان. كان كلاهما قد بادل الآخر عبارات الوداع مرّات عدّة في خلال تلك الليلة. كانت تعرف، وهو أيضًا، أنّه لم يبقَ لهما ما يقولانه.

– إذهب يا كافور، رجالك ينتظرونك. حفظكم الله، وسدّد خطى كلٍّ منكم، وأعمى بصر أعدائكم لئلّا يستطيعوا العثور عليكم واعتراض طريقكم.

– أستودعك بين يدَي الله وفي حِفظه يا شجرة الدرّ، فهو خير حافظ. كلّي ثقة بأنّه سيعتني بكِ.

– أتمنّى لك طول العمر يا كافور. لا تنسني أبدًا.

دخل كافور الممرّ ثمّ أغلق الباب خلفه بالمفتاح الذي تركته له شجرة الدرّ. أمّا ممّن بقوا من رجاله، فإمّا أن يخرجوا عبر بوّابة القلعة الرئيسة، أو لا يخرجون من جديد، أبدًا.

***

لبثت شجرة الدرّ جامدة في مكانها طوال دقيقة بدت دهرًا، وهي تعيش من جديد لحظات الوداع الأخيرة مع كافور، ثمّ التفتت إلى عبّاس الذي كان ينتظر أوامرها.

– خذ هذا اللوح المسنود إلى الجدار، الغاية منه إخفاء باب الدخول إلى النفق. أعِده إلى مكانه، ومن ثمّ الرفوف، لإخفاء كلّ شيء.

نفّذ عبّاس أوامرها بدقّة وعلى أكمل وجه. سمعت صوت المفاصل تعود إلى مكانها الصحيح. تأكّدت من تثبيت اللوح في مكانه، قبل أن تترك عبّاس يعيد الرفوف إلى مكانها. ثمّ وضعت فوقها بعضًا من الأقمشة الممزّقة تمويهًا، لتوهم بأنّها ليست سوى خزانة من بين خزائن أخرى في هذا الجناح المليء بالزجاجيّات، والتحف البرونزيّة، والبياضات والأقمشة الجميلة. ولدى خروجها من حجرة ملابسها، قالت لعبّاس:

– أعرف أنّ كافور شرح لك الأمر جيِّدا: يجب ألّا يعلم أحد بمكان هذا الممرّ السريّ.

– إطمئنّي يا مولاتي، لن يعرف مماليك المعزّ منّي شيئًا. حتّى لو أذاقوني أفظع العذابات، لن أعرّض سلامتك وسلامة كافور للخطر. أنا مستعدّ لأفعل كلّ شيء في سبيل حمايتك، إذا أذنتِ لي.

– ثقتي بك كثقتي بكافور، فأنت حصني الأخير. لكنّني اتّخذت قراري، فبعد قليل، سأسلّم نفسي إلى رجال المعزّ بدون مقاومة. شرطي الوحيد سيكون حقن دمائك ودماء رجالك ممّن بقوا عند بابي لحراستي. إفهمني جيِّدا، لم أعد أريد رؤية الدماء تُسفك... والآن، يجب أن نجد رواية قابلة للتصديق وتبرّر غياب كافور. سنقول لهم إنّني أخرجته مع نفر من رجاله عبر الباب الصغير المخبّأ في آخر حديقتي، خلف شجيرات الورد، والذي تخفيه النباتات المتعرّشة. غالبًا ما كنت أستخدم ذلك الباب للهروب من القلعة مع نايا بدون مواكبة، لزيارة المدينة. هو يؤدّي إلى مكان غير بعيد من باب القرافة، للخروج من جهة المدافن. قليلون فقط يعرفون بوجوده. منهم ابن مرزوق لأنّني أدخلته أمس عبر ذلك الباب، طلبًا لمشورته. ويمكنه تأكيد هذه الرواية. بذلك، نقدّم لرجال المعزّ دليلًا مضلِّلًا، يقودهم إلى نقيض المكان الذي سيخرج منه كافور ورفاقك. إبن مرزوق رجل حكيم وصادق، فمن الواضح أنّه لم يشِ بمكان ذلك الباب لرجال المعزّ. وإلّا لسمعنا قرقعة أسلحة الذين كُلّفوا حراسته. تحقّقت من الأمر حين خرجتُ إلى الحديقة. عدد كبير من الرجال يسيرون في دوريّات على طول الأسوار، بدون أن يولوا هذا الموقع اهتمامًا خاصًّا.

نظرت شجرة الدرّ إلى السماء من خلال الباب المفتوح على الحديقة، فرأت الظلام يضمحلّ، ونور

النجوم يضعف. كان الفجر يستعدّ للبزوغ. شعرت بنفسها خالية من الانفعالات ولكن مرتاحة البال. فالتفتت إلى عبّاس بابتسامة أرادتها مُطَمئنة، لكنّها أدركت أنّها تشي بالكآبة. كان حدسها ينبئها بأنّ هذا الشابّ الشجاع لن يخرج سالمًا من الأحداث التي ستقع، وهو ما أضفى عليها حزنًا شديدًا.

– شكرًا يا عبّاس. يمكنك العودة إلى مكانك الآن. سأحاول أن أستريح قليلًا، قبل المحنة النهائيّة.

– سمعًا وطاعة يا مولاتي.

سار عبّاس نحو الباب، ثم توّقف، والتفت إلى شجرة الدرّ وقال لها بابتسامة عريضة، لا تقلّ كآبة عن ابتسامتها، وإنّما بنباهة مذهلة:

– لا تحزني عليّ يا مولاتي. أنا أؤمن بالله منذ أن أنقذني كافور من بين يدي سيّدي السابق، الذي كان الشرّ متجسَّدا. وقد سلّمت أمري تمامًا لمشيئة الخالق. في خدمتك، عرفت السعادة ورفاقًا أعانوني على تحمّل عذابات حياتي. غير أنّني لم أُشف من جراحي قطّ. وأؤمن بأنّ نهاية الحياة على هذه الأرض ليست سوى بداية حياة أفضل في السماء.

***

مرّت بشجرة الدرّ لحظة رعب حين توارت كتفاه العريضتان، وأُغلق الباب خلفه بهدوء. للمرّة الأولى منذ اغتيال أيبك، أحسّت بأنّها وحيدة ومتروكة، ما شكّل الضربة القاضية بالنسبة إليها. إنثنى جسدها وتكوّم، وضاقت أنفاسها. هرعت نحو باب الحديقة لترتمي في أحضان الهواء الطلق، وتعبّ منه جرعات كبيرة، كغريق يقاوم الاختناق. حين زالت عنها نوبتها، وجدت شجرة الدرّ نفسها راكعة، في وضعيّة صلاة. رفعت رأسها ثمّ نهضت وحدّقت في السماء والقمر والنجوم. ثمّ خفضت بصرها نحو الأرض مستسلمة لقدرها.

نهضت من مكانها وعادت للدخول لتغتسل وتسوّي هندامها. خلعت عنها الملابس الفخمة التي ساعدتها نايا على ارتدائها، ولبست سروالًا وقميصًا طويلًا مصنوعين من الكتّان الأبيض السميك، يدلّان إلى البساطة والحشمة. ثمّ مشّطت شعرها وأسدلته على كتفيها، ما خلا خصلات قليلة ثبّتتها بالدبّوس المشبع بالسُمّ. شربت قليلًا من الماء واضطجعت على سريرها. لم يعد لديها ما تفعله سوى أن تنتظر وتحاول أخذ قسط من الراحة. لقد كانت منهكة بفعل ما عانته خلال الساعات الأخيرة والطويلة. برغم القلق والخوف، سرعان ما غطّت في نوم عميق.

إستيقظت مع أوّل «الله أكبر» يهتف به المؤّذن داعيًا المؤمنين إلى صلاة الفجر. شعرت بأنّها بخير، متيقّظة، ومُرتاحة. مكثت في سريرها تصغي إلى هذا النداء إلى الصلاة. كان لمؤذّن مسجد القلعة صوت جميل جدًّا، خفيض وواثق، يسكّن الروح ويحمل إليها العزاء إذ يؤكّد على وجود الله ورحمته.

كان الله كلّيّ الحضور في حياة السلطانة. نهضت من سريرها بعزم خالت نفسها قد فقدته. تلت الشهادتين مثلما تفعل كلّ صباح، ومضت إلى إبريق الماء، لتشرب منه جرعة صغيرة، ثمّ أتمّت وضوءها برفق وعناية. بعد ذلك، يمّمت وجهها شطر القبلة وسجدت مؤدّية صلاة الصباح.

نجحت في إفراغ ذهنها من كلّ الأفكار الأرضيّة، وركّزت على تلك اللحظة الفريدة في التواصل مع الله الواحد الأحد، والكلّيّ القدرة. وجدت نفسها محمولة بتقوى حماسيّة وقريبة من خالقها، وخالجتها مشاعر عميقة لم يسبق لها أن خبرتها قطّ.

كانت شجرة الدرّ قد حفظت القرآن عن ظهر قلب. في صلاتها، خطرت ببالها عفوًا سورة آل عمران. تلت تلك السورة التي تتحدّث عن الصبر والاحتمال، والفضائل التي ترافق كلّ مسلم وتساعده

على أن يتحمّل بحكمة ورزانة الشرّ الذي يصيبه. (يا أيّها الّذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتّقوا اللَّه لعلّكم تُفلِحون). شعرت بطمأنينة البال بعدما انتهت من صلاتها.

جلست بقرب صينية البلح. لم تعد معدتها منقبضة، بل راحت تطالبها بالطعام. أكلت بشهيّة، وأسفت حتّى لعدم وجود قطعة من الخبز الطازج وجبن الغنم لتأكلهما مع البلح. لا شكّ بأنّ كلّ العبيد والخدم محتجزون في مهاجعهم، ويحظر عليهم الخروج قبل تنصيب السلطان الجديد. لذا اكتفت بالتلذّذ بالبلح في انتظار ابن مرزوق. فكّرت في أنّه لن يلبث أن يصل، مكلَّفًا بمفاوضتها حول مصيرها، مقابل كنزها. إلّا إذا قرّرت أمّ عليّ الشرّيرة – بعدما أفقدها نفوذها الجديد صوابها – أن تخلع الباب بنفسها لتباشر فورًا بالثأر الذي تخيّله عقلها المريض. أضحكتها صورة أمّ عليّ إذ تخيّلتها ساحرة شنيعة تستشيط غضبًا وجنونًا. فقرّرت الانتظار في حكمة وهدوء.

إبن مرزوق

أعلن عبّاس لشجرة الدرّ عن قدوم ابن مرزوق، فسألته إدخال الرجل العجوز في الحال.

– السلام عليك يا شجرة الدرّ.

– وعليك السلام يا ابن مرزوق. كنت أنتظرك، أنا جاهزة.

لوهلة، بدا الرجل حائرًا أمام طمأنينة السلطانة المحكوم عليها. كان ابن مرزوق عجوزًا حكيمًا، ويعرف السلطانة منذ سنوات عدّة. لاحت في عينيه المتعبتين التماعة إعجاب حين أدرك أنّها بكامل قواها العقليّة والجسديّة.

– يسرّني كثيرًا أن أراك بمثل هذه العافية يا شجرة الدرّ. خلال الفوضى التي عمّت الليلة الماضية، خشيتُ على صحّتك الجسديّة والعقليّة، كما تسرّبت أخبار بأنّك سقيمة.

– في الواقع هذا صحيح، لكنّ الأمر قد مرّ.

– ليس بشرًا مَن لا تزعزعه أحداث كتلك التي مرّت في خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية. لكن، كان عليّ أن أحزر بأنّ شجرة الدرّ ستستعيد أفضل وأسرع من أيّ شخص آخر، رباطة جأشها. إنّما بالمقابل، يفاجئني ألّا أجد كافور عند الباب.

– نعم، وأنا أيضًا. غيابه الذي مضى عليه عدّة ساعات يقلقني. ما كنت لأظنّه سيتخلّى عنّي أبدًا.

كان لابن مرزوق ما يكفي من اللياقة لكي لا يعلّق أكثر على غياب كافور.

– أخشى أنّني لا أحمل إليك سوى الأخبار السيّئة. تمّ الإعلان في كلّ مساجد القاهرة عن تنصيب نور الدين عليّ سلطانًا على مصر. وسار المنادون إلى أقاصي الإمبراطوريّة لإذاعة الخبر.

– يا للفتى المسكين. سأكون كاذبة لو قلتُ إنّني أتمنّى له الحظّ السعيد. أتمنّى له فقط ألّا يخسر رأسه سريعًا.

– أنت عادلة ورؤوفة، وملكة حقيقيّة، ولستِ كحديثي النعمة أولئك. أنا أيضًا أشعر بأنّ هذا الغلام لن يطول بقاؤه على العرش. لطالما كنتِ محلّلة ومخطّطة استراتيجيّة بارعة، إلّا حين أصغيتِ وللأسف إلى قلبك وكبريائك، على حساب عقلك، وتخلّصت من المعزّ قبل أن تحتاطي للأمر.

– تعرف جيِّدا أنّنا لا نستطيع سلوك درب الحذر في السياسة على الدوام. لقد تسنّت لي فرصة نادرة لأتصرّف. وأنا مقتنعة بأنّ مشيئة الله سبحانه وتعالى هي التي قادت يدي. قرُّرت قبول مشيئته الإلهيّة وأنا الآن أمضي إلى حيث سأعرف السلام أخيرًا، إلى جانب الصالح، وابني الحبيب، الخليل.

– أتمنّى لك ذلك يا شجرة الدرّ. أنت تستحقّين الجنّة كلّ الاستحقاق. يمكنني أن أعترف لك بالأمر الآن: لطالما أسفتُ على أنّ الخليفة لم يثبّتك في منصب السلطانة. وأعتقد حقًّا أنّك من أفضل الملوك الذين عرفتهم مصر.

رأت شجرة الدرّ ما خالتها دموعًا تلتمع في عينَي ابن مرزوق. بدا أنّ الحنين طغى عليه، وتأثّر بما خبّأه القدر لأرملة الصالح. إلّا أنّها لم تكن تمتلك القوّة لتعزيته.

– شكرًا لك يا صديقي، تقديرك لي يثلج قلبي. ولكن فلنختصر هذه الأوقات الصعبة، وقل لي كلّ شيء: بمَ يطالبونني، وماذا يريدون منّي وماذا يريدون أن يفعلوا بي؟

بدأ الدمع يسيل من عينَي العجوز الحكيم، فناولته شجرة الدرّ منديلًا حريريًّا، وتابعت:

– يجب أن تستعيد رباطة جأشك يا ابن مرزوق. أنت الوحيد الذي يمكنني الوثوق به ممّن لهم صلات بأعدائي. ما زال بوسعك المساهمة في الحدّ من قسوة المصير الذي ينتظرني.

– أنت على حقّ يا شجرة الدرّ، آسف. ما بدر منّي كان لحظة ضعف لن تتكرّر. الحقيقة أنّني تركت السلطانة الجديدة في مكان غير بعيد من هنا، في أروقة الحريم. كدت أستخدم القوّة لمنعها من أن تسبقني إلى هنا. إنّها تطالب بالجناح الملكيّ.

– هي تريد طردي وإذلالي.

– لسوء الحظّ، بات ذلك في مقدورها الآن. قلت لها إنّني سأفاوضك على تسليم ممتلكاتك، وخصوصًا جواهرك وذهبك.

– حقًّا؟ هل يسبق طمعها رغبتها في إذلالي؟ تلك المرأة لا تنفّك تفاجئني.

– تدركين بلا شكّ أنّها ليست الطامعة الوحيدة بكنزك. ما تركك قُطُز ومماليك المعزّ وشأنك حتّى الآن، وما امتنعوا عن تسليمك إلى أمّ عليّ، إلّا لوضع يدهم على ذلك الكنز. تلك اللعينة لم يغمض لها جفن، بل قضت الليل بكامله في الأروقة تنتظر اللحظة المناسبة.

– لينتظروا ما شاؤوا. لن يحصلوا على دينار واحد.

– شجرة الدرّ، أنت لا تملكين الخيار.

– لقد حسمت خياري. أنا جاهزة لمجابهة قُطُز وأمّ عليّ. وإذا أردتَ فعلًا مساعدتي، فعندي لك مهمّة واحدة، وهو أن تحول دون لقائي بتلك المرأة القمئة. أطِل المفاوضات مع قُطُز ما أمكنك ذلك. قل لهم إنّني أرفض التنازل عن الكنز، وانصحهم بحبسي في البرج الأحمر، للضغط عليّ. لا أرى وسيلة لحمايتي من تلك الساحرة الشرّيرة سوى جدران السجن.

– أرى أنّك اتّخذت قرارك، ولا يمكنني إقناعك بالتنازل عن كنزك مقابل الحفاظ على حياتك، قال لها ابن مرزوق مستسلمًا لمشيئتها. سأبلغ قُطُز بالأمر في الحال، فهو الحاكم المسؤول عن القلعة، وزعيم مماليك المعزّ. يمكنه تحقيق أمنيتك، لكنّ ذلك سيكون لفترة قصيرة، برأيي. لن يكون بوسعه أن يقاوم طويلًا مطالب أمّ عليّ.

– هذا كلّ ما أحتاج إليه، إضافة إلى حياة الخصيان الذين بقوا في خدمتي. لم أعد أريد أن تُسفك الدماء بسببي. يجب أن أنال من قُطُز وعدًا بالحفاظ على حياتهم. سأتظاهر بأنّني أكشف إليه معلومات متعلّقة بذهبي، لمحاولة إنقاذ هؤلاء الرجال. وليعلم أنّني أعطيت أوامري بألّا يقاوموا رجال المعزّ حين يأتون لأخذي.

– سأعود حالًا، لكنّني قلق على سلامتك.

– سيحميني عبّاس من أيّ محاولة تقوم بها أمّ عليّ أو رجال المعزّ لاستخدام القوّة. حفظك الله وأعانك على إتمام مهمّتك.

خرج ابن مرزوق، من دون أن ينسى الانحناء احترامًا، برغم أنّه لم يعد ملزمًا بذلك. لكنّ ذلك أسعد السلطانة المُدانة، وطمأنها إلى نوايا ابن مرزوق. ثمّ تمدّدت لتستريح وتنتظر.

***

لم يدم انتظارها طويلًا، فما لبث ابن مرزوق أن عاد بسرعة لإبلاغها بأنّ قُطَز يرغب بسجنها في البرج الأحمر حالًا، ريثما تقتنع بالتنازل عن كنزها. كما أكّد لها ابن مرزوق أنّ قُطُز استشاط غضبًا حين علم بأنّها ترفض الإفصاح عن مخبأ المال. لكنّ العجوز استطاع إقناعه بإمهالها يومين وليلتين في السجن، حتّى تقرّر السلطانة السابقة تسليم ثروتها. وفي حال لم تفعل، أعلن قُطُز أنّه سيهدم كلّ جدران الجناح، للعثور عليه. أمّا حياة السلطانة فسيُترك لأمّ عليّ الحريّة الكاملة في أن تقرّر مصيرها.

برغم جهودها للمحافظة على قوّتها ووقارها أمام ابن مرزوق، كانت شجرة الدرّ ترتجف. فاجأها الرجل برغبته في الركوع أمامها ليأخذ يدها ويلثمها. حتّى أنّها رغبت في الابتسام، وهي ترى هذا الشيخ الطاعن في السنّ يحاول الركوع جاهدًا. ولكن، بدل الابتسامة، فاضت عيناها بالدموع.

كانت شجرة الدرّ تساعد ابن مرزوق على النهوض حين قُرع بابها، ليدخل عبّاس ويخبرهما بأنّ الجنود وصلوا، بعدما أرسلهم الوصيّ على العرش، لسوق أرملة أيبك إلى البرج الأحمر.

– ما هي أوامرك يا شجرة الدرّ؟

– سأتبعهم في الحال. أريد منكم ألّا تبدوا أيّة مقاومة أمام رجال المعزّ.

لم يكن عبّاس ليتقبّل فكرة ترك السلطانة ترحل بدون مقاومة، فكرّرت تقول:

– هل فهمتَني يا عبّاس؟ قل لي إنّك فهمت. إنّ رؤية رأسك ورؤوس رفاقك معروضة على أسنّة الرماح فوق أسوار القلعة، ستضنيني وتضفي مزيدًا من السواد على نهايتي.

– سمعًا وطاعة يا شجرة الدرّ. حفظك الله.

– حفظنا الله كلّنا! أخرج وقل لرجال المعزّ إنّني جاهزة.

سار عبّاس نحو الباب بخطى متردّدة. وقف ابن مرزوق ينظر أرضًا، حزينًا مهمومًا. شعرت شجرة الدرّ بالهلع يتملّكها، فساعة الحقيقة قد حانت. لكنّها بذلت قصارى جهدها لاحتواء خوفها، ولم ترد إظهار ضعفها أمام أعدائها اللدودين.

إبتهلت إلى الله الرحمن الرحيم. ساعدها إيمانها على تمالك نفسها. فقد أدركت كم سخيف وعبثيّ أن تخشى إتمام المصير. لقد استفادت كلّ الاستفادة من حسنات القدر، وعليها ألّا تُظهر الجحود أمام ما كُتِب لها. فهي مهما فعلت، لن تستطيع تغيير مشيئة القدر، فحريّ بها أن تبرهن عن شجاعة ووقار. هذا كلّ ما بقي لها، ولن يستطيع أحد أن يسلبها ذلك.

سارت مرفوعة الرأس نحو الباب وهي تردّد في سرّها: «القوّة والتصميم يا شجرة الدرّ. القوّة والتصميم. بلغتِ نهاية محنك وآلامك. إستعدّي لملاقاة خالقك، وتبرير كلّ أفعالك على هذه الأرض، وارجي أن يرحمك ويفتح لك أبواب جنّته. إنسي هذه الحياة وكلّ مَن يتمنّون لك الشرّ، لن تلبثي أن تصبحي بمنأى عن أهل السوء».

كريمة

حين وصلت إلى الباب، استوقفها ابن مرزوق.

– شجرة الدرّ، هناك أمر لم أقله لك. حين أوعز قُطُز إلى أمّ عليّ بالبقاء بعيدة عنك مدّة يومين، طالبت هذه الأخيرة بتفتيشك قبل أن تغادري جناحك لئلّا تهرّبي أيّ شيء ذي قيمة أو أيّ وثيقة مهمّة في ملابسك. أنا في غاية الأسف. برغم اعتراضي واستنكاري، لم أستطع تجنيبك هذا الحرج.

– لا تقلق يا صديقي، كنت أتوقّع ذلك. وقد ارتديت هذه الملابس البسيطة لأجعل الأمر سهلًا بالنسبة إليّ وإلى مَن ستفتّشني. لستُ أخفي شيئًا.

– لكنّني استطعت المطالبة بألّا تكون أمّ عليّ موجودة. إحدى نساء حاشيتها هي التي ستفتّشك.

– أشكر لك هذا الاهتمام. أدخِل تلك المرأة ولننتهِ من هذا الإذلال.

لم تفاجأ شجرة الدرّ برؤية كريمة، خادمة أمّ عليّ. كانت السلطانة الأمّ في طريقها إلى أن تصبح سيّدة الحريم، وسوف تؤسّس حاشيتها من نساء يُدِنّ لها بالولاء. لكنّها آنذاك لم تستطع الاعتماد سوى على تلك الخادمة الصغيرة.

تقدّمت كريمة بخطوات خجولة، فلا شكّ بأنّ بذخ ذلك المكان أثار فيها الرهبة. لكنّ نظرتها كانت عدائيّة، وتعكس شعور الكراهية الذي يملأ صدر سيّدتها، يشوبها بريق خوف بحضرة السلطانة السابقة.

كانت شجرة الدرّ قد وقفت مسبقًا، وبدون أن تنبس ببنت شفة، مدّت ذراعيها على هيئة صليب، داعيةً كريمة إلى إتمام مهمّتها بسرعة. فتّشتها كريمة بخوف، وكأنّها تخشى ملامستها. لم تجد في جيوبها شيئًا كما لاحظت أنّها لا تحمل أيّ كيس أو صرّة. لمست شعرها قبل أن تسحب يديها بسرعة.

حين انتهت، تراجعت ومكثت تنتظر. ففهمت السلطانة المدانة بأنّ أمّ عليّ أوعزت إلى خادمتها بألّا تترك شجرة الدرّ بعيدة عن أنظارها أبدًا، بعد تفتيشها.

المسيرة الأخيرة

سارت المرأتان بدون تأخير نحو الباب الذي فتحته شجرة الدرّ، لترى نفسها أمام عبّاس وابن مرزوق اللذين كانا بانتظارها. إبتعدا للسماح لها بالخروج. شكّل الخصيان الذين بقوا هناك صفّين على طول جدارَي الرواق. ثمّ رفعوا بكِبرٍ رماحهم ليدقّوا بها الأرض مرّات عدّة. كانوا يؤدّون التحيّة لسيّدتهم للمرّة الأخيرة، محتجّين على سجنها. شعرت شجرة الدرّ بكثير من التأثر والفخر بهؤلاء الرجال المخلصين، الذين اختارهم كافور ودرّبهم.

بحركة من يدها، طلبت منهم أن يتوقّفوا. فهي لم تُرد أن يشعر رجال المعزّ الواقفين عند آخر الرواق بالتهديد، ولا أن يؤدّي سلوك رجالها المسلّحين إلى نقض اتّفاقها وقُطُز. إمتثل الجنود لأوامرها، فشكرتهم بإيماءة من رأسها وسارت خلف ابن مرزوق، وسار خلفها عبّاس، على أن يتركها حالما تصل إلى حيث رجال المعزّ.

سرعان ما وجدت نفسها محاطة برجال ذوي نظرات عدائيّة ونوايا إجراميّة واضحة. تردّدت كلمات «قتل السلطان»، و«القصاص» على مسمع السلطانة المحكوم عليها. شعرت بأنّ عالمها يتداعى، ومعدتها تنقبض، ونفسها ينقطع، غير أنّ رأسها ظلّ مرفوعًا.

حتّى تلك اللحظة، كانت لا تزال في محيطها المألوف، يحيط بها أشخاص يدينون لها بالولاء. صحيح أنّها هُزمت وأدينت، لكنّها كانت لا تظلّ تحت الحماية. أمّا الآن فقد اتّضح لها هول سقطتها. شعرت بقسوة غياب عبّاس ورجاله، كدرع تُخلع عنها فجأةً، وبعنف. أخذت تردّد ما باتت لازمتها الدائمة في الساعات الأخيرة: «القوّة والتصميم يا شجرة الدرّ، لا تظهري تعاستك، لا تمنحيهم هذه اللذّة».

إلتقت عيناها بعينَي ابن مرزوق، فكان للشفقة التي لاحت فيهما وقع الصاعقة عليها، ما ساعدها على عدم الغرق أكثر. لم تكن لتتحمّل الشفقة. فهي السلطانة شجرة الدرّ، وإذا كانت ستموت، فليكن ذلك بكرامة. نظرت إلى ابن مرزوق ورجال المعزّ نظرة تصميم وحزم، وبدأت السير بخطوات واثقة، بعيدًا عن جناحها، وبعيدًا عن ملجأها.

شعرت بأنّ كلّ خطوة تخطوها تقرّبها من نهاية هذا الكابوس. كانت تسير نحو موتها، لكنّها في الحقيقة كانت تسير نحو الاتّحاد بالله.

فوجئ ابن مرزوق ومماليك المعزّ بسرعة شجرة الدرّ، وحثّوا الخطى للّحاق بها. سمعت وهي تبتعد جلبة كبيرة، لكنّها لم تلتفت إلى مصدرها. لم ترد أن ترى مشهد رجال المعزّ وهم يجرّدون حرّاسها من سلاحهم ويقودونهم إلى السجن.

البرج الأحمر

باتت المسيرة نحو السجن أقلّ إيلامًا منذ أن أخذت السلطانة المبادرة. كانت تعرف الطريق إليه، ومضت بخطوات واثقة وحازمة.

وجدت شجرة الدرّ نفسها في البرج الأحمر، وحيدة أخيرًا وفي سلام، داخل ما عرفت أنّه سيكون مسكنها الأخير على هذه الأرض، خلال الوقت القليل المتبقّي لها. جلست على سرير ضيّق وقاس، في زاوية من زنزانتها الصغيرة. كان أثاث تلك الحجرة يقتصر على ذلك السرير وكرسيّ بلا ظهر وطاولة واطئة وضع عليها أحد المحسنين إبريقًا مليئًا بالماء. أسندت السجينة ظهرها إلى جدار مطليّ بالكلس الأبيض. كانت بساطة الحجرة تناسبها، وتريح عينيها المتعبتين وروحها الجريحة.

نظرت حولها بعدم اكتراث وباتت ترى نفسها في الآخرة، وقد تحرّرت روحها من جسدها المحكوم عليه بالموت، ومن هذا الغلاف الجسديّ الذي ألهب جماله العشّاق، وألهم الشعراء.

لكنّ خيطًا واهيًا ظلّ يربط روحها بالواقع. فشجرة الدرّ كانت تفكّر في كافور، وكيف سيسلّمها قارورة السمّ، تلك القارورة التي ستنقذها من انتقام أمّ عليّ.

ومع ذلك، كانت تخشى ألّا يقوى الموت حتّى على منع تلك المرأة من إلحاق إذلال ذريع بها. لكنّها سرعان ما طردت من رأسها تلك الأفكار التي كانت تعذّبها بلا جدوى. آنذاك كانت السجينة تنتظر إشارة من كافور. لا بدّ من أنّه اطّلع على الأحداث الأخيرة. كانت ترجو الله أن يساعده ويسدّد خطاه. لقد تمكّن ابن مرزوق من كسب مهلة ثمانية وأربعين ساعة. سيكون عليها، في نهاية تلك المهلة وبحال لم يأتِها كافور بقارورة السمّ، أن تستمدّ القوّة لاستعمال الدبّوس المسموم. ذلك السمّ كان ليسبّب موتًا أليمًا، لكنّها لن تتردّد في استعماله. ومع ذلك، حمدت الله على أنّه منحها حليفًا أشدّ صلابة وأوسع رأفة ممّا كانت تظنّ، في شخص المملوك العجوز ابن مرزوق، لأنّها كانت متأكّدة من أنّها ستتمكّن من الحصول على قارورتها في خلال يومين.

سمعت أذان الظهر، فنهضت للوضوء، ثمّ ابتهلت إلى الله لئلّا يتخلّى عن خادمته المؤمنة شجرة الدرّ. بعد الصلاة، عادت للجلوس على السرير. وفجأةً سمعت صوت قفل الباب يُفتح، ودخلت كريمة حاملة صينيّة.

توقّف قلب السلطانة عن الخفقان، وشعرت بملزمة تطبق على رئتيها فتمنعها من التنفّس. تلك البائسة كريمة، الأمَة المخلصة لأمّ عليّ، والخادمة القصيرة القامة التي تفيض حقدًا، قد تعرّض مهمّة كافور للخطر. من المحتمل جدًّا أن تكون أمّ عليّ قد أمرت كريمة بالبقاء عند باب السجن مع الحرّاس، لتتأكّد من عدم تواصل شجرة الدرّ مع أنصارها المخلصين.

بذلت السجينة جهدها لتخفي ارتباكها. تجاهلت الخادمة تمامًا فيما كانت تضع الصينيّة على الطاولة. اكتفت برمق الجدار أمامها بنظرة فارغة وجامدة، فيما راحت تستعرض كلّ الاحتمالات في ذهنها. لم تتوصّل إلّا إلى استنتاج واحد: كانت بحاجة إلى تواطؤ ابن مرزوق. ذلك الرهان كان محفوفًا بالخطر، فالرجل، وبرغم احترامه وصداقته لها، طاعن في السنّ ومن المؤكّد أنّه سيتردّد في المجازفة.

طرقت كريمة على الباب عدّة مرّات ليفتح الحرّاس لها، وخرجت بدون أن تجرؤ على مخاطبة شجرة الدرّ. أحسّت هذه الأخيرة بوخز في معدتها جعلها تهتمّ بما على الطاولة: شيء من الخبز وجبن الماعز وبضع حبّات زيتون. كانت بحاجة إلى قواها للحفاظ على صواب حكمها. جلست أمام الصينيّة وشرعت تتناول ذلك الغذاء البسيط بشهيّة.

***

وحده صوت المؤذّن يدعو المؤمنين إلى الصلاة كان يضبط إيقاع يومها ويسمح لها بتبيّن الوقت.

أتى ابن مرزوق إلى البرج الأحمر بعد انقضاء وقت طويل على صلاة العصر. وفي الضوء المتسرّب عبر النافذة الصغيرة في أعلى الزنزانة، بدا أكثر هرمًا وتعبًا. صحيح أنّه مرّ بكلّ تلك الأحداث من دون ان يتسنّى له الوقت للراحة. بدا المسكين مُرهَقًا، ومنهوك القوى، وعلى وشك أن يغيب عن الوعي.

نهضت شجرة الدرّ لاستقباله، ومدّت له ذراعها لتساعده على الجلوس على السرير.

– هل أكلتَ شيئًا ما اليوم يا صديقي؟ هل استطعتَ أن تنام قليلًا أو أن تأخذ قسطًا من الراحة؟

– لا، بعد يا شجرة الدرّ. أعترف لك بأنّ ساقيّ لم تعودا تحملانني. والدرجات التي كان عليّ صعودها للوصول إلى هنا أجهزت عليّ.

– هذا واضح، آسفة لأنّني كنت سببًا في إجهادك. بقي لي قليل من الخبز والجبن، سيسرّني أنّ أتقاسمه معك.

مضت إلى الطاولة الصغيرة، وأحضرت له كوب الماء، وبعض الخبز والجبن. شرب ابن مرزوق وأكل ببطء. ثمّ نهض والدمع يملأ عينيه.

– باركك الله يا ابنتي. أنت ملكة الملكات، حتّى في هذا السجن الحقير. آه يا ابنتي، أنا متعب حقًّا. قُطُز وأمّ عليّ لم يدعاني أرتاح ثانية واحدة. إضطررت إلى تفتيش جناحك معهما. لم يجدا شيئًا من كنزك ولا من مالك. كما أنّ اكتشاف ملابسك الثمينة ممزّقة، أغضبهما حتّى الجنون. وخصوصًا أمّ عليّ التي كانت تحلم بوضع اليد عليها لتزهو بها. يا لها من مخلوقة كريهة!

قال ذلك بدون أن يخفي شعوره بالاشمئزاز، وتابع:

– إنّهما يتساءلان عمّا إذا فعلتِ الأمر نفسه بجواهرك. ومع ذلك، لا يتخيّلان كيف يمكن تنفيذ ذلك. أرسلاني إلى هنا لهذا السبب، لأسألك. وقد أرهقت هذه الأدراج ركبتيّ الهرمتين.

– يا صديقي المسكين، إسترِح قدر ما تحتاج، قبل أن تسألني. ولكنّ ذلك لن يكون بنافع، فلن أقول لك شيئًا حول ذهبي، حتّى ولو أنّك أسعدتني بوصف إحباط عدويّ. هذا حسن، لقد بدآ يدركان أنّ انتصارهما المزعوم ليس سوى وهم، أو أنّه على الأقلّ لن يكون كاملًا أبدًا... يا ابن مرزوق، يجب أن أطلب إليك خدمة أخيرة.

تردّدت هنيهة، ثمّ تابعت على عجل:

– الخدمة التي أطلبها يا صديقي تتعلّق بموتي.

رفع الرجل المسكين إليها عينين جزعتين، وهمس بصوت واهن:

– ماذا تعنين يا ابنتي؟ إيّاك أن تطلبي منّي أن أقتلك بنفسي يا شجرة الدرّ. أنا عاجز عن ذلك. وإذا ما أرغمتِني على ذلك، أظنّني سأغمد الخنجر في قلبي العجوز في الثانية الأخيرة، لا في قلبك.

أخذت السلطانة يد ابن مرزوق المرتجفة في يديها وقالت له:

– يعزّيني أن تفكّر في الأمر يا صديقي، ويشجّعني أن أطلب إليك ما أريد طلبه. الأمر مختلف، وهو

خطر قليلًا، لكنّه قابل للتحقيق. أرى أنّك فهمت رغبتي في إنهاء حياتي بنفسي بدون أن أنتظر لأعاني ما أعدّته أمّ عليّ.

غمرتها عينا ابن مرزوق بنظرة اتّشحت بكلّ ما في العالم من حزن وتعب.

وصفت له مكانًا خلف مسجد، غير بعيد من مخرج الممرّ السريّ، عليه أن يقصده. كان يفترض بكافور إقامة بعض حرسه لمراقبة ذلك المكان. وحين يرى ابن مرزوق، سيفهم أنّ شجرة الدرّ قد أرسلته للتواصل معه.

طلبت من ابن مرزوق أن يشرح لكافور أنّ قلّة قليلة من الأشخاص يمكنهم الوصول إلى زنزانتها، وأنّه ما من أمل في شراء ولاء كريمة، والتي يمنعها خوفها من أمّ عليّ من اتّخاذ مجازفة بهذا الحجم.

كانت خطّة شجرة الدرّ تقضي بتكليف ابن مرزوق أن يحضر إليها القارورة التي سيسلّمها كافور له. لم يطرح عليها المملوك العجوز أيّ سؤال. بل شدّ على كتفها بودّ، ثمّ نهض وسار نحو الباب بخطوات ثقيلة. طرقه في انتظار أن يُفتح له.

الانتظار أشدّ مضاضة من النار

لم يغمض لشجرة الدرّ جفن طوال الليل. بعد رحيل ابن مرزوق، شعرت بأنّها وحيدة ومتروكة، تلتهم أحشاءها نار القلق. زاد من سوء حالها مجيء كريمة لتقديم طعام المساء. نظرت الخادمة الصغيرة إليها بطريقة غريبة، فخشيت السلطانة أن يكون ابن مرزوق قد أصيب بأيّ مكروه.

لكنّهما قد حرصا على أن يتحادثا بصوت خافت. وما كان لكريمة أن تستطيع سماع حوارهما ولو ألصقت أذنها بالباب. ومع ذلك، فقد شعرت السجينة بالقلق، ولاذت بالصلاة وتلاوة آيات القرآن.

بعد صلاة الفجر، تابعت مسيرة شروق الشمس من خلال تقدّم رقعة النور على جدار الزنزانة الأبيض. بمشيئة الله، سيكون اليوم آخر يوم في حياتها.

تأخّرت كريمة في إحضار وجبة الصباح، وإخراج المبولة من الغرفة. أدركت السلطانة أنّ الهدف هو جعل ظروف عيشها أصعب، وذلك لإتلاف أعصابها. أخيرًا فُتح الباب.

إنتصب شعر رأسها حين رأت أمّ عليّ تدخل، تتبعها كريمة حاملة سلّة مغلقة. لشدّة دهشة شجرة الدرّ تجمّدت على سريرها، راجية فقط ألّا تخونها عيناها. إرتسمت فوق شفتَي أمّ عليّ الشاحبتين ابتسامة مقيتة. كانت قد بدّلت ملابسها، فارتدت حلّة ثمينة تليق بسلطانة، غير أنّها لم تزدها أيّة أبّهة ملكيّة. بدا أنّها تقدّمت عشر سنوات في العمر في غضون يومين فقط. لا بدّ من أنّها لم تنم ما يكفي طوال ذلك الوقت.

وقفت وسط الحجرة الصغيرة، وراحت تتأمّل السلطانة المخلوعة بلذّة واضحة، وقد محضتها عيناها الحمراوان بفعل التعب هيئة شيطانيّة. أشارت بإيماءة من رأسها لكريمة بأن تمضي نحو شجرة الدرّ. إقتربت الخادمة، وفي يديها السلّة التي أُغلقت بغطاء. تساءلت شجرة الدرّ لبرهة عمّا إذا كان في تلك السلّة أفعى سامّة تنويان قذفها نحوها. لكنّ ما استطاعت أن تقرأه في عيني أمّ عليّ، كشف لها أنّ هذه الأخيرة لم تنتهِ منها بعد.

فجأةً، ملأت أنف شجرة الدرّ رائحة حادّة ومألوفة، رائحة جيفة منبعثة من السلّة التي وضعتها الخادمة بجانب السرير الصغير، عند قدمَي شجرة الدرّ. لم يساور السجينة أيّ شكّ في طبيعة محتواها.

- هذه هديّة لك! ترين أنّني أحبّك حقًّا. أنا نفسي اخترتها لك، ولو أنّ خادمتي المخلصة كريمة ساعدتني قليلًا. إفتحيها، هيّا افتحيها... هل حزرت ما تحتويه؟ يبدو عليك الخوف. وأنا التي ظننت بأنّ شجرة الدرّ العظيمة لا تخشى شيئًا!

صرّت شجرة الدرّ على أسنانها لكي لا تجيب. ومع ذلك، لم يكن بوسعها ترك تلك السلّة البائسة عند قدميها، بدون أن تبالي بمحتواها. دفعتها قوّة غريبة إلى رفع الغطاء، فلم تقاومها، برغم حدسها الرهيب حول محتواها.

أمام المشهد المُريع، ملأت الدموع عينيها: رأس عبّاس بعينيه الجاحظتين اللتين لا تزالان تعكسان الفظائع التي عاناها قبل موته. كانت شفتيه مزمومتين، وكأنّه ألصقهما لتبقيا مقفلتين إلى الأبد على أسرار الملكة.

أعادت شجرة الدرّ غطاء السلّة، وأغمضت عينيها حابسةً عاطفتها ودموعها. كان عليها التحلّي بالهدوء. أرادت تلاوة الفاتحة والدعاء بالرحمة على روح خادمها المخلص، هو الذي عرف الكثير من الويلات لدرجة أنّه بات يتمنّى الموت ويحلم بالحياة في الجنّة.

وجدت شجرة الدرّ القوّة لتتمالك نفسها، وتلت الفاتحة بصوت حازم، ولو يكاد لا يُسمع. ثمّ حملت السلّة ووضعتها باحترام فوق الكرسيّ، وعادت إلى مكانها لتجلس جامدةً تمامًا كما كانت عليه عند وصول اللعينتين، وراحت تحملق في الجدار الأبيض المواجه لسريرها. بدأت أمّ عليّ تتمايل أمامها وهي تهذر معقعقة:

– يبدو عليك التأثّر الشديد لموت هذا العبد. إذًا كانت كريمة على صواب حين نصحتني بأن أبدأ به. فقد لاحظت التواطؤ بينكما حين أتت لتفتيشك. هذه الفتاة موهوبة جدًّا... لقد ثار سخط قُطُز حين اكتشف هروب قائد حرسك، فنصحتُه بتعذيب الرجال الباقين، ليعرف ما حدث ليلة أمس. تقول الشائعات إنّ نوبة جنون حقيقيّة أصابتك مساء أمس، حين علمتِ بدنوّ نهايتك. وما اكتشفناه في عرفة ملابسك أكّد لنا ذلك. لن أغفر لك أبدًا ما فعلته بتلك الملابس الثمينة أيّتها المشعوذة القذرة! إعرفي أنّ قُطُز كان متردِّدا في تعذيب رجالك، لأنّ ابن مرزوق الخرف قال لنا إنّك مستعدّة للبوح بمكان الذهب، في مقابل الحفاظ على حياتهم. أمّا أنا فلا أصدّقك. تريدين فقط كسب الوقت وتظنّين نفسك أفطن من الجميع. هذا الأمر لا ينفع معي يا شجرة الدرّ، لأنّني أعرف عنك الكثير: كلّما منحناك وقتًا، سبّبت لنا المتاعب. لذلك أقنعتُ قُطُز باستجواب رجالك. وسرعان ما لاحظتُ أنّ عبّاس هذا لن يتكلّم مهما نال من تعذيب. فأفهمتُ قُطُز أنّ هذا العبد أنفع لنا ميتًا منه حيًّا. وعلمتُ بأنّ ذلك سيؤثّر فيك عميقًا. يجب أن تعترفي نهائيًّا بأنّك أصبحتِ نكرة، لا شيء. خسرت كلّ شيء، ومن مصلحتك تسليمنا ذهبك إذا أردت تحسين مصيرك. إنّها فرصتك الأخيرة.

لم تبعد شجرة الدرّ نظرها عن النقطة التي كانت تحملق بها في الجدار، وبل تجاهلت أمّ عليّ التي راحت تتبختر أمامها وتتباهى بتعذيب رجالها. كانت واثقة من أنّهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا من رجال كافور ولا كلمة واحدة. كما أنّ عبّاس فضّل الموت على الخيانة، أمّا الآخرون فلم يكونوا على علم بالحقيقة الكاملة لما جرى.

لكنّ أمّ عليّ كانت تستمتع بمضايقة السجينة، ولم تعد تقوى على لجم لسانها:

– إعرفي أنّنا أرسلنا مجموعة من جنود المعزّ، في إثر كافور. ولن يلبثوا أن يأتوا به. لقد أوضحتُ لقُطُز أنّه ليس بحاجة إلى التفاوض معك، فأنت سجينتنا وتحت رحمتنا. حين ننتهي من تعذيب رجالك، يمكننا تسليمك بدورك إلى الجلاّد. لكنّني أنا مَن ستكون جلاّدتك! وافق قُطُز، فقد ضمنت له أنّني سأدفعك إلى البوح بكلّ شيء، حول مخابئ كنزك. لا يزال متردِّدا في تركي أتصرّف، ويريد أن يمنح ذلك العجوز الخرف ابن مرزوق فرصة أخيرة. هو يعتقد أنّ بضع ليالٍ تقضينها في هذا السجن ستحملك في النهاية على الاعتراف، لأنّهم يقولون إنّك أصبحت واهنة. أمّا أنا فلا أصدّق كلّ ذلك، وبل أظنّ بأنّك لا تتوقّفين عن المناورة، وبأنّ ابن مرزوق لن ينال شيئًا، ما خلا الإرهاق في الذهاب والمجيء إلى هذا البرج الأحمر، وصعود كلّ هذه الأدراج. يا له من غبيّ مسكين. الحقيقة أنّ هذا كلّه لا يزعجني، فإذا لم تتكلّمي بعد يوم وليلة، سيسلّمك قُطُز إليّ. وأنا أعرف كيف أجعلك تبصقين ذهبك، حتّى ولو خبّأته عند الجنّ... سمح قُطُز بأن آتي بنفسي لتسليمك هديّتي. سأتركها لديك في أيّ حال، لتؤنسك وتساعدك على أن تري الأشياء بوضوح. مُحال أن تفلت جواهرك من يدي كما أفلتت ملابسك الثمينة... لكنّني أرى أنّك عاجزة عن الكلام. هل أخيفك بهذا القدر؟ أم أنّك فقدت صوابك حقًّا... لا، لا أصدّق ذلك، رأيتُ ردّة فعلك حين فتحت السلّة. لست مجنونة، لكنّك ستصبحين كذلك بين يديّ. أعدُك بذلك. فقط بعدما تبوحين لي بمخبأ كنزك.

طُرق الباب، ثمّ فُتح لتلوح منه قامة ابن مرزوق الهزيلة ووجهه الودود. لم يلبث المملوك العجوز أن فهم ما يجري، وقد بدا مذعورًا. راحت عيناه تتنقّلان بين أمّ عليّ، وكريمة، والسلّة، وشجرة الدرّ. تمكّن من تمتمة السلام على أمّ عليّ، التي رمقته بنظرة احتقار قبل أن تخرج، وخلفها كريمة، كما الكلب

خلف سيّده.

لم تلاحظ شجرة الدرّ أنّها حبست أنفاسها في خلال الهجوم الجارح الذي شنّته أمّ عليّ عليها. حين أُغلق الباب خلف الشيطانة التي أتت لتعذيبها، استعادت أنفاسها. حمدت الله الذي سيمنحها فرصة النجاة من مصير أحلك من الموت. لأنّ أمّ عليّ كانت في الواقع قادرة على حملها على الاعتراف بكلّ شيء قبل أن تقودها خطوة فخطوة إلى شفير هاوية الجنون، لتلقيها فيها.

بدأت شجرة الدرّ ترتجف بشدّة، فأسرع ابن مرزوق إليها وأخذها بين ذراعيه، محاولًا تهدئتها. ألقت برأسها على كتف العجوز الهزيلة. كانت مرهقة ولكنّها شعرت بالامتنان لأنّه لا يزال في تلك القلعة، شخص يبادلها بالحنان.

بعدما هدأت أعصابها، رفعت نحو ابن مرزوق عينين مليئتين بالتساؤلات. فردّ صديقها بنظرة دافئة وابتسامة مطمئِنة، هدّأتا من روعها. شعرت بيد ابن مرزوق تبحث عن يدها، ثمّ تدسّ فيها غرضًا ملفوفًا بقطعة قماش. أطبقت يدها عليها ثمّ أغمضت عينيها وتنفّست الصعداء، بعدما تعرّفت إلى ملمس القماش الذي كانت قد استخدمته لحماية قارورتها الثمينة. شعرت بأنّها قد نجت بطريقة ما، وبوسعها متابعة الطريق الذي اختارته.

أرادت أن تشكر لابن مرزوق ما فعله، لكنّها رأت في عينيه أنّه لا يريد كلامًا ولا شكرًا. فاحترمت إرادته ولزمت الصمت. كان الرجل المسكين يمتثل قسرًا لرغبات شجرة الدرّ الأخيرة، والتي لم يكن موافقًا عليها. لقد تفهّم الأمر، وفعل ما يجب فعله، لكنّه لم يشأ الحديث في ذلك.

مع أنّ زيارة أمّ عليّ أرهقت أعصاب شجرة الدرّ السجينة، لكنّها أقنعتها وبصورة نهائيّة، بصحّة اختيارها. كانت واثقة من أنّ الله سيشمل برحمته ملكةً مخلوعة، ويغفر لها قرارها أن تنهي حياتها بيدها، لتنجو من أعدائها. فقبل ما يقارب ألفًا وثلاثمئة عام، أخذت ملكة عظيمة أخرى القرار عينه وللأسباب عينها. كانت الملكة كليوباترا.

نهض ابن مرزوق ومضى إلى السلّة، فألقى نظرة على ما فيها، وامتقع لونه. ثمّ قال:

– مسكين هذا الفتى. هذه المرأة شيطان بلا شفقة. اللّهم اغفر لنا وأعِنّا.

– آمين، يا صديقي. إعتنِ بنفسك، فتلك اللعينة ستصبّ جامّ غضبها على كلّ مَن كان لي صديقًا.

– لا تقلقي عليّ. سأعرف كيف أري هذه المرأة حدود سلطتها. قُطُز ليس لعبة بين يديها، بل العكس هو الصحيح. لن يجازف في بداية عهده، بتأليب مماليك الصالح ضدّه. إذا ما ترك أمّ عليّ تنتقم منّي، فسيشعر الصالحيّون الآخرون بالتهديد، ويتّحدون في وجه سلطتها. ومنذ الآن، بدأ التداول باسم بيبرس.

– صديقي بيبرس! إنّه رجل خارج عن المألوف. هو بمثابة أخ لي، ولهذا لم أختره مكان أيبك. لم يكن بوسعي الزواج به، لأنّ ذلك ليكون أشبه بسفاح القربى. فاته الوقت اليوم ليأتي وينتشلني، لكنّني واثقة من أنّه سينتقم لي. لن يدوم عهد قُطُز وأمّ عليّ طويلًا.

– عليّ الانصراف الآن. سأطلب أن يدعوك وشأنك، وألّا يحملوا إليك طعام الغداء لأنّك تريدين النوم. لن يشكّوا بشيء وسيظنّون أنّه تأثير أمّ عليّ.

– شكرًا لك يا صديقي. رأيتَ كافور، كيف حاله؟

– نعم، التقيته في المكان الذي دللتِني إليه. كلّفني أن أخبرك بأنّه بمأمن، وبأنّ خطّتك ستنفّذ بحذافيرها. وقد التقى نايا.

– ممتاز. سأرحل بسلام.

رأت النظرة التي رمقها بها ابن مرزوق، وتوقّفت قبل أن تمعن في جرح مشاعره المرهفة.

– إذا لم يعد لديك ما تطلبينه منّي، سأدعك الآن. وداعًا يا مولاتي.

– وداعًا يا صديقي. سنلتقي في عالم أفضل، إن شاء الله.

أخذ ابن مرزوق السلّة برفق، وطرق الباب لكي يُفتح له.

***

لم يكن خيارها سهلًا، لكنّ فترة حدادها في هذا العالم قد انتهت. كانت تستعجل موافاة عائلتها في الآخرة، فالصالح والخليل ينتظرانها. لقد أدركت في الساعات الأخيرة مدى اشتياقها إليهما. ستلتقي كذلك أمّها وأباها وأشقّاءها وشقيقاتها. قالت في نفسها إنّها ستعرفهم لأنّ هيئتهم ستكون تمامًا كما كانت عليه يوم هجوم المغول الذين ذبحوا عائلتها واستعبدوها هي. كانت قد تقبّلت موتهم على أنّه جزء من الحياة، لكنّها لم تنسَهم قطّ، وبقيت ملامحهم محفورة في ذهنها.

بلغت الشمس كبد السماء، التي لا بدّ من أنّها اصطبغت بزرقة جميلة، مثلما تحبّها السلطانة شجرة الدرّ. لا بدّ من أنّ النيل هادئ، ومياهه الزرقاء الفيروزيّة تعكس أشعّة الشمس لتحوّلها إلى شذر ذهبيّ متناثر، احتفاءً بجمال مصر وغناها وشعب مصر وأبّهته. كان يومًا ربيعيًّا جميلًا، ومثاليًّا لإنهاء حياة المرأة الوحيدة التي تبوأت عرش سلطنة مصر. سوف تنضمّ إلى مَن تحبّهم، وتترك خلفها الكراهية والغيرة والطموحات والحروب، لتلقى النور الإلهيّ وتتّحد بالأزليّ.

توضّأت شجرة الدرّ وأدّت صلاة الظهر. أطالت ركوعها تبتهل إلى الله وتشكر له كلّ ما أنعم عليها به. سألته المغفرة وأن يتفهّم الفعل الذي تستعدّ لارتكابه، اختصار عمرها بيدها. كما قدّرت في تلك اللحظة وعلى نحو خاصّ، الصلة المباشرة التي يعزّزها الإسلام بين المؤمن وخالقه. فالله، في عليائه التي لا يبلغها بشر، هو أيضًا رحوم ويصغي إلى مؤمنيه، بدون حاجة إلى وسيط. شرحت لله أسبابها، وقد سمعها. كانت شجرة الدرّ شديدة الإيمان برحمة الله.

بعدما اطمأنّت السلطانة إذ أسلمت قلبها بصدق وقناعة لخالقها، نهضت وسارت إلى السرير الصغير بخطوات خفيفة، وعلى شفتيها ابتسامة. كانت تعلم بأنّ الله قد أصغى إليها وسيغفر لها، لأنّها شعرت بسلامه يلج قلبها ويفرحها. لم تعد تشعر بأيّ عذاب، بل على العكس من ذلك، غمرها الهدوء والطمأنينة. سوف تحتسي محتوى قارورتها، وتتمدّد، ثمّ تغوص في أحلامها المفضّلة وترحل بسلام لتنضمّ إلى عائلتها إلى الأبد.

ملكة المسلمين المكلّلة بالمجد

كانت شجرة الدرّ تتقلّب ببطء في سريرها. كانت قلقة، ولم تكن تفهم من أين أتاها هذا الشعور. ثمّ ظهر أمام عينيها وجه الصالح الذي أضناه المرض، فأعادها بالذكرى إلى نوفمبر من العام 1249 في مدينة المنصورة، في خضمّ الحرب ضدّ جيش الصليبيّين الفرنجة، بقيادة الملك لويس التاسع.

في حلمها، رأت شجرة الدرّ نفسها مع الصالح في غرفتهما بقصر المنصورة، المدينة التي شيّدها الكامل عند نقطة انقسام النيل إلى فرعين، وفي مكان لا يبعد كثيرًا عن دمياط. قبل ثلاثين عامًا وفي ذلك الموقع تحديدًا، قد هزم الكامل جيش الصليبيّين. وفي يونيو من العام 1249 قد استولى جيش صليبيّ جديد بقيادة لويس التاسع على دمياط بدون أيّ قتال، حال نزوله على الساحل المصريّ.

كانت شجرة الدرّ تساعد الصالح ليشرب من كأس برونزيّة نُقشت عليها آيات قرآنيّة، اختيرت لقدرتها على الشفاء وإبعاد الشرّ. كان الصالح واهنًا جدًّا. كانت حاله قد تحسّنت قليلًا، ممّا منحهما شيئًا من الأمل، في حين أعلن الأطبّاء أنّه يُحتضر. وضعت الكأس من يدها، وجلست بالقرب من زوجها وأخذته بين ذراعيها. ثمّ رفعت عينيها المبلّلتين بالدمع، لتلتقي والنظرات القلقة للأمير فخر الدين وجمال الدين محسن، اللذين كانا معها، بجانب سرير السلطان.

كان الحزن يعتصرها، لكنّها أدركت أنّ عليها طمأنة هذين الزائرين. في خضمّ المعركة، كانا يخشيان موت الصالح، وتقهقر الجيش إذا ما فقد قائده. ولكن، كان عليهما أن يفهما بأنّ شجرة الدرّ ستكون حاضرة لإرشادهما كما اعتادت أن تفعل مع الصالح. كان السلطان قد استفاد من تحسّنه الوجيز، لاستدعائهما وتوجيه أوامر واضحة إليهما: إذا ما حدث له أيّ مكروه، عليهما أن يتبعا أوامر شجرة الدرّ وتعليماتها.

كانت تعلم بأنّ جمال الدين في صفّها ويعترف بسلطتها. لذلك، لم تفارق عيناها الأمير فخر الدين، الذي كان قد عُيّن قائدًا للجيش، وبمثابة أسطورة حقيقيّة منذ زمن الكامل.

كان المحارب القديم قد جاء في لباس الحرب، وترك أسلحته عند باب غرفة السلطان. لكنّ شجرة الدرّ استطاعت رؤية درعه التي تحمل ذاك الشعار الغريب والعائد إلى الإمبراطور الجرمانيّ فريدريك هوهنشتاوفن الثاني، إلى جانب شعار السلطان. آنذاك، تساءلت شجرة الدرّ عن عمر فخر الدين الذي حاز تمامًا على ثقة الكامل، وبات موفده إلى الإمبراطور الجرمانيّ.

كانت شجرة الدرّ تعلم بأنّ ملوك الغرب أمثال الإمبراطور فريدريك، نادرون للغاية. كان يميل إلى الإسلام، ويكره الحروب الصليبيّة وينتقد عدم جدواها، كما لم يتردّد في مراسلة الصالح لتحذيره من نيّة الملك الفرنسيّ في غزو مصر. كان فريدريك يفضّل المبادلات التجاريّة والثقافيّة، وقد أقام مع الكامل علاقات صداقة، ودأب على مراسلته. كما نشأت بينه وبين موفد الكامل، الأمير فخر الدين، علاقة صداقة، ومنحه لقب فارس.

تبادلت شجرة الدرّ والأمير فخر الدين نظرة طمأنتها إلى نوايا قائد الجيش. كان لا يزال يذكر أنّه مدين لها بمنصبه وحياته. بادر الأمير إلى خفض عينيه، فقد كان مُحرجًا بسبب الأخطاء التي ارتكبها، والتي كادت تكلّفه حياته. خطأه الأفدح كان عدم تدميره الجسر الذي يصل بين ضفّتي النيل ويقود مباشرةً إلى دمياط، وهو ما سبّب سقوط المدينة في أيدي الأعداء بدون أيّة مقاومة، بمخزونها الضخم من المؤن والأسلحة. ساد التشتُّت بين جيش الأيوبيّين، وقد فاقمه غياب السلطان. راح الجنود يتراجعون، يتبعهم المحاربون من قبائل البدو والمكلّفون بالدفاع عن دمياط. هرب السكّان بأعداد كبيرة

نحو القاهرة، التي سرعان ما بلغها خبر سقوط دمياط. إستشاط الصالح غضبًا للخبر، وراح يشتم ويصيح بأعلى صوته أنّ رؤوسًا ستتدحرج لتكون عبرة لمن اعتبر، ولتُظهر نفوذ السلطان.

تململت شجرة الدرّ في نومها، فهي لا تحبّ أن ترى الصالح في هذه الحال. أصابها الذعر، وتساءلت كيف لها أن تحتوي هذا الجنون القاتل. كان يجدر بالطبع معاقبة الفارّين، وإنّما يجب الحرص على عدم إحباط الأمّة. كان المرض والعجز يضاعفان من قسوة الصالح، فأمر بإعدام كلّ قادة الفارّين. وقد اقتيد عدد كبير من الأمراء والزعماء البدو الذين كانوا مكلّفين بالدفاع عن المدينة إلى الساحة العامّة، حيث أعدِموا خنقًا.

رأت شجرة الدرّ نفسها جاثية عند قدمَي الصالح، الذي فقد السيطرة على نفسه لشدّة ما أحبطه عجزه عن قيادة الجيش بنفسه. كان يدرك أنّه، ولولا مرضه، كان بوسعه إنقاذ دمياط. أمسكت بيديه وراحت ترجوه ألّا يتمادى في القسوة، وأن يعفو عن الأمير فخر الدين، قائد الجيش، ويمنحه فرصة ثانية، تكريمًا لذكرى الكامل، والد الصالح. في النهاية، أذعن الصالح الذي أضناه المرض، لمشيئة زوجته.

إستدعت شجرة الدرّ الأمير فخر الدين، وأفهمته أنّها أنقذت حياته، وأعادته إلى قيادة الجيش. ولئن كانت للأمير شكوك في حكمة شجرة الدرّ وقدرتها على الحكم، فقد تبدّدت في الحال. رأت السلطانة في عينيه أنّه تجاوز اعتقاده بتفوّق الرجال، أمام الإرادة الفولاذيّة لتلك المرأة وتصميمها الصادق على إنقاذ الأمّة. لم يعُد المُقاتل القديم ورجل الدولة ليجد أيّ حرج في أن يقسم لها يمين الطاعة والولاء.

تواصل حلم شجرة الدرّ، تملأه صور الصالح. رأت نفسها آنذاك في إعجاب شديد أمام الرجل الذي أثبت من جديد أنّه محارب لا يضاهى، باسل وصلب، يحفّزه الواجب والظفر. وقد وجد، والله يعلم من أين، القوّة لمرافقة جيشه إلى المنصورة وقيادة الدفاع عن المدينة. وكان مماليكه يرافقونه ويؤمّنون الحراسة له وللسلطانة.

وهكذا، كان الزوجان في المنصورة حين تدهورت حال الصالح فجأةً. كان شخصًا استثنائيًّا، وبرغم مرضه، تمكّن من تعبئة مصر كلّها ضدّ الأعداء. تقاطر المتطوّعون للقتال من كلّ حدب وصوب، واستعاد الجنود معنويّاتهم. وبدأت ضدّ الفرنجة حرب استنزاف، ومناوشات لا تنتهي، ونُصبت كمائن أُسر فيها فرسانهم وجنودهم.

إرتسمت ابتسامة على شفتَي السلطان المتيّبستين، فقد بلغه قبل قليل خبر انتصار جنوده السوريّين على الفرنجة في صيدا. كان يأمل بأن يتمكّن قبل موته من تسديد خطى الجيش المصريّ على درب النصر.

ضاقت أنفاس السلطانة، واشتدّ لهاثها. كانت تتأمّل صورة الصالح وهو يسلم الروح بين ذراعيها، ومع لفظه الرمق الأخير، تمزّق قلبها. في البرج الأحمر حيث كانت تغطّ في نوم عميق، وحيث لم يأتِ أحد لإزعاجها، بدأ قلب شجرة الدرّ يخفق بقوّة ويفقد انتظامه. أحسّت بضيق شديد يطبق على صدرها، ووجدت صعوبة في التنفّس. كان مفعول السُمّ قد بدأ يسري في جسدها، الذي ما كان ليستسلم بدون مقاومة. راحت شجرة الدرّ تتقلّب في سريرها الضيّق، ولكن، سرعان ما خانتها قواها ولبثت جامدة. كان جسدها يوفّر قواه لمحاربة السُمّ الذي أخذ ينتشر في عروقها. بلّلت دموعها الوسادة الهزيلة. تركّز وعيها كلّه في حلمها، أمام جثّة الصالح، وقد غلبتها التعاسة قبالة درب الوحدة التي بات عليها أن تسلكها بدونه.

نظرت شجرة الدرّ عبر سيل الدموع، إلى وجه زوجها الأصفر والمهزول والجامد. أخذت يده وضمّتها إلى قلبها للمرّة الأخيرة. كان له من العمر أربعة وأربعون عامًا ولم تتوقّع أن تخسره وهو لا يزال في شبابه. أقسمت له على أن تصون إرثه من كلّ المخاطر. كان التهديد المباشر يتمثّل بجيش ملك

الفرنجة، فالأحداث تتسارع، وكان للفرنسيّين جواسيسهم في صفوف الجيش المصريّ، وقد علموا بتدهور حالة السلطان، فخرجوا من دمياط وساروا إلى المنصورة.

كانت شجرة الدرّ تبكي زوجها وهي تدرك أنّها لا تستطيع الإمعان في الاستسلام لهذا الوهن. كان حزنها هائلًا، لكنّها لم تشعر بالارتباك ولا بالضياع. فالسنوات الطويلة التي قضتها بجانب الصالح أعدّتها جيِّدًا. باتت تعرف ما عليها فعله، فتسلّمت دور القائد الأعلى للجيش بسهولة وتمرّس طبيعيّ.

بات نوم شجرة الدرّ الراقدة في زنزانتها أقلّ اضطرابًا الآن، وكأنّ السُمّ أبطأ انتشاره في جسدها. توقّفت حركتها تمامًا، ليبقى نَفَسها وحسب.

قبل وقت طويل من وفاة الصالح، كانت قد خطرت لشجرة الدرّ فكرة الحدّ من حريّة الدخول إلى غرفة السلطان المريض. باتت كلّ الأوامر والطلبات تمرّ بها أو بجمال الدين وفخر الدين. وعليه، كان إخفاء خبر وفاة السلطان أمرًا سهلًا، فهي تملك خاتمه، وتجيد منذ وقت طويل، وبموافقته، تقليد توقيعه. لكنّها كانت بحاجة إلى الوقت لترسيخ سلطتها. كما وجب تحديدًا المحافظة على الوحدة في وجه الأعداء، وتجنّب تشتّت الجيش.

إنهمك طبيبها الخاصّ بغسل جثمان الصالح وإعداده للدفن، وفقًا للشعائر الإسلاميّة. ثمّ أخرج الجثمان تحت جنح الظلام، ونقله بالمركب إلى القاهرة. أعطت شجرة الدرّ أوامرها بدفنه سرًّا في قصره بجزيرة الروضة، حيث سيصلّي عليه أحد أئمّة القصر سرًّا، ويقوم بتلاوة القرآن ليل نهار بجانب مثواه الأخير، بانتظار وقت أنسب لإعلان موته وإعلان الحداد الوطنيّ، وذلك ليستطيع الشعب كلّه الصلاة، وليتغمّد الله برحمته الواسعة روح آخر السلاطين الأيوبيّين.

حافظت شجرة الدرّ على المراسلة اليوميّة المعتادة مع حاكم القاهرة، الأمير حسام الدين. أدارت كلّ شؤون المملكة وكأنّ السلطان لا يزال حيًّا. وأبقت فسطاط الصالح منصوبًا. وإذا طلب أحد الرسميّين مواجهة السلطان، كانت شجرة الدرّ تسأله أن يتمّ الأمر كتابةً، لأنّ السلطان لا يزال مريضًا.

ويوم المعركة الكبرى، حين نجح العدوّ جرّاء خيانة هامّة، في دخول المنصورة مباغتةً، وحين لقي الأمير فخر الدين حتفه وهو يدافع عنها، لم ترتبك شجرة الدرّ أو تتردّد ثانية واحدة، بل ارتدت درعها، ونزلت إلى شوارع المدينة تبثّ في جنودها روح الشجاعة، وتحثّهم على القتال، وتحضّهم على عدم ترك المنصورة، المدينة الظافرة، تسقط في أيدي الفرنجة.

بين الحلم والحقيقة، باتت شجرة الدرّ امرأتين: إمرأة تشارك في القتال، وأخرى تتفرّج بسعادة وفخر على ما يجري، مدركةً النتيجة سلفًا. شعرت بسعادة عارمة في مراقبة حركة جنودها. أحسّت وكأنّها تحلّق عاليًا، فوق ساحة المعركة الشاسعة، كالملاك جبرائيل، أو الإلهة القديمة أثينا.

بات جسدها مسرتخيًا تمامًا، بعدما توقّف عن مقاومة السمّ. راح إيقاع قلبها يتباطأ شيئًا فشيئًا، لتنساب بارتياح إلى حالة من اللاوعي السعيد، مرتاحة البال، وخالية من كلّ همّ، وخفيفة كالأثير. رأت نفسها أصغر سنًّا، ترتدي درعًا، وتمتطي حصانًا، يحيط بها بعض أفراد حرسها الشخصيّ، وهي تجوب شوارع المنصورة وتدعو إلى المقاومة، مصدرةً أمرًا واحدًا، كلمة سرّ واحدة: الاستشهاد أو النصر.

في مرحلة ما من المعركة، خال الفرنجة أنّ النصر حليفهم. دخل لويس التاسع المدينة لاحتلال قصر السلطان. في تلك اللحظة، أطلقت شجرة الدرّ ضدّ فرسان الفرنجة سلاحها السرّي، فرقة الضبّاط المماليك، يواكبهم عدد كبير من حرسها الشخصيّ. كانوا يأتمرون جميعًا بأوامر صديقها المحارب غير الهيّاب، الأمير الفهد، بيبرس. كانوا في راحة واطمئنان، متمرّسين في فنون القتال، وشاكي السلاح.

هجموا على العدوّ جميعهم معًا وكأنّهم جسم واحد. كانت شجرة الدرّ قد شرحت لهم أنّه في حال سقوط المنصورة، ستُشرَّع طريق القاهرة أمام لويس التاسع وفرسانه.

كالنار في الهشيم سرى خبر وجود السلطانة شجرة الدرّ في شوارع المدينة. فشارك السكّان كلّهم في القتال، ولم يفكّر أحد منهم في الفرار. كما ارتدت نساء أخريات الدروع وشاركن في المعارك. أمّا الرجال والنساء العاجزون عن القتال، فراحوا يقذفون فرسان العدوّ الذين غامروا بدخول أزقّة المدينة، بالحجارة وبكلّ ما تقع عليه أيديهم.

إشتدّ استعار المعركة في كلّ أنحاء المنصورة وضواحيها. وانتقل الجنود المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، يواكب هجماتهم قرع طبول غريب وصاخب، زرع الذعر في صفوف الصليبيّين. راح جنود المشاة المسلمون يقذفون جنود الفرنجة وفرسانهم بمزيج مشتعل من النار الإغريقيّة (مزيج جدّ حارق من الكبريت وراتنج الصنوبر والقار)، فيجهزون عليهم. وقد تولّى المماليك بقيادة بيبرس، أمر فرسان الهيكل وفرسان الإسبتاريّة الذين كانوا يقاتلون في داخل المدينة. كما قتلوا روبرت دارتوا، شقيق الملك، وكلّ الفرسان الذين كانوا يرافقونه.

كان انتصار المنصورة ساحقًا، وقد قضى بالكامل على حملة الملك لويس التاسع الصيليبيّة. بلغ الخبر القاهرة بسرعة الحمام الزاجل، فغمرت السعادة شعب المدينة.

إنفرجت شفتا شجرة الدرّ النائمة عن ابتسامة جميلة سوف ترافقها إلى دنيا الآخرة. تباطأ نبضها، وبقي قلبها يخفق بوهن فقط بفضل قوّة الانفعالات التي أثارتها الصور العابرة بذهنها. كانت السلطانة في منطقة مجهولة وغامضة، بين الحياة والموت. راحت وظائفها الحيويّة تتوقّف بهدوء، الواحدة تلو الأخرى. ها الارتياح الذي لطالما بحثت عنه في حياتها الحافلة بالأحداث والتقلّبات، قد حلّ أخيرًا. لم يبقَ لديها سوى نشاط دماغيّ طفيف يبثّ فيها مشاعر عذبة، وهو لا ينفكّ يضمحلّ، لكنّه ما زال كافيًا ليستمرّ حلمها حتّى بلوغ لحظة المجد الأخيرة. كان جسدها يبرد، وروحها تتفتّح تحت شمس ذات يوم جميل من مايو من العام 1250، ذلك اليوم العظيم الذي ولجت فيه شجرة الدرّ ذروة قدرها. يومذاك، بويعت المملوكة، الأمَة القديمة التي أعتقها الصالح ورفع من شأنها، سلطانةً وبالإجماع، من قِبل الضبّاط وكبار الأعيان كلّهم في الإمبراطوريّة المصريّة.

بعد اغتيال طوران شاه، انعقد المجلس بحضور أمراء المماليك وكلّ أصحاب القرار في المملكة. لم يجد الحاضرون بينهم رجلًا، أيّ رجل يستحقّ اعتلاء العرش بقدر زوجة الراحل، الصالح أيّوب.

كان انتصارها كاملًا، فقد منحها أولئك الأعيان الوظيفة العليا ومعها كلّ الألقاب الرسميّة. سُكّت النقود على اسمها؛ على أحد وجهيها اسم الخليفة العبّاسيّ في بغداد، وعلى الوجه الآخر اسمها هي. وارتفع الدعاء باسمها بعد اسم الخليفة، في صلاة الجمعة. لم تكن شجرة الدرّ مجرّد وصيّة على العرش، كحال بعض الأميرات في انتظار بلوغ ابن أو شقيق، السنّ القانونيّة. بل كانت تتمتّع بالألقاب عينها التي كانت لزوجها الراحل، السلطان الصالح، ووالده الكامل، وجدّه الأكبر صلاح الدين.

بدأت الصور تتلاشى في رأسها. وعبر ضباب لم ينفكّ يتكاثف، رأت شجرة الدرّ نفسها يوم تنصيبها على العرش. كانت ترتدي الملابس الفاخرة، لكنّ حلمها لم يعد قادرًا على إبراز تفاصيل حلّتها، ما خلا لمعان الخيوط الذهبيّة التي كانت ترتسم في ثيابها، وتوهُّج الجواهر الوافرة التي تزيّنت بها. كانت غلالة رقيقة تفصل بينها وبين الأمراء والأعيان. سجد أولئك الرجال جميعهم عند قدميها، فيما راح الجنود في ساحة القلعة يهتفون باسمها، مقسمين يمين الولاء لها.

تبخّرت المشاهد في ضباب أبيض. لم يبقَ سوى مشهد دينار ذهبيّ يلتمع بضوء قويّ، مختلف عن انعكاس نور الشمس، كما لو أنّه يشعّ من قطعة النقود عينها. كانت تحمله في راحة يدها وتمعن النظر

فيه. كانت تحاول أن تقرأ اسمها المنقوش عليه وتتذوّق طعم النصر. لكنّ الصورة أخذت تتفكّك شيئًا فشيئًا، واختفت يدها، ومعها الدينار الذهبيّ، ليبقى فقط ذلك النور الوهّاج الذي يبهرها.

إنطفأت إلى الأبد العينان الزمرّديّتان الجميلتان، تواكبهما موسيقى صوت الإمام الشجيّ، يرفع من منبره عاليًا وجهارًا الدعاء لملكة المسلمين: «إحفظ اللّهم المقام الرفيع، وملكة المسلمين، وعصمة الدنيا والدين، أمّ خليل، وشريكة السلطان الملك الصالح».

توقّف حلم شجرة الدرّ وقلبها في آن وهي تتذوّق للمرّة الأخيرة طعم انتصارها غير المسبوق. وفّر عليها الموت أن تعيش من جديد، كلّ التعقيدات التي برزت منذ تنصيبها، والتي واجهتها في الماضي بشجاعة وحكمة وصفاء ذهن.

لا جدوى من الإصغاء مجدَّدا إلى أولئك العلماء الذين لا ينفكّون يحذّرون المسلمين من الويلات التي قد تحلّ بالذين يدَعون امرأة تحكمهم. كما لا جدوى من العودة لتحمّل منازعات الأنسباء الأيوبيّين الذين كانوا يرفضون الاعتراف بسلطتها في سوريا. لا جدوى من إعادة قراءة رسالة خليفة بغداد الذي يطلب فيها إلى أهل القاهرة، وبأسلوب مهين، التحقّق ممّا إذا لم يكن لديهم من رجال يصلحون للسلطنة، ليولّوا أمرهم امرأة. ولا جدوى من رؤية حلفاء الأمس مجدَّدا وهم يعيدون النظر ويشكّكون في صحّة قرارهم بتنصيب امرأة على عرش السلطنة. ولا جدوى من المواجهة من جديد، لمكافحة أعمال الشغب التي اندلعت في القاهرة بتحريض من العلماء والأمراء الأيوبيّين. وأخيرًا لا جدوى من أن ترى نفسها مجدَّدا وهي تتنازل عن العرش علنًا، بعد ثمانين يومًا فقط من الحكم المطلق، لتستمرّ بالحكم بعد ذلك، في ظلّ رجل، أيبك، أوّل سلطان مملوكيّ على مصر.

***

فُتح باب زنزانة شجرة الدرّ في البرج الأحمر لتدخل عليها كريمة، وهي تحمل صينيّة صغيرة عليها خبز وجبن، وضعتها على الكرسيّ الواطىء.

– أعتقد أنّك جائعة، فأنتِ لم تأكلي شيئًا طوال اليوم. لا يعني ذلك بأنّني أبالي بحالك، لكنّني تلقّيت الأوامر. عليّ الحرص على بقائك حيّة، لأنّ سيّدتي لم تنتهِ منك بعد. يجب أن تبقي في حال تسمح لك بتحمّل ما تنوي إخضاعك له.

إقتربت من السرير الذي كانت شجرة الدرّ ترقد فيه جثّة هامدة. بدت السلطانة المخلوعة نائمة، وقد اضطجعت على جنبها، ورأسها نحو الجدار، فلم تستطع كريمة أن ترى وجهها.

– إنهضي واستعدّي للأسوأ! يجب أن أقول لك إنّ سخط أمّ عليّ قد اشتدّ أكثر بكثير، أقلّه إذا كان ذلك ممكنًا. لقد اكتشفَت ما فعلتِ بجواهرك. وهي تعتقد أنّك شيطان، وساحرة تملك حظوة إبليس. وإلّا فكيف استطعتِ أن تحوّلي بوقت قصير كلّ تلك الروائع، إلى غبار متناثر في حديقتك؟ إعرفي أنّ قُطُز رفع عنك حمايته، وأعطى سيّدتي حريّة التصرّف الكاملة. باتت لها سلطة الحياة والموت على شخصك. إنهضي!

مدّت كريمة يدها لتهزّ شجرة الدرّ.

– يا الله!

قفزت إلى الخلف مطلقةً صرخة حادّة. فجثّة شجرة الدرّ قد انقلبت كحجر أصمّ، حين هزّت كريمة كتفها. لمست يدها لتتأكّد: باردة مصقعة كصقيع الموت. لم يعد هناك من شكّ، لقد أفلتت شجرة الدرّ من قبضتهم.

هرعت نحو الباب صارخةَ، وقد استبدّ بها الرعب لمجرّد التفكير بأنّ عليها إخطار أمّ عليّ، بدون تأخير.

دخل الحارس الخصيّ الزنزانة بعد سماعه صرخات كريمة، لكنّ هذه الأخيرة أبعدته وخرجت. هبطت الأدراج مسرعةً، فتعثّرت وسقطت، وسال الدم من أنفها وبدأت عينها تتورّم. لكنّها لم تكترث، حتّى أنّها لم تفكّر في ترتيب خمارها وهي تركض في أروقة القلعة.

وصلت إلى سيّدتها بحالٍ يرثى لها. لم يسمح مظهرها المحموم لأمّ عليّ بأيّ شكّ. خطب ما قد وقع. ركعت كريمة أمامها نازفةً ومرتجفة، وقد خانتها الكلمات. كادت المسكينة تُجنّ، خوفًا من الغضب الذي سينزل عليها حين تسمع أمّ عليّ الخبر الرهيب: شجرة الدرّ وجدت وسيلة لتفلت من قبضتها إلى الأبد.

بعدما عايشت كريمة أمّ عليّ طوال كلّ هذه السنوات، باتت تدرك تمامًا جمّ الإحباط والهستيريا الذي سيتملّك سيّدتها. كان خطر الموت خنقًا يحدق بها. يا لشجرة الدرّ اللعينة! لا بدّ من أنّها متواطئة مع الجنّ الأشرار. وحدها تلك المخلوقات القويّة والخارجة من عالم الظلام، تستطيع مساعدتها على تحويل جواهرها إلى رماد، وتبخّر دنانيرها. ولا شيء سوى تدخّل الجنّ يمكنه تفسير لغز اختفاء كافور ومعه نصف رجاله، برغم المراقبة الشديدة التي فرضها عليهم حرس المعزّ. لعلّهم طاروا ليلًا على ظهور الجنّ. ولا شكّ بأنّ شجرة الدرّ طلبت من شركائها الأبالسة إماتتها في نومها. أو لعلّ تلك الجثة ليست لشجرة الدرّ، بل لجنّ اتّخذ شكلها للسماح لها بالهرب.

كانت أمّ عليّ تستعدّ للذهاب إلى البرج الأحمر لاستجواب شجرة الدرّ، مستعجلةً ممارسة سلطتها الجديدة، وكانت تعرف تمامًا ما عليها فعله لتذلّ السلطانة المخلوعة وتعذّبها. فقد تخيّل عقلها المريض شتّى أصناف التعذيب والإذلال، قبل أن تقرّر ما ستختار منها.

منذ أن اكتشفت وقُطُز وابن مرزوق، مصير جواهر شجرة الدرّ الرائعة، لم يكفّ دماغها المحموم عن التحضير للثأر. كما أنّ رؤية تراب الحديقة يلتمع بألف بريق في أشعّة الشمس الغاربة، أثارت سخط جنونها. غبار الذهب المنثور بين شجيرات الورد وأشجار الفاكهة أثار أعصابها، وجعلها ترغب في الصراخ. لم تعد ترى سوى وجه شجرة الدرّ يرمقها بابتسامة ساخرة، وأسنانها البيضاء والمنتظمة كاللآلئ تستهزئ بها. لم يكن لأمّ عليّ سوى رغبة واحدة، وهي ضرب هذا الوجه المكروه بكلّ ما أوتيت من قوّة، لتحطيم أسنانه ومحو ابتسامته.

برغم ما جرى، أرسلت أمّ عليّ مجموعة من العبيد إلى الحديقة، لجمع التراب ومحاولة استخراج الذهب منه. ما كان هذا المشروع سيعيد إليها جواهرها التي خسرتها إلى الأبد، ومع ذلك، كان عليها أن تحاول استعادة شيء ما على الأقلّ، لئلّا يكون فشلها كاملًا... ولكن أن تنجح شجرة الدرّ في جعلها تدبّ كحيوان على قوائم أربعة، في أرض الحديقة، لتعاين هول الكارثة، إنّما جعلها تكنّ لسجينتها كراهية أكبر من طاقة أيّ إنسان على الكره.

لمرافقتها إلى البرج الأحمر وإنزال أوّل درس في التواضع بالسلطانة المخلوعة، اختارت أمّ عليّ، أحقر إماء الحريم، أي أولئك المسؤولات عن تنظيف المراحيض والحمّامات ومساكن الخصيان والإماء الأخريات. كانت أولئك النسوة ينتظرن أمام باب جناح السلطانة حين وصلت كريمة وانحنت أمام أمّ عليّ.

بدأت هذه الأخيرة تدور حول كريمة وهي تتساءل عمّا تحمله هذه الخادمة الجزعة من أخبار سيّئة.

– ماذا دهاك يا كريمة؟ هل جُنّت شجرة الدرّ أو بلغ منها العنف أن هاجمتكِ؟ لا تقلقي، سأعطيها ما

تستحقّ، حتّى أنّني سأشوّهها أيضًا.

إنبطحت كريمة أرضًا وراحت تقبّل قدمَي أمّ عليّ. كانت تبكي لكنّها لم تجرؤ بعد على أن تكشف لها ما جرى.

– تكلّمي أيّتها الغبيّة، ودعي قدميّ!

قالت هذا وأزاحت إحدى قدميها، ولكنّها لم تستطع مقاومة الرغبة في ركل رأس ضحيّة غضبها البائسة.

– إنهضي وكفّي عن التباكي! أتخجلين إذ تركتِها تضربك؟

نهضت كريمة وهي تمسح بكمّيها دموعها ودمها عن وجهها. ثمّ تجرّأت أخيرًا على القول بصوت هامس:

– الجنّ حملوا شجرة الدرّ وذهبوا بها.

– ماذا تقولين أيّتها المجنونة؟

– الجنّ أخذوا شجرة الدرّ.

– أقسم بالله على أنّك جننتِ. أيّ جنّ؟

كانت أمّ عليّ تتحرّق لتعرف ما جرى، فكفّت عن محاولة فكّ رموز همسات خادمتها، بل أمرتها بأن تتبعها مع الإماء الأخريات، وتوّجهت نحو البرج الأحمر. بدأت بالمشي، ثمّ تسارعت خطواتها حتّى انتهت بالركض. كان حدس سيّئ يحثّها على الإسراع لتكتشف ما جعل كريمة على هذه الحال.

***

جمدت أمّ عليّ مصعوقة. بدت عيناها وكأنّهما ستخرجان من محجريهما، وكادت شرايين صدغيها الزرقاء تنفجر. وقفت بقرب سرير شجرة الدرّ، وقد أدركت أنّه لم يبق لها منها سوى جثّة هامدة. بدا دماغ أمّ عليّ عاجزًا عن استيعاب هذه المعطيات، ولم تشأ تصديقها. كان شعورها بالقهر والذلّ لرؤية مشاريعها تُحبط وللمرّة الألف، على يد هذه المرأة، يخنقها.

ثمّ سمعت القلعة كلّها صراخها، وقد كانت تلك الطريقة الوحيدة المتبّقية لتنفيس التوتّر الذي يكاد يقتلها. رفعت ذراعيها إلى السماء، وواصلت الصراخ، ولم تتوّقف حتّى سقطت إرهاقًا بالقرب من السرير الذي ترقد عليه جثّة غريمتها. بعد ذلك، ركعت وراحت تقلّب جسد السلطانة، كما لو أنّها تريد التأكّد من أنّها ماتت حقًّا. ثمّ وقعت يد أمّ عليّ على جسم صلب، قارورة زجاجيّة صغيرة.

في الحال، راحت عيناها تبحثان عن كريمة. لدى رؤيتها الخادمة منهارة تمامًا، مرتمية أرضًا في إحدى الزوايا، اشتدّ غضبها. فنهضت كالإعصار وخلعت أحد حذائيها وانقضّت عليها، لتوسعها ضربًا على رأسها وصدرها وحيثما استطاعت النيل منها. لم تدافع كريمة عن نفسها بل راحت تردِّد ببلاهة:

– الجنّ، الجنّ. كان الله في عوننا. الجنّ هنا، وسيسكنوننا كلّنا.

– أيّتها الكاذبة الحقيرة. أكّدت لي أنّك فتّشتها جيِّدا، وأنّها لم تحمل معها شيئًا عند خروجها من جناحها! لم يحملها الجنّ ويطيروا بها، بل شربت محتوى هذه القارورة، وانتحرت. لتذهب إلى الجحيم ولتأخذك معها! الكافرة! المشعوذة! سارقة الرجال! أكرهها! أردتها أن تموت أمامي، وبيديّ! بعدم كفاءتك أيّتها الأمَة القذرة، استطاعت أن تُدخل السمّ إلى السجن، وتشربه لتتخلّص من انتقامي... لقد

ربحتْ. لن أستطيع أبدًا أن أرى الخوف والذلّ في عينيها الخضراوين الأنوفتين اللتين أمقتهما. وشفتاها اللتان ذاقتا قبلات زوجي لن تنفتحا أبدًا لتسألاني الشفقة والمغفرة، ولا لتناديا «يا مولاتي»...

فجأةً، توقّفت أمّ عليّ عن ضرب كريمة، وعادت إلى جثّة شجرة الدرّ. ثمّ رفعت حذاءها وبدأت بضرب الوجه الجميل الذي تغار منه بشدّة. بدت شجرة الدرّ نائمة. وحين لاحظت أمّ عليّ أنّ الحذاء لم يترك أثرًا على الوجه المكروه، التفتت إلى الأماء اللواتي رافقنها، مسلّحات بقباقيب الحمّامات ذات النعال الخشبيّة.

كانت خطّة أمّ عليّ الأساسيّة تقضي بالضرب الشديد منذ البداية، بهدف إخضاع شجرة الدرّ لسلطتها. كانت الأوامر المعطاة لأولئك الإماء اللواتي جيء بهنّ من أسفل أسافل الحريم، أن يضربن السلطانة المخلوعة بالقباقيب. كان عليهنّ تعذيبها بدون قتلها. وكانت أمّ عليّ تنوي أن تتفرّج وتستمتع وتشارك إذا ما رغبت في ذلك.

إنتزعت قبقابًا من يد إحدى الإماء اللواتي لبثن كالأصنام أمام انعطافة الأحداث، وعادت لضرب وجه الميتة. ثمّ تنهّدت بلذّة حين سمعت صوت عظم الأنف ينكسر، ورأت الشفتين تنفتحان ككرزة مسحوقة. أمام خيبة أملها من ضآلة الدم الذي سال من جروح السلطانة الميتة، صرخت بالإماء للانضمام إليها في مهمّتها الدنيئة.

إمتثلت النسوة للأمر، لكنّهن من شدّة خوفهنّ، لم يجرؤن على الضرب بقوّة. فنهرتهنّ أمّ عليّ بعنف، وكأنّما ترجو من شدّة الضرب أن تبلغ عمق روح ضحيّتها.

شيئًا فشيئًا انجرفت الإماء في تنفيذ رغبات أمّ عليّ، فرحن يسدّدن الضربات واللكمات، بعدما تغلّبت عليهنّ أسوأ غرائزهنّ. حتّى أنّ بعضهنّ هاجمنَها بأظافرهنّ، فمزّقن قميص السلطانة وسروالها، وتركنهما خرقًا ملطّخة بالدم. تعرّضت الجثّة لقدر هائل من العنف لدرجة أنّ أورامًا دمويّة صغيرة بدأت بالظهور، برغم بداية مرحلة تصلُّب الجسد.

أفلتت أمّ عليّ القبقاب الخشبيّ بعدما أنهكها التعب وخانتها ذراعاها. نظرت حولها وأدركت فجأةً أنّه لم يعد لديها ما تفعله في ذلك المكان. قصّتها مع شجرة الدرّ انتهت. لم تنته كما كانت تتمنّاه، لكنّها انتهت إلى الأبد. إتّجهت إلى الباب، لكنّها توقّفت قبل الخروج والتفتت نحو إمائها وأمرتهنّ قائلة:

– بعد اليوم، لا أريد سماع شيء يتعلّق بهذه المرأة، ولا بدفنها، ولا بالصلاة على روحها اللعينة. حين تنتهينَ، ارمينَ جثّتها من أعلى السور إلى خندق القلعة، ولتفترسها الكلاب الشاردة!

كانت الشمس قد غابت، وهبط الظلام. في تلك الليلة غاب القمر، ولم تلتمع أيّة نجمة في السماء، والتي ارتدت سوادًا بسواد غلالات الحداد لدى نساء الشرق. وقام رهط من النساء الجاهلات والخاضعات، برمي جثّة شجرة الدرّ من أعلى أسوار القلعة.

***

حين عاد ابن مرزوق إلى منزله، كان في حال من الاضطراب والقلق الشديدين. أدّى صلواته، وحاول أن يجد ملاذًا وطمأنينة في قراءة القرآن الكريم. لكنّه لم يستطع التركيز على الآيات.

لم يكن نادمًا على مساعدته شجرة الدرّ. كان يتفهّم يأسها، ورفضها تسليم نفسها إلى عدوّتها الرهيبة والوحشيّة. والأهمّ من ذلك أنّه كان يؤمن برحمة الخالق الواسعة. فالله الذي ارتضى أن يميّز هذه المرأة عن بقيّة النساء، ورسم لها قدرًا خارجًا عن المألوف، لا بدّ من أن يجد لها ظروفًا تخفيفيّة في يوم الحساب.

بتقصير حياتها، وفّرت شجرة الدرّ على نفسها نهاية أسوأ من الموت. خطرت ببال ابن مرزوق آية من القرآن تقول: (لا يكلّف الله نفسًا إلّا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت). إذا ارتكبت شجرة الدرّ خطيئة بقتل أيبك، فقد دفعت حياتها ثمنًا لها. سيلتقيان في السماء، ووحده الله العادل سيكون الحكم.

لكنّ ابن مرزوق شعر بعذاب الضمير بسبب وعد لم يستطع الوفاء به. فقد حاول إنقاذ رجال شجرة الدرّ، وكاد ينجح بذلك. حين قال لقُطُز إنّ شجرة الدرّ أفصحت له عن مكان جزء من ذهبها، وافق قُطُز على تحرير الخصيان الذين كان يعتقلهم في السجن.

لكنّ كلّ شيء تغيّر حين دخلوا حدائق السلطانة. بعد اكتشاف خدعة شجرة الدرّ، استشاط قُطُز حنقًا وقرّر قتل كلّ الرجال الذين بقوا على ولائهم لها. لا بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فسلّم شجرة الدرّ إلى مشيئة أمّ عليّ.

ذُبح كلّ خصيان السلطانة وخدمها، وأُلحقت أجسادهم بأجساد رفاقهم الذين قتلوا قبل يومين، في استعراض مشؤوم أمام سكّان القاهرة. صُلبت بعض الجثث على امتداد الطريق الذي يبدأ من القلعة ويعبر المدينة، فيما زيّنت الرؤوس المقطوعة أسوار القلعة في مشهد جنائزيّ مروّع.

إستغلّ ابن مرزوق حالة البلبلة ليتوارى عن الأنظار. لم يكن يتمنّى البقاء قريبًا من قُطُز وأمّ عليّ، خوفًا من أن يطاله غضبهما. ففي هذه الأوقات التي يشوبها الاضطراب، لم تكن حكمته ولا شيخوخته ضمانة لبقائه على قيد الحياة.

جاء أحد عبيده يبلغه بوصول رسالة عاجلة من القلعة. فابن مرزوق كان قد سأل أحد أصدقائه المخلصين أن يطلعه على تطوّر الأحداث. شحب لونه وهو يقرأ الرسالة، ورآه عبده يترنّح، فهبّ إليه يسنده.

في الحال، أمره ابن مرزوق بإحضار معطف أسود، وبأن يأتي بآخر له. كان عليهما الذهاب في مهمّة أخيرة، وخطيرة، ويجب ألّا يلاحظهما أحد.

قبل الخروج، توجّه ابن مرزوق إلى صندوق في زاوية من الغرفة الرئيسيّة، أخرج منه قطعة قماش ناصعة البياض، ليست سوى الكفن الذي رافقه في كلّ المعارك التي خاضها في حياته إلى جانب الكامل والصالح. دسّه تحت معطفه وسار من جديد في اتّجاه القلعة.

***

منذ أن أعطى ابن مرزوق قارورة السمّ، لبث كافور ينتظر بفارغ الصبر أخبارًا من القلعة. كان يختبئ في الضريح الذي أمرت شجرة الدرّ ببنائه في العام 1250 حين كانت في ذروة سلطتها، ليستقبل جثمانها. كان قد وزّع ما يكفي من المال لشراء صمت القليلين الذين كانوا يتسكّعون في محيط ذلك الضريح.

كان الضريح وسط مقبرة في المدينة القديمة، تحيط به حديقة أضيف إليها حمّام للعموم. كان الأشخاص الذين يهتمّون بالحديقة والحمّام يعشقون شجرة الدرّ ويدينون لها ببقائهم، وما كانوا طبعًا ليخونوا خادمها، كافور. بل على العكس، ساعدوه في إعداد الضريح الذي سيستقبل جثمان المُحسنة إليهم، فغسلوا المكان بالماء الوفير، واستقدموا إمامًا يثقون به لقراءة القرآن والصلاة على نفس شجرة الدرّ، عندما يحين الوقت.

كان الضريح الذي شيّدته شجرة الدرّ، بناءً بسيطًا وجميلًا. سبق لها أن اختارت وبصفاء ذهنها المعهود، ضريحًا فخمًا للصالح بالقرب من المدرسة التي أمر ببنائها في وسط المدينة. غير أنّها

اختارت لنفسها الابتعاد والكتمان، مدركةَ أنّها الطريقة الأفضل للحفاظ على مثواها الأخير.

كان ضريحها عبارة عن مدفن مربّع تتوسّطه قبّة. كان خالٍ من أيّة زخرفة خارجيّة، ويبرز منه المحراب بشكل نصف دائرة، في اتّجاه القبلة. إتّصف ذلك المحراب بميزة خاصّة ولمسة أنثوية، بشكل فسيفساء من الأشرطة المضفورة على خلفيّة مذّهبة. وفي الوسط، رسم لشجرة ذات أغصان طويلة ومزيّنة بأوراق من مادّة الميناء.

وقف كافور يتأمّل تلك الشجرة على ضوء مصباح زيتيّ، بكثير من الحنين. فوجئ بدخول نايا كالمجنونة إلى الضريح. إلتفت إليها وسرعان ما تألّم لحالها. فقد كانت مقطوعة الأنفاس ومبلّلة الوجه من آثار الدموع التي لا تزال تسيل، وتتّكئ إلى خطيبها حسن العطّار. وقد رافقتهما زهرة الأمَة الشابّة والمخلصة لشجرة الدرّ، من حريم القلعة.

وجد كافور صعوبة في فهم كلمات نايا التي امتزجت بنحيبها. كانت تشير إلى الأمَة الشابّة بدون أن تستطيع النطق بوضوح. فالتفت كافور إلى حسن وسأله عمّا جعل نايا على تلك الحال. ظنّ كافور أنّ السبب هو موت شجرة الدرّ، لكنّ ما سمعه من حسن أثار رعبه.

شرح له حسن أنّ زهرة استفادت من الفوضى التي انتشرت في القلعة لتهرب مسرعةً إلى دكّانه. فما كان من أحد عمّاله الذي يعرف أين يجده في حال الضرورة، إلّا أن عاجل بإبلاغه أنّ إحدى إماء القصر تطلبه.

أصاب الهلع زهرة جرّاء الأحداث التي دارت في القصر. كانت في اشتياق إلى نايا وإلى شجرة الدرّ التي خصّتها بالكثير من الحنان والسخاء، كما كانت تخاف أمّ عليّ خوفًا شديدًا. كانت زهرة قد دخلت في خدمة شجرة الدرّ، تحت أوامر نايا، واعتادت، وهي الفضوليّة والنحيلة القامة، أن تتسلّل إلى كلّ زوايا الحريم لتراقب وتصغي، وتنقل الأخبار إلى نايا. هذه المرّة، كانت تختبئ خلف أحد الأبواب حين عادت الإماء البائسات اللواتي هاجمنَ جثّة شجرة الدرّ إلى الحريم، فسمعتهنّ يتحادثن في ما بينهنّ، ويصفن غضب أمّ عليّ، ويتبجّحن بجريمتهنّ. كما سمعت زهرة بأنّ عبيدًا سيقومون بإلقاء جثّة السلطانة المخلوعة من أعلى أسوار القلعة، ناحية البرج الأحمر.

تألّم كافور كثيرًا لهذا الخبر، برغم أنّه تعزّى لعلمه بأنّ ابن مرزوق تمكّن من تسليم شجرة الدرّ قارورة السمّ، وبذلك تأكّد من موتها قبل تعرّضها لفعلة أمّ عليّ الشائنة. عرف كافور ما بقي أمامه للإتمام: استرجاع جثّة شجرة الدرّ بسرعة، لدفنها سرًّا في ضريحها، كما وعدها.

أخذ الكفن الذي كان جاهزًا، وطلب من نايا أن تستعيد رباطة جأشها، لأنّ سيّدتهما لا تزال بحاجة إلى خدماتها. مسحت نايا دموعها ورفعت رأسها، ومضوا جميعًا في اتّجاه القلعة.

***

وصل كافور ورفاقه إلى أسفل الأسوار تحت جنح الظلام. كانت الدرب التي تصعد من سفح جبل المقطّم نحو القلعة، صعبة البلوغ. وكان الليل حالك السواد، وكأنّ القمر والنجوم قد نبذت سماء القاهرة على وجه التحديد. لم يلتقوا في طريقهم أحدًا، فأبناء المدينة المتوجّسون من هذه الفترة الانتقاليّة، آثروا القبوع في منازلهم.

فوجئ كافور وصحبه برؤية نور مصباح زيتيّ يتحرّك من جهة الخندق، حيث أرادوا الذهاب لاسترجاع جثّة ملكتهم. فاقتربوا بحذر، ليجد كافور الذي سار في الطليعة نفسه أمام ابن مرزوق وعبده.

فجأةً سمعوا نباحًا، بدا صادرًا عن كلاب جائعة، فأسرعوا راكضين نحو المكان الذي صدر منه العواء المشؤوم، وتبعهم ابن مرزوق بأسرع ما سمحت قدماه.

إلتقط كافور وحسن وعبد ابن مرزوق حجارة عن الأرض الوعرة، واندفعوا نحو الكلاب الثلاثة التي كانت تنهش شيئًا ما لم يميّزوه بعد، وراحوا يقذفونها بالحجارة. حاولت الكلاب الجائعة في البداية أن تقاوم، ثمّ تركت فريستها ولاذت بالفرار.

وجد الرجال الثلاثة، نايا وزهرة وابن مرزوق أمام ما عرفوا أنّها جثة شجرة الدرّ، فسارع ابن مرزوق بدافع اللياقة والإحسان إلى تغطيتها بكفنه الخاصّ. إتّكأت نايا بإحدى يديها على الأرض فيما سدّت بالأخرى فمها لتمتنع عن الصراخ. فما شاهدته من أشلاء سلطانتها سيسكن كوابيسها حتّى نهاية حياتها.

لم يرفع كافور الكفن، فوجه نايا قد أكّد له أنّها تعرّفت إلى السلطانة. لم يجد في نفسه القوّة ليتأكّد شخصيًّا ممّا فعلته كراهية أمّ عليّ بشجرة الدرّ. كما أنّ وضعيّة الجثّة تحت الكفن كانت تروي بوضوح الفظائع التي تعرّضت لها.

ذلك الرجل الشجاع الذي شاهد الموت بكلّ صوره، وعانى العبوديّة والخصي، هذا المحارب الذي لم يكن يخشى الموت، لم يجد في نفسه الشجاعة لينظر إلى الأثر الذي خلّفه الموت في المرأة التي كان يكنّ لها أكبر قدرٍ من الحبّ والاحترام. لم يشأ أن يرى ما فعلته وحشيّة البشر في أجمل النساء وأذكاهنّ وأوسعهنّ معرفةً.

تحلّق الجمع الصغير حول الجثّة وكأنّما لحمايتها إلى الأبد، وتلوا الفاتحة لاستنزال رحمة الله على روح المتوفّاة. بعد ذلك، انحنى كافور وحمل جثّة شجرة الدرّ بلياقة وكثير من الاحترام، وعاد أدراجه نحو الضريح. كانوا يريدون الوصول إلى المدفن قبل شروق الشمس.

***

طلع الضوء، وشقّ نور الشمس طريقه بصعوبة بين الغيوم التي كانت قد تجمّعت ليلًا. غسلت نايا وزهرة جثمان شجرة الدرّ في الحمّام بجانب الضريح، وأعدّتاه للدفن. وضعت نايا السلسلة وقلادة الخليل، ابن شجرة الدرّ، بجانب قلب السلطانة، عملًا بتوصية كافور، الذي وقف ينتظر مع الرجال الآخرين في الخارج. قبّلت نايا للمرّة الأخيرة جبين سيّدتها، قبل أن تلفّها بالكفن النظيف الذي أحضره كافور.

دفن مناصرو شجرة الدرّ سلطانتهم بعد صلاة الظهر. صلّوا في الضريح ووجوههم نحو المحراب ذي الشجرة الذهبيّة. بعد ذلك، تفرّقوا في ذلك النهار الحزين والكئيب. لم يبقَ في الضريح سوى الإمام ليتلو آيات القرآن كاملة بصوت عالٍ، وليرفع الدعاء بالرحمة على روح شجرة الدرّ، ملكة المسلمين.

***

دعت نايا زهرة إلى الإقامة معها. أعادتا سترهما إلى وجهيهما، وسارتا مع حسن نحو حياتهما الجديدة.

مكث كافور في محيط ذلك المكان ينتظر الليل لإتمام المهامّ التي أوكلته بها شجرة الدرّ. برغم المكافأة التي خُصّصت لمَن يَقبض عليه، أقسم بروح السلطانة على أنّ شيئًا لن يردعه قبل إتمام تلك المهامّ.

قرّرت أمّ عليّ الاحتفال برحيل شجرة الدرّ. أعطت الأمر منذ الصباح الباكر بتوزيع الخبز والحليب

والثمار المجفّفة والسكّر على فقراء المدينة. حين وصل ابن مرزوق إلى منزله وقد نال منه الإرهاق وخصوصًا الحزن، وجد إحدى إمائه وقد أخذت حصّة من تلك الهدايا. ناولته قصعة غمست فيها الخبز بالحليب والسكّر والثمار المجفّفة.

– ما هذه الحلوى؟ من أين تأتي؟ سألها ابن مرزوق.

– في المدينة، أطلقوا على هذه الحلوى تسمية أمّ عليّ [1].

لبث ابن مرزوق حائرًا ما بين التعاسة والغضب. فأمّ عليّ لن تنفكّ تفاجئه بحقارتها المرّة تلو المرّة. ولكن ما الجدوى من الغضب؟

فأجاب أمته، سئمًا وخائر القوى:

– طبق حلوى! هذا كلّ ما سيبقى من أمّ عليّ وابنها!

---

[1] لا تزال حلوى «أمّ عليّ» طبقًا شعبيًّا رائجًا في الشرق الأوسط.

شكر

شكرًا يا فؤاد، فكلماتك قد تركت فيّ أثرًا عميقًا، لأنّ أعظم رضا يعرفه مَن يخوض مغامرة الكتابة، هو أن يشعر بأنّ الآخرين فهموه، وخصوصًا مَن هو مرهف، وقد حقّق ذاته مثلك.

روجيه، أشكر لك ثقتك.

بثينة، أشكر لك تفاؤلك الذي يسري على كلّ مَن حولك.

صوفي، أشكر لك مساعدتك القيّمة جدًّا.

والشكر الأكبر لشقيقتي وكلّ الصديقات اللواتي شجّعنني على المضيّ في هذه المغامرة حتّى النهاية، واللواتي سيتعرّفن من خلال هذه السطور على شيء من مزايا شخصيّاتهنّ.